Mngool.com

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣١٧ - ذو القعدة ١٤٢٣ هـ - يناير ٢٠٠٣م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 317 - JAN. 2003

إخفاق الجامعات العربية
في تحقيق التنمية البشرية

النظم الخبيرة وتطبيقاتها
في المكتبات ومراكز المعلومات

تكتل تجاري عربي لحماية
المصالح المشتركة وتنميتها

اللغة والتواصل الاجتماعي

كيف تهدد
الحرب الجرثومية المدنيين؟

شاعر من جُدَّة
يسيّر جيشًا إلى الروم

أسباب انتشار المدارس
في العصر الأيوبي

الديكور والمؤثرات البصرية
في المسرح

الرسام الإيراني
حسين بهزاد



فنون الزخرفة والتصوير الإسلامية

الفيصل
الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي « رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ٧٠ ديناراً - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ ديناراً - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية - الشركة السعودية للتوزيع - هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢). مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢٠٠، سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨. فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١- ٠٠٩٦٣، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ٧١ - ٠٠٢١٦، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ - فاكس ٤٦٦١٨٦٥ - ٠٠٩٧٤، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦- ٠٠٩٦٢، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٠٠٩٧١، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٠٠٩٦٥، المغرب ، الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ - ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية - القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ - ٣ - ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧


مطابع هلا
٤٨٢١٣١٣





قراءة جديدة في فنون الزخرفة والتصوير الإسلامية

نُسب كثير من أساليب الخط العربي إلى مدن معينة، منها الخط «الحيري» نسبة إلى الحيرة، والخط «الأنباري» نسبة إلى الأنبار، والخط «المكي»، و«المدني»، و«الكوفي »، و «البصري».
وقد تطورت هذه الأساليب مع انتشار الإسلام، وأصبح الخط العربي عنصراً أساسياً من عناصر الزخرفة في الفنون الإسلامية.. فكيف ازدهرت تلك الفنون؟ وكيف تأثرت بثقافات البيئات التي أشرق فيها نور الإسلام؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:
هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨

واحة الفيصل

بداية أود أن أتقدم إليكم شاكراً لكم هذا الجهد المبارك، والمتمثل في هذا النور الساطع الذي يطلع علينا بداية كل شهر عربي.

والحق أن مجلة الفيصل وما توفره لقرائها الكرام من مواد ثقافية رصينة جعلها - وبجدارة - موسوعة ثقافية متجددة تثري الساحة الثقافية بموضوعاتها وبحوثها المنتقاة في مجالات الفكر والأدب والعلوم والفنون والتي تطرحها بأسلوب علمي موثق ومبسط دون الطرح الأكاديمي الموغل في التفاصيل. ولعله من المفيد أنني من شدة حبي وتعلقي بهذه المجلة النورانية خاطبتكم من خلال أربع رسائل متعاقبة مضمونها طلب التكرم ببعض الأعداد من المجلة، والحق أقول أنني كنت في كل يوم، بل في كل لحظة أنتظر الرّد، ولكن ويا للأسف الشديد لم أتلق منكم أي ردّ على هذه الرسائل. آمل ألاّ يكون التجاهل أو الإهمال هو المانع من الرد علماً أنه لا يتوافر لدي من هذه المطبوعة الغالية سوى بعض الأعداد التي أستأنس بها في كل دقيقة، لأنها - بحق - خير رفيقة. وها أنذا أراسلكم وللمرة الخامسة على ألاّ يكون مصير هذه الرسالة كمصير غيرها آملاً في أن أتلقى منكم رداً كريماً متمثلاً في التكرم ببعض الأعداد. ويا حبذا لو توثقت صلتي بكم من خلال هذه المجلة عن طريق منحي اشتراكاً مجانياً فيها - إن أُمكن إلى ذلك سبيلاً - وفي الختام أطمع في رحابة صدركم لتتقبلوا مني بعض الاقتراحات التي آمل أن تنال قبولكم واستحسانكم :

- أقترح أن يكتب عنوان كل موضوع أو مقال بنوع معين من الخط ومن الخطوط التي أراها مناسبة : خط الثلث - الخط الديواني - الخط الفارسي - خط النسخ - خط الرقعة.

على أن تختار الألوان الزاهية لكتابتها، مع مراعاة الأرضية التي تكتب فيها، وجاء اقتراحي هذا بعد أن رأيت في الأعداد التي تتوافر لدي اعتماد خط وحيد في كتابة كل عناوين الموضوعات المدرجة.

والهدف من الاقتراح هو إظهار روعة الخط العربي، وإضفاء جمالياته على صفحات المجلة.

- تخصيص باب يعنى بالنوادر والحكم والفوائد والمأثورات على أن يكون تحت مسمى «واحة الفيصل».

بما أن المجلة تصدر عن مؤسسة الملك فيصل الخيرية، هذه المؤسسة التي لها باع طويل في العمل الخيري والاصلاح الاجتماعي، لذا أقترح أن تخصص المجلة اشتراكات مجانية بنسبة معينة ومحددة تمنح لذوي الحاجة من طلاب المعرفة؛ وذلك دعماً لأعمال الخير التي تقوم بها المؤسسة في المجال الثقافي.

هذه مجرد اقتراحات بسيطة أبديتها لكم، ربما ترون خلافها والرأي الأمثل لكم .

هذا والله يحفظكم ويرعاكم ويسدد خطاكم

النعاس بن محمد عماري

ولاية الجلفة - الجزائر

التحرير:

نشكر لك تعلّقك بالمجلة، ونأمل أن تكون عند حسن ظن أمثالك من القراء.

ونفيدك أن المجلة لا تهمل أي رسالة لقارئ، وتحرص على الرد عليها في هذا الباب، أو من خلال الرد المباشر على العنوان المدون في الرسالة، ونأسف لعدم استطاعتنا تلبية جميع طلبات الإخوة القراء.

ويبدو أن ما لديك من أعداد الفيصل قديمة، عندما كانت تعتمد على الخط الكوفي في كتابة العناوين، وهي الآن تعتمد على خطوط الكمبيوتر، علماً أن توحيد المنهج في كتابة العناوين من أهم السمات التي تكسب أي دورية شخصيتها المميزة.

وإذا تابعت المجلة فستجد اهتماماً بالتراث بكل ما فيه من نوادر وحكم ومأثورات مما لا يستوجب وجود باب خاص به.

ونفيدك أن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ودار الفيصل يقدمان خدماتهما لكثير من المراكز العلمية من دون مقابل مراعاة لظروفها وخدمة للباحثين الذين يستفيدون من خدماتهما، ولا نريد التوسع في الحديث وتناول ماتؤديه المؤسسة من خدمة جليلة للباحثين والدارسين من خلال منحها الدراسية، ورعايتها ودعمها بناء المدارس والمساجد في كثير من البلدان العربية والإسلامية؛ وذلك لأن هذا حديث طويل لا يسع المجال لحصره.

الحفظ وأهميته

فثمة قضية تربوية مهمة لا تزال تطرح بين الفينة والأخرى على مستوى مصادر التأثير والقرار في المنحى التعليمي التربوي في البلاد العربية والإسلامية، ولم تزل مؤسسات التأثير في التعليم العام والمتخصص في الأوساط الغربية بل والشرقية والتي لا ترفع رأساً بمناهج التعليم الإسلامية وخصوصيتها الشرعية الربانية.

إنها - يا معشر الإخوة - قضية الحفظ وعلاقتها بتلقي التعليم، هذه القضية التي أضحى الخلط فيها عجيباً ومريباً.

إننا نفرق بين نوعين من أنواع العلم، وهو العلم الديني المتعلق بالديانة التي يتدين بها المتعلم صغيراً كان أو كبيراً، والعلم الدنيوي، وهو المتعلق بالعلوم المادية التي لها صلة بمناحي التطور والتجريب والتركيب المادي إن صح التعبير.

وكلا النوعين يفتقران إلى قدر متفاوت بين الحفظ المعتمد على التلقين. فجدول الضرب مثلاً، لا بد فيه - ولا سيما في مراحل التعليم الأولي - من التلقين، وقل مثل ذلك في النظريات الرياضية.. على أنه في التعليم الديني الشرعي كحفظ القرآن وحديث النبي

صلى الله عليه وسلم، فإن الحفظ فيهما شرط أساسي، وطريق لا بد منه للفهم، ومن ثم الاعتقاد والعمل. وإن القدح فيه قدحٌ في النبوة والوحي من جهة تلقيه من الله عز وجل، ومن جهة إبلاغه للناس من لدن النبي صلى الله عليه وسلم، بل والأنبياء قبله إلى أممهم. يدل على ذلك وصف الله لنبيه ولأهل العلم بقوله تعالى : *وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون.* **العنكبوت:٤٨**.

والنبي صلى الله عليه وسلم في تلقينه أصحابه، ثم الصحابة من بعده وحي الله في الكتاب والحديث تعويلاً على هذه الملكة «الحفظ» والتي أضحت أبرز سمات حضارة المسلمين في حفظ دينهم، نعم لما جربنا ترك الحفظ إلى حد بعيد في مناهج التعليم النظرية والشرعية والعربية خرّجت مؤسسات التعليم، حتى العليا منها، كتبة وقرّاء في أحسن الأحوال، وغاب تخريج العلماء الذين حوت صدورهم العلم حفظًا يعوّل عليه الفهم والدعوة. بعده النظر والعمل ـ فما أكثر الدعاة، وحملة المؤهلات، وقلة العلماء والفقهاء! والله أعلم.

علي بن عبدالعزيز الشبل
جامعة الإمام ـ السعودية

التحرير:

نشكر لك مشاركتك القيمة، وإن كنا نرى أن الموضوع يحتاج إلى استيفاء جوانبه كافة لتحقيق الفائدة المرجوة، ونتوقع أن تجد نقاشًا مستفيضًا من الإخوة القراء.

الاستطلاع

إنني من المعجبين بمجلة الفيصل، والمثابرين على اقتنائها، والمحافظين عليها. ومعجب بباب «الاستطلاع» الذي يشرح عن بعض البلدان ما فيه الكفاية.

وأقترح عليكم اصطحاب الاستطلاع بمصور يبين مكان الاستطلاع وما يحده من جهاته الأربع مع أسماء تلك الجهات، لتكون الفائدة أعم.

عبدالله عبدالحميد سلطان
حماة ـ مرابط ـ
بقالية البوشي ـ سورية

التحرير:

اقتراحك وجيه، ويستحق الأخذ به، ونحن نشكر لك هذا الاهتمام بمجلتك الفيصل.

ردود سريعة

الأخ: عبدالله أحمد باوزير ـ المكلا ـ اليمن:

نأمل موافاتنا بعنوانك الجديد؛ لأن الخطاب الذي أرسلناه إليك قد أعيد، كما نود من الإخوة الذين لديهم مقالات لم تنشر بعد أن يوافونا بعناوينهم الجديدة إذا حدث أي تعديل في العنوان الموضح في المقالة المرسلة.

الأخوان: أحمد يوسف بجوح (أبوخالد) ـ ريف دمشق ـ سورية، وبلال محمد ـ الرباط ـ المغرب:

نأمل أن يتقبل الله دعوتكما بازدهار المجلة وتقدمها، والمجلة حريصة على أن تكون عند حسن ظن قرائها بها.

ونشكر لكما ما أبديتماه من إعجاب بأسئلة المسابقة، وسنعمل مستقبلاً على تطوير المسابقة وزيادة قيمة جوائزها.

الأخوان: جلال السعيد السيد ـ كفر الشيخ ـ مصر، وعبدالغني عبدالهادي ـ عمان ـ الأردن:

سبق أن ذكرنا أكثر من مرة أن ما يصل إلى المجلة من عدد كبير من المقالات يحول دون نشر المقالة حال وصولها، لذا يحدث التأخير، وبخاصة في بعض المجالات التي يكثر الكُتّاب طرقها، فتحول ضرورات تنويع المادة في كل عدد دون نشر مقالات تتشابه موضوعاتها، لذا نأمل المعذرة من جميع الإخوة الكتّاب.

أما «ردود وتعقيبات» فإن الباب لا يتسع لأكثر من رسالتين. وفي بعض الأحيان نكتفي بنشر رسالة واحدة إذا كانت المقالة طويلة، ولكما الشكر على ما تبديانه من حرص على التواصل مع المجلة.

الأخت: عبير توفيق جبر ـ الخرطوم ـ السودان:

نرحب كثيراً باستطلاعات عن دول العالم، وسبق أن نشرنا استطلاعات عن السودان، ونأمل أن نتلقى المزيد منها، ونتمنى أن يحرص الإخوة الكتّاب الذين يرسلون استطلاعات مصورة على أن تكون نوعية الصورة المرفقة عالية الجودة، كي يساعد ذلك على إبراز مادتهم بالصورة المطلوبة.

قراءة جديدة في فنون الزخرفة والتصوير الإسلامية

سعد بشير فنصة
دمشق - سورية



شاهد قبر لطفل من العصر المملوكي مؤرخ عام ١٣٥٠م ، نقش عليه بالخط الكوفي ضمن زخارف نباتية: *«بسم الله الرحمن الرحيم - كل من عليها فان ويبقى وجه ربك»*

كيف تطورت الفنون الإسلامية؟ وما العوامل التي ساهمت في انتشارها بهوية الحرف العربي، وأركان الثقافة الإسلامية؟ وإلى أي حد تأثرت وأثرت في ثقافات البيئات التي طال إليها المد الإسلامي؟ وإلى أي حدٍّ سمح للفنان المسلم بمحاكاة الإنسان والطبيعة.. تصويرًا ونحتًا أو رصفًا فسيفسائيًا؟

ربما لا تجيب السطور القادمة عن كل هذه الأسئلة، ولكنها تقدم منظورًا جديدًا ومستقلاً عن دراسات المستشرقين، وتعتمد كليًا في هذا النص على الاكتشافات الأثرية والوثائق التاريخية.

في الخط والزخرفة

تذكر المصادر العربية أن أساليب الخط العربي القديم التي عُرفت قبل الإسلام، وبعضها عرف بعد



فسيفساء المسجد الأموي بدمشق ـ القرن الثامن الميلادي

الإسلام، تنسب عادة إلى مدن نشأ فيها أسلوب محدد كان يجاد في بيان رسمه بعدة أسماء، منها الخط «الحيري» نسبة إلى الحيرة، والخط «الأنباري» نسبة إلى الأنبار، والخط «المكي»، و«المدني»، و«الكوفي»، و«البصري». وأول من تناول هذه الخطوط بالشرح والدراسة كان «ابن النديم» (ت ٤٣٨هـ)* ولا يمكن الفصل بين تطور الخط العربي عن مبتكرات الفن المعماري ومناهج الأداء والصنعة والسنن التصويرية عند الخزافين والنساجين والمصورين وصنّاع التحف المعدنية والخشبية والزجاجية وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية في ديار الإسلام التي لم تكن ذات طراز واحد في القرون الطويلة التي ازدهرت فيها الفنون الإسلامية، وكانت هذه الأساليب الفنية المحلية تتطور في كل إقليم تطوراً لا تفقد فيه صلتها بماضيها، ولكنها كانت عرضة للتيارات الفنية والحضارية التي تأتي من الأقاليم الأخرى، خصوصًا عندما صاغ الإسلام أركان حضارة واسعة وحّد العرب بين أشتاتها، فالمعروف أن العرب أفلحوا في أن يفرضوا لغتهم في معظم البلاد التي تألفت منها ديار المسلمين، وأنهم حين لم يفلحوا في القضاء على اللغات القومية بين كل طبقات الشعب في بعض البلاد التي دانت لهم، استطاعوا أن يحولوا تلك البلاد إلى كتابة لغتها بالخط العربي، وهكذا انتشر الخط العربي في الإمبراطورية الإسلامية كلها، وأتيح له أن يصل في نحو أربعة قرون إلى جمال زخرفي لم يصل إليه خط آخر في تاريخ البشرية، وأصبح عنصراً أساسيًا من عناصر

الزخرفة في الفنون الإسلامية، وقد نال الخط العربي قسطاً من التجديد والابتكار في العراق وسورية، وفرغ العرب لتجويده والإبداع فيه، واهتم الأمويون في الشام بالكتابة العربية اهتماماً فائقاً، ولعل أول انتشار للكتابة العربية من مكة إلى المدينة المنورة مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن أهم أنواع الخط العربي الذي نجده في غالبية التزيينات هو الخط الكوفي الذي يأخذ طابعاً هندسياً حاد الزوايا، وقد انتشر في جميع الأقاليم الإسلامية، واستعمل بصفة خاصة في كتابة القرآن الكريم نحو خمسة قرون.

طرأ التطور في هذا الأسلوب منذ نهاية القرن الثامن الميلادي فزينت نهايات حروفه بزخارف نباتية، وكتب نوع آخر منه على أرضية من الزخارف الملونة، هندسية ونباتية، ونوع آخر منه مُصغَّر ذو حروف مترابطة، وقد قلَّ استخدام الخط الكوفي منذ القرن الحادي عشر، وحل محله خط لين ذو حروف مدورة شاع استخدامه مع الخط الكوفي خاصة في المكاتبات المختلفة وأعمال التدوين العادية، ومن أنواع الخط اللين الأخرى الثلث، والرقعة، والريحاني، والديواني، والطومار، وهو نوع من الخط الغليظ استعمل في العهد المملوكي، ويمتاز باستدارة حروفه استدارة كبيرة، واستعمل أيضاً في شمال إفريقية والأندلس.

ومن الخطوط القديمة التاريخية هناك «التعليق» وفيه تميل الحروف من اليمين إلى اليسار في



فسيفساء المسجد الأموي بدمشق - تفصيل مكبر


دواة حبر كتب عليها «الإقبال لصاحبه» بخط النسخ من الخزف تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي - متحف دمشق الوطني

اتجاهها من أعلى إلى أسفل، وقد استعمل في إيران خلال القرن الثالث عشر الميلادي، و«النستعليق» الذي يعدُّ من أكثر الخطوط اللينة رشاقة، وازدهر أيضًا في إيران خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وفي العصر العثماني زادت العناية بتركيب الجمل والأسماء على شكل «الصغراء» التي كانت صفة مميزة للعصر العثماني، وكان بلاط سلاطين بني عثمان يضم كبار الخطاطين والمصورين الذين نالوا شهرة كبيرة وحظوة رفيعة. وهكذا أمسى الخط العربي بزخارفه وأسلوب بيانه ورسمه وصنعته يؤرخ للأثر الفني والإقليم الذي صنع فيه.

وإذا كانت الفروق بين الطرز الفنية المختلفة أظهر ما تكون في فن العمارة، لأن فن العمارة أكثر اتصالاً بالإقليم الذي يشاد فيه، فقد كان تبادل العناصر الفنية وتأثر بعضها ببعض أشهر في ميدان الفنون الزخرفية سواء أكان ذلك عن طريق ترقين المخطوطات أم تذهيبها وتزيينها بالأصباغ البراقة أم تزويقها بالنقوش والتصاوير.

وهكذا نرى أن للعمائر والتحف الإسلامية طابعًا


صفحة من ديوان شعر لحافظ الشيرازي مصورة تعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي - متحف دمشق الوطني

خاصًا، ولكنها تتميز بعضها من بعض، وتختلف بحسب الإقليم والعصور المختلفة، فالعمائر تختلف في مواد البناء، وفي النحت على أنواع الأعمدة وتيجانيها، وفي العقود والمآذن والقباب، وفي ضروب المواد التي تكسى بها الجدران، والزخارف الهندسية والكتابية والنباتية التي تزينها، أما التحف فتختلف في طرائق صنعتها، ومناهج أدائها، وأساليب زخرفتها، والألوان المفضلة التي يُقبل عليها إقليم دون آخر، فضلاً عن أن بعض أنواع الأساليب والتحف كانت تزدهر صناعته في إقليم دون سائر الأقاليم الإسلامية بسبب وفرة موادها الأولية، أو بسبب خبرة طويلة في إنتاجها، وأساليب موروثة

احتذيت عهداً بعد عهد، بحيث أمكن القول: إن كل هذه الفنون الإسلامية المختلفة كانت من أحد أهم مظاهر عمق الحضارة الإسلامية وبلوغها شأناً بعيداً في الفكر الإنساني والتفاعل الثقافي في العالم القديم، وهناك حقيقة تاريخية، وليست مبالغة، وهي أنه على مدى عدة قرون كانت مشاغل الرقة وحلب ودمشق في بلاد الشام تنتج أروع أنواع الخزف والقيشاني البديع بصفة خاصة، وكان بعض أنواع الزجاج الرقيق والملون والمذهب يصدر إلى الصين ذاتها كمنتج غالي الثمن ومترف.



إبريق فخاري زين جذعه بنطاق كتابي كوفي مضفور ضمن وسط زخرفي شبه هندسي - متحف دمشق الوطني

التصوير والنحت الإسلاميان

لقد أقدم المصورون المسلمون على إعادة إنتاج المشهد المصور بتسطيح المنظور بالنسبة إلى لوحات رسمت في كثير من المخطوطات والكتب القديمة، ويمكن ملاحظتها في أغلب متاحف العواصم التاريخية، في بغداد وإستانبول ودمشق والقاهرة، التي ضمت خزائنها بعض هذه المخطوطات، ولكن تستوقفنا أقدم الوثائق الإسلامية في التصوير الفسيفسائي الملون، وهي بالتأكيد من أكثرها تاريخية وقدماً، وما زالت أجزاء كبيرة منها مرصوفة على جدران المسجد الأموي بدمشق، وما تمثله من رسوم ملونة هي غاية في الروعة الفنية والدراسة اللونية، فقد وزعت مناطق الظلال والألوان بتدرجاتها الأقرب للواقعية



جانب من ضريح خالد بن الوليد الخشبي، صنع في العصر المملوكي في عهد السلطان الظاهر بيبرس، عليه شريطان كتابيان: الأعلى كتب بالخط الثلث، والأسفل بالخط الكوفي في وسط زخرفي. متحف دمشق الوطني

بمهارة وإتقان عاليين على الرغم من صعوبة التشكيل الفسيفسائي، وقد مثلت موضوعات مازال الخلاف في تفسيرها قائماً إلى اليوم.

وقد تناولت الموضوعات الفسيفسائية في العصر الأموي صور الطبيعة من بساتين وأشجار وأنهار جارية وبيوت.. بل ومدن رسمت كما لو أنها قصور محصنة عالية، ويذكر أحد المؤرخين أنه ما من شجرة ولا مدينة مشهورة إلا مثلت على جدران المسجد الأموي.

وعلى الرغم مما أثبتته الوثائق المكتشفة في بلاد الشام التي تعود إلى ما قبل الإسلام من اهتمام الفنان بالموضوعات الإنسانية، فإن الشيء الجديد في رسوم فسيفساء الأموي هو ابتعادها عن الرسوم الإنسانية، على الرغم من أن قصور الخلفاء الأمويين كانت حافلة بالرسوم والمنحوتات الإنسانية، وهكذا نجد أن منع التصوير الإنساني قد استثني في القصور التي أعدت للراحة والمتعة وكانت بعيدة عن الناس ورقابة المؤمنين، ويمكننا من خلالها فهم مبادئ فلسفة الفن العربي، ومن المؤكد أن هذه المبادئ كانت موجودة في البلاد العربية منذ القدم، واستمرت قائمة حتى عهود متأخرة، ولكنها كانت تنساق نحو التجريد والزخرفة أكثر من التصوير أو تكون الموضوعات مثبتة حسب خدمات البناء وتبعاً لوظائفه المختلفة، فدور المسجد بوصفه مكاناً للعبادة كان بعيداً عن دور قصور الاستجمام وحماماتها الباذخة التي كانت رسوم جدرانها تصور

النساء بوثائق مؤكدة اكتشفت في كثير من القصور الأموية في بلاد الشام.

ففي قصر عميرة في الأردن (بدئ بعمارته سنة ٧١١هـ) حفلت الجدران برسوم ملونة تمثل مشاهد الصيد وبعضها يمثل مشاهد استجمام وأنشطة رياضية، وأوضاع مصارعة ومنازلة، وبعض الصور على قلتها هي لنسوة في أوضاع مختلفة أو ضمن مجموعات متجانسة، ولوحات جدارية رمزية أخرى كثيرة ومتنوعة قد يصعب تفسيرها إلا أنها عدّت تلخيصاً للمشاهد الغرامية المستحبة في الشعر العربي، وتعكس بصدق المفهوم العربي للجمال الأنثوي.

وفي قصر الحير الغربي وسط بادية الشام (بني عام ٧٢٧م وأعيد إنشاء أجزاء منه في متحف دمشق الوطني) يحفل بالتماثيل الإنسانية والرسوم الجدارية الضخمة التي تصور بعضها مشاهد أسطورية قديمة متأثرة بالأدبيات الإغريقية.

وترجع كراهية التصوير في الإسلام إلى عصر النبي العربي صلى الله عليه وسلم، وفي أساسها الحرص على الابتعاد عن الوثنية وعبادة الأصنام، فضلاً عن النفور من مضاهاة خلق الله، وعن كراهية الترف، والأمور الكمالية في ذلك العصر الذي ساد فيه الزهد والتقشف والجهاد في سبيل الله، ولسنا هنا بصدد عرض موقف الإسلام من التصوير والنحت، ولكن تقرير الواقع، والتاريخ يدل على أن المسلمين مارسوا النحت والتصوير، ولم ينصرفوا عن تصوير الكائنات الحية انصرافًا تاماً، كما يشهد تاريخ الفنون الإسلامية بازدهار فن التصوير، في كثير من الأقاليم التي كان لها تقاليد فنية قديمة



لوح من الحجر الرملي يصور ساقيًا يعود إلى العهد الأتابكي، القرن الحادي عشر الميلادي، كتب عليه «بركة من الله لصاحبه» - متحف دمشق الوطني

في النحت والتصوير مثل إيران والبلاد التي تأثرت بإيران أو التي خضعت في فترة التاريخ الإسلامي لسلطانها الثقافي والفني، كالعراق، والهند، وتركيا، خصوصاً فترة العصور الوسطى، وكان توضيح المخطوطات بالتصاوير شائعاً، وإن قلَّ أن أصاب المصور نجاحاً كبيراً في نقل الطبيعة ومحاكاتها والتعبير عن أجوائها في تلك التصاوير، ونرى أن فنون التصوير الإسلامية لم تعرف في تصوير الكائنات الحية تطوراً طبيعياً وسيراً في سبيل الإتقان وحسن تقليد الطبيعة والأشكال، وإن كانت فسيفساء المسجد الأموي وغيرها استثناءً واضحاً في مرحلة تاريخية مبكرة، فظل المصورون المسلمون فيما بعد جامدين ومقيدين بأساليب يرمزون فيها إلى الطبيعة وكأنهم لا يجسرون على تقليدها تقليداً حياً أميناً خشية أن يكون في ذلك محاكاة لقدرة الخالق عزَّ وجلَّ، فقوانين المنظور غير محترمة، والرسوم مكونة من مستوى واحد، والفنان لا يُعنى برسم أجزاء الجسم رسماً يحترم فيه عالم التشريح، ولا يدرس بيان الضوء وتوزع الظلال، ويستعيض من ذلك في توزيع الألوان التي تكسب الصورة حياة أخرى، وبريقاً بديعاً، وطابعاً زخرفياً، فتبدو وكأنها تحفة من الألوان لا يكون فيها عمق أو تدرج، والناحية الأهم هي أن المصور المسلم لم يتميز بإنتاجه عما يميزه من زملائه الفنانين، وإن اختلفت المرحلة التاريخية، قصرت أم طالت، ولكن يمكن تحديد أن بعضهم قد أصاب جانباً كبيراً من المهارة والإتقان في الرسم والزخرفة، ولا ريب أن السبب الأساسي في اختفاء شخصية الفنان في الإسلام هو كراهية تصوير الكائنات الحية، ومن نتائجه أيضاً أن أصبحت هوية الفنون الإسلامية ممثلة في الزخارف والخط والعمارة والفنون التطبيقية، وفي هذا تميز واضح وهوية مستقلة عن فنون الغرب كافة يعيد إحياءها اليوم كثير من الفنانين شرقاً وغرباً، عرباً وأجانب.



ـ صحن قاشاني من النوع المخروز رسم في وسطه امرأة جالسة وبيدها قدح، مكتشف في حماة، ويعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي ـ متحف دمشق الوطني

الهوامش والمراجع

* ابن النديم محمد بن إسحاق: بغدادي المولد، احترف الوراقة والكتابة فأتاحت له هذه الحرفة معارف واسعة بالتصانيف ومؤلفيها، ويعد كتابه «الفهرست» مرجعاً يدل على إحاطة ودقة فيما رأى وسمع وقرأ، والكتاب يعطي صورة واضحة للحصيلة العلمية الضخمة التي كانت بين يدي طلاب العلم بديار الإسلام منتصف القرن الرابع هجري.

١ـ د. زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
٢ـ د. زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
٣ـ جورج مارسيه، الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي. منشورات وزارة الثقافة بدمشق.
٤ـ أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي، أصوله فلسفته مدارسه، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
٥ـ عفيف بهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٣م.
٦ـ سلسلة محاضرات للكاتب ألقيت في دمشق وحلب تبحث في تطور ذهنية النحت القديم في الآثار السورية.
٧ـ معلومات تاريخية موثقة من أرشيف السيدة منى المؤذن أمينة متحف الآثار الإسلامية بدمشق.

إخفاق الجامعات العربية في تحقيق التنمية البشرية

علي القاسمي
تمارة - المغرب

يتوقف غنى الأمم وفقرُها اليوم على فاعلية التعليم العالي، وقدرته على استيعاب الانفجار المعرفي، ومواكبته التحولات الجذرية المتلاحقة في ميدان تقنيات المعلومات والاتصال، ومشاركته في صنع المعرفة عن طريق البحث العلمي، وانتقاله من تعليم الخاصة إلى تعليم العامة، وانفتاحه على محيطه الاجتماعي والاقتصادي لتحقيق التنمية المنشودة. فثروة الأمة لا تقاس بما هو مخزون في أرضها من معادن، وإنما بما تكتنزه أدمغة أبنائها من معارف وعلوم وتقنيات(١).

لم تكن البلاد العربية تتوفر عام ١٩٥٠م إلا على عشر جامعات فقط لا يتجاوز عدد طلابها بضعة آلاف. ثم تضاعف عددها مراراً حتى أصبح لدينا الآن نحو مئتي جامعة يزيد عدد الطلاب المنخرطين فيها على أربعة ملايين طالب وطالبة، أي نحو ٢٠٪ من السكان من الفئة العمرية ١٨ ـ ٢٣ سنة. ومنذ الخمسينيات والدول العربية تخصص للتعليم، وبضمنه التعليم العالي، ما يراوح بين ٢٥٪ و٣٠٪ من موازناتها السنوية. ومع ذلك كله، فإن التعليم العالي في الوطن العربي أخفق في توفير الشروط اللازمة لقيام تنمية شاملة على الرغم من النمو الكبير الذي أصابه في حجمه وتخصصاته ومستوياته!(٢).

مظاهر التخلّف

المنظمات الدولية المتخصصة تصنّف الأقطار العربية ضمن البلدان النامية، وهي تورية دبلوماسية للإشارة إلى البلدان المتخلفة. ومظاهر التخلف متعددة في نظر الاقتصاديين، أهمها: انخفاض معدل الدخل الحقيقي للفرد، والتفاوت الحاد في توزيع الثروة بين المواطنين، وعدم استغلال الموارد الطبيعية بشكل كاف، وضعف البنية التحتية من طرق ومواصلات ووسائل اتصال وكهرباء وماء، ونقص في رؤوس الأموال، وعدم استخدام وسائل الإنتاج المتطورة، وضعف الأداء المهني لدى العاملين في قطاعات الإنتاج والخدمات، وانخفاض المستوى الثقافي والصحي لدى المواطنين، وانفصام بين



التعليم العالي في الوطن العربي لا يزال تعليماً للخاصة

ما يوجد في القوانين وما يمارس في الواقع، وأخيراً وليس آخراً ضعف الإدارة وفسادها وتفشي المحسوبية والرشوة فيها.

التنمية البشرية الشاملة

لقد حدثت تحولات مهمة في مفهوم التنمية خلال العقود الثلاثة الأخيرة بفضل التطورات التقنية الحديثة خاصة في نظم المعلومات والاتصال وما أعقبها من تغييرات هائلة في السياسات والبنيات الاقتصادية والاجتماعية. فلم يعد (معدل دخل الفرد) معياراً كافياً للنمو الاقتصادي أو التخلف؛ فقد يكون متوسط دخل الفرد مرتفعاً جداً في دولة من الدول، ولكن نسبة عالية من سكانها تعاني الأمية أو الفقر أو البطالة الحقيقية أو المقنعة. كما لم تعد التنمية تعني العمل على أن يكون معدل الزيادة السنوية في الناتج القومي أعلى من معدل الزيادة السنوية في عدد السكان؛ فقد تحقق الدولة ذلك، ولكن عدد الفقراء فيها يتزايد، ونسبة البطالة ترتفع.

ولهذا ظهر مفهوم التنمية البشرية الشاملة ومعيارها (الرفاه الاجتماعي). ويقاس معدل التنمية البشرية الشاملة بإنجازات البلد في مجالات أساسية ثلاثة هي:

- تمتع الأفراد بصحة جيدة وحياة مديدة، ويقاس ذلك بمعدل العمر المتوقع للفرد.
- انتشار المعرفة الذي يقاس بمستوى التعليم بين الراشدين، وبمعدل الالتحاق بالتعليم الابتدائي والثانوي والعالي.
- مستوى المعيشة الذي يقاس بمعدل الدخل الفردي.

وتيسر التنمية البشرية للبلاد تحقيق مستوى معين من التقدم التقني يظهر في مشاركة أهل البلاد في إبداع التكنولوجيا، وانتشار المبتكرات الحديثة بينهم، وتوفرهم على المهارات الإنسانية.

وبينما تصب التنمية الاقتصادية اهتمامها على زيادة الإنتاج فقط، فإن التنمية البشرية الشاملة لا تتوقف عند الجانب الاقتصادي فحسب، وإنما تمتد كذلك إلى

الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية، وتركّز في توزيع الثروة بصورة عادلة، وتحسين نوعية الحياة لجميع المواطنين. إنها تنمية إنسانية متوازنة مرنة تتخذ من الإنسان أداة وهدفاً، فهو محور نشاطها، ومحط عنايتها. ومعيارها هو (الرفاه الاجتماعي) الذي يعبّر عن مدى إشباع حاجات الناس الأساسية من سكن وغذاء وتعليم، ومدى تمتعهم بالرعاية الصحية والضمان الاجتماعي والخدمات الترفيهية.

متطلبات التنمية

ولكي يتحقق هذا النوع من التنمية لا بد من توافر المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي الملائم: مناخ سياسي يقوم على مبدأ الحرية والمساواة، تُحترم فيه حقوق الإنسان، وتُصان كرامته، ومناخ اجتماعي يسود فيه التعاون والتكامل بين مكونات المجتمع أفراداً ومؤسسات، ويعمّ فيه الأمن والطمأنينة، مما يتيح للإنسان تحقيق ذاته، وتحرير إمكاناته المبدعة، وإطلاق قدراته الخلاقة، ومناخاً ثقافياً تندثر فيه الأمية، وتشيع فيه المعرفة العلمية والتقنية، وتسود فيه قيمة العمل، فيشارك الرجال والنساء معاً في الإنتاج.

الوضع في الأقطار العربية

وإذا نظرنا إلى الوضع في الأقطار العربية وجدنا أن التنمية - حتى بمفهومها الاقتصادي المحدود - بطيئة إذا ما ووزنت بما عليه الحال في أقطار العالم الأخرى. فإحصاءات البنك العالمي تشير إلى أن معدل نمو دخل الفرد في الأقطار العربية خلال العقدين الأخيرين لم يتجاوز ٥.٠٪ (نصف بالمائة) بالموازنة مع الأقطار النامية حيث بلغ فيها ٣ر٣٪. وحتى في الأقطار الأقل نمواً، كان معدل النمو ٩.٪ في الفترة نفسها. وتشير هذه الإحصاءات كذلك إلى أن مؤشر الإنتاجية في الشرق الأوسط وشمال إفريقية في الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٠م قد انخفض بنسبة ٠٢٪. فقد كان معدل الدخل الوطني العام للعامل الواحد في البلاد العربية عام ١٩٦٠م أعلى منه في هونغ كونغ وكوريا وتايوان. ومن ناحية أخرى، تشير تقديرات اليونسكو إلى أن عدد الأميين في الدول العربية بلغ عام ١٩٩٩م نحو ٦٨ مليون شخص، أي ما يمثّل ٤٠٪ من مجموع السكان الذين تتجاوز أعمارهم ١٥ عاماً، وأكثر من نصف الأميين من الإناث(٣).



افتقاد المعامل ومراكز التدريب من أسباب إخفاق التعليم العالي

ويعدّ البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة تقريراً سنوياً عن ١٧٣دولة يرتّبها من الأفضل (رقم١) إلى الأسوأ (رقم ١٧٣)، طبقاً لمؤشرات التنمية البشرية الشاملة التي تعتمد معايير متوسط العمر، وانتشار المعرفة، ومستوى المعيشة، كما ذكرنا. وتحتل الدول العربية رتباً متأخرة جداً في تقارير البرنامج. ففي تقريره لعام ٢٠٠١م، احتلت المغرب مثلاً الرتبة ١٢٣بعد أن كانت تحتل الرتبة ١١٢ عام ٢٠٠٠م. واحتلت مصر الرتبة ١١٥، وسورية ١٠٨، والجزائر ١٠٦، والأردن ٩٩، وتونس

٩٧، وسلطنة عُمان ٧٨، ولبنان ٧٥، والسعودية ٧١، وليبيا ٦٤، وقطر ٥١، والإمارات العربية المتحدة ٤٦، والكويت ٤٥، والبحرين ٤٣، (وهي أفضل الدول العربية في مضمار التنمية البشرية طبقا لهذا التقرير).

ولا شك أن سياسات المؤسسات التمويلية والاقتصادية العالمية، مثل البنك العالمي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية التي تهيمن عليها الدول الكبرى، لا تراعي مصالح الأقطار الفقيرة بقدر ما تسعى إلى تحقيق الأرباح لتلك الدول الكبرى(٤).

الجامعة مسؤولة عن التنمية

وقد يسأل المرء قائلا: كيف يتسنى للجامعة أن تسهم في تحقيق التنمية البشرية الشاملة التي نتمناها؟ ألسنا نطلب المستحيل منها؟!

من المتفق عليه أن التنمية الشاملة تتطلب تضافر جهود القطاع العام والقطاع الخاص والتعليم. ولكن المسؤولية الأساسية تقع أولا وبالذات على الجامعات؛ لأنها هي الأداة الأهم والأكثر فاعلية في العملية التنموية، فعليها يقع عبء تطوير أجهزة الدولة والقطاع الخاص والتعليم بشكل عام، وتوجيه نشاط هذه الأجهزة الوجهة الصحيحة التي تخدم أهداف التنمية البشرية الشاملة.

وتستعين الجامعة على بلوغ غاياتها بثلاثة أنواع من الأنشطة يكمل بعضُها بعضاً:

إعداد قيادات المجتمع، وإجراء البحوث العلمية، وخدمة محيطها الاجتماعي والاقتصادي. فالتعليم الجامعي يسعى إلى تخريج قيادات قادرة على إيجاد المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي المطلوب لإنجاز العملية التنموية. ولهذا لا يقتصر التعليم الجامعي على الإعداد الأساسي الذي يتلقاه الطلاب الجامعيون فقط، وإنما تتعهد الجامعة كذلك بتزويد قيادات الدولة والقطاع الخاص بالتدريب التكميلي والتدريب المستمر اللذين تفرضهما التحولات العالمية المتلاحقة والتطورات العلمية والتقنية المستمرة. فإضافة إلى المقررات الدراسية التي تدرّسها الجامعة لطلابها، تضطلع بتنظيم دورات تدريبية قصيرة لقيادات القطاعات المختلفة في البلاد لتزيد من كفاءاتها، وترفع من قدراتها، وتجعلها أكثر فاعلية في الإسهام في العملية التنموية.

والجامعة هي المؤسسة المؤهلة لتزويد القيادات الوطنية في مختلف القطاعات بآخر التطورات في حقول المعرفة وتدريبها على أحدث التقنيات، بفضل توفرها على هيئة أكاديمية على صلة دائمة بمصادر المعرفة العالمية، وبفضل ما تجريه من بحوث علمية تستفيد من نتائجها وتطبيقاتها جميع المؤسسات الوطنية. وتضطلع مراكز البحوث العلمية الجامعية بإجراء نوعين من البحوث: بحوث أساسية نظرية تساعدنا على فهم ذواتنا، وطبيعة العلاقات بيننا، وإدراك سنن الطبيعة التي نعيش في كنفها، فتنمو المعرفة الإنسانية عموماً، وبحوث تطبيقية تهدف إلى استثمار المعرفة العلمية في مجالات الإنتاج الزراعي والصناعي والخدمات لزيادة المردودية الاقتصادية خصوصاً.

من أسباب تدني نوعية التعليم في بلادنا عدم التوسع في فتح الجامعات لاستيعاب أفواج الطلاب المتنامية، وافتقار الجامعات الجديدة إلى التجهيزات الضرورية

ولكي يكون للتعليم العالي والبحث العلمي فائدة عملية في المجتمع يتوجب على الجامعة أن تنفتح على محيطها الاقتصادي والاجتماعي، بمعنى أن الجامعة تنشئ شراكة حقيقية مع مؤسسات القطاعين العام والخاص، بحيث تشترك هذه المؤسسات مع الجامعة في صياغة الأهداف المرحلية للمقررات الدراسية، وفي تحديد نوعية البحوث العلمية المطلوبة واستغلال نتائجها استغلالاً عملياً، وفي تنظيم الدورات التدريبية القصيرة وتأطيرها. وبطبيعة الحال تستخدم تلك المؤسسات خريجي الجامعات وتستفيد من أساتذتها بصفة مستشارين. ولكي تتوثق هذه الشراكة وتتسع قاعدتها، فإن الجامعات تُكثر من عقد المؤتمرات والندوات والموائد المستديرة التي تساهم فيها قيادات الدولة والقطاع الخاص لبلورة الأهداف، ووضع الخطط، وإجراء التقويم لمختلف

الأنشطة السياسة والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وعندما يتأكد للقطاع الخاص أنه يستفيد من الجامعة في زيادة مردوديته الاقتصادية وأرباحه، فإنه يتحمس لدعم الجامعة ماديا وتمويل أبحاثها ومؤتمراتها ومشروعاتها الأخرى.

تخلّف الجامعات العربية

وبإلقاء نظرة على أوضاع الجامعات العربية نجد أنها تبتعد كثيراً عن الصورة التي نقلناها عن جامعات البلاد المتقدمة ووظائفها، وأن التعليم العالي عموماً يعاني مشكلات عويصة متعددة تعيقه عن أداء مهمته الأساسية المتمثلة في تنمية البلاد وترقيتها. وأهم هذه المشكلات ما يأتي:

- محدودية التعليم العالي:

إن التعليم العالي في الوطن العربي لا يزال تعليماً للخاصة، ولم يُصبح بعد تعليماً للعامة. فمعدلات الالتحاق بالتعليم العالي في الدول العربية منخفضة جداً إذا ما ووزنت بمثيلاتها في الدول الأكثر نمواً. فمعدل الالتحاق بالتعليم العالي عندنا عام ١٩٩٧م لم يتجاوز نسبة ٩ر١٤٪ بينما بلغ عندهم ١ر٦١٪ (٥).

- تدني نوعية التعليم العالي:

ومن أسباب تدني نوعية التعليم في بلادنا عدم التوسع في فتح الجامعات لاستيعاب أفواج الطلاب المتنامية؛ وهذا يؤدي إلى اكتظاظ الأقسام والصفوف بسبب ضغط الطلب على التعليم العالي، الناتج من تزايد أعداد السكان. فمعدل النمو السكاني في الدول العربية يراوح بين ٥٠ر٢٪ و ٥ر٣٪ بالموازنة مع المعدل العالمي الذي لا يتجاوز ٥ر١٪. وهذا يعني أن عدد سكان الأمة العربية يتضاعف ثلاث مرات كل عشرين سنة، وأن ٦٠٪ من السكان تقلّ أعمارهم عن ٢٥ سنة، ولكثير منهم الرغبة في ولوج التعليم العالي(٦).

أضف إلى ذلك أن معظم أساتذتنا الجامعيين لا يتوفرون على تأهيل في طرائق التدريس. ولم نسمع أن كلية من كليات التربية في طول البلاد العربية وعرضها أقامت دورة تدريبية على هذه الطرائق، واستخدمت التقنيات التربوية لفائدة أعضاء الهيئة التدريسية الجامعية. ومن ناحية أخرى، لا توجد هناك علاقة رعاية أكاديمية بين الأستاذ والطالب، فالأستاذ ليس له مكتب خاص به في بناية الجامعة، ولا يُطلب منه تخصيص ساعات أسبوعية محددة يستقبل فيها الطلاب الذين يحتاجون إلى مشورته أو مساعدته على فهم ما استعصى عليهم أو مناقشة أفكارهم وبلورتها.

بينما تصبّ التنمية الاقتصادية اهتمامها على زيادة الإنتاج فقط، فإن التنمية البشرية الشاملة، تمتد إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية، وتركّز في توزيع الثروة بصورة عادلة، وتحسين نوعية الحياة لجميع المواطنين

أما طريقة التدريس المتبعة فهي على الأغلب إملاء محاضرات يحفظها الطلاب ويعيدون كتابتها على ورقة الامتحان آخر العام الدراسي.

ولا تملك جامعاتنا، حتى الحكومية منها، الموارد المالية والبشرية اللازمة، وتعوزها التجهيزات والمختبرات الضرورية. ويدلنا مؤشر كلفة الطالب السنوية على العوز المادي الذي تعانيه جامعاتنا؛ فمعدل الإنفاق السنوي على الطالب الواحد في البلاد العربية هو ٣٤٠ دولاراً، أما في الغرب فهو ٦٥٠٠ دولار(٧).

في عام ١٩٩٧م كانت هناك ١٧٥ جامعة في الوطن العربي، أسست ١٠٨ جامعات منها في فترة الخمسة عشر عاماً الممتدة من ١٩٨١إلى ١٩٩٦م، والأغلبية الساحقة من هذه الجامعات الجديدة تفتقر إلى التجهيزات الضرورية، «وتكاد لا تستحق أن تسمى بالجامعات. وكثير منها أُنشئ لأسباب سياسية، ومعظم الجامعات الخاصة منها أُنشئ لغاية الربح فقط»، كما ورد في تقرير اليونسكو(٨).

- ثقافة التعليم السلطوية:

إن التعليم العالي عندنا امتداد كيفي للتعليم الابتدائي والثانوي في ثقافته وهياكله ومناهجه وأساليبه. فثقافة التعليم عندنا تقوم على سلطوية المعلم أو الأستاذ الذي

يلقّن، وسلبية التلميذ الذي يتلقى. وهذه ثقافة لا تشجع الطالب على التساؤل والتفكير، ولا تمكّنه من الإبداع والابتكار والاختراع.

- تقوقع التعليم العالي:

ليست الجامعات عندنا منفتحة على محيطها الاجتماعي والاقتصادي، بل منغلقة حتى على نفسها، فكل قسم من أقسامها يواصل استخدام برامجه التقليدية دون الانفتاح على بقية الأقسام العلمية وتبادل المعرفة معها. وقد أمست الهوة سحيقة بين مضمونات التعليم العالي ومتطلبات سوق العمل، فمناهجه لا تواكب التطورات السريعة في ميدان العلوم والتقنيات ولا المتغيرات المتلاحقة في تقانة المعلومات والاتصال. وعملية تغيير المناهج في الجامعات أبطأ بكثير من التحولات المتلاحقة في سوق العمل. ولهذا فإن جامعاتنا متهمة بتخريج أفواج من العاطلين من أنصاف المتعلمين.

- اختلال التوازن الموضوعي في التعليم العالي:

تتطلب التنمية الشاملة توفير عدد كاف من العلميين والتقنيين في البلاد لا تقل نسبتهم عن ٥ر٢٪ من السكان. ولكن الإحصاءات تدلنا على أن معظم البلاد العربية لا تتوفر إلا على نسبة ٣ر.٪، أي أن عدد العلماء والمهندسين في كل مليون نسمة لا يتجاوز ثلاثمائة فرد، بينما يبلغ عددهم في المجتمعات الغربية ٣٦٠٠ فرد في كل مليون نسمة(٩).

وعندما نلقي نظرة فاحصة على أعداد الطلاب المسجلين في التخصصات المختلفة يتضح لنا السبب في عدم توافر العلميين والتقنيين في سوق العمل. فعلى الرغم من أن كليات العلوم والتقنيات تشكل أكثر من نصف الكليات في جامعاتنا ٥ر٥١٪، فإن عدد طلابها يقل عن ثلث مجموع الطلاب الملتحقين في الجامعات ٩ر٣١٪. وتؤكد هذه الإحصائيةَ إحصائيةٌ أخرى تشير إلى أن ٣ر٥٢٪ من حملة البكالوريوس عام ١٩٩٥/١٩٩٦م في الوطن العربي هم من المتخصصين في الآداب والإنسانيات، بينما لا يوجد سوى ٨ر٩٪ من خريجي ذلك العام الدراسي من المتخصصين في الهندسة، و ٦ر٩٪ في العلوم، و ٤ر٧٪ في العلوم الطبية، و ٣٪ فقط في الزراعة(٨).

ويمكن ردّ الأسباب في ذلك إلى سوء التخطيط، وزيادة الطلب على التعليم العالي، وعدم توافر الموارد المادية الكافية للتوسع في التخصصات العلمية والتقنية التي تتطلب تجهيزات ومختبرات عالية التكلفة، وهذا يضطر المسؤولين إلى التوسع في برامج الدراسات



التدريب التكميلي والتدريب المستمر ضروريان لملاحقة التطور

الإنسانية والاجتماعية، وهي برامج لا تستجيب لاحتياجات سوق العمل.

- **ضآلة البحث العلميّ في التعليم العالي:**

يعدّ بعضهم البحث العلمي الوظيفة الأساسية للجامعة، ويدعو إلى عدم قيام الجامعات بتدريس معلومات معروفة مسبقًا، وإنما يجب أن يقتصر التدريس فيها على المعارف الجديدة غير المتوافرة خارج أسوارها، خاصة تلك المعارف التي تكتشفها داخل مختبراتها هي. فالجامعة هي الوكر الذي يفرّخ المعرفة. ولكن قصور الإنفاق على الجامعات العربية يضطرها إلى توجيه مواردها المالية المحدودة إلى تشغيل الإدارة، وصرف رواتب الأساتذة والموظفين، وتسيير المرافق والخدمات الضرورية، ولا يبقى إلا النزر اليسير للبحث العلمي والمكتبات.

إن مجموع ما تنفقه البلاد العربية على البحث العلميّ يبقى هامشيًا، ويقلّ كثيرًا في أحسن حالاته عن ٥ر٠٪ من الناتج القومي الإجمالي بينما يخصص بعض الدول المتقدمة أكثر من ٦٪ من ناتجها القومي الإجمالي لإجراء البحوث العلمية.

أما الدراسات التي يعدّها طلبة الدراسات العليا في جامعاتنا ونسميها، تجاوزًا، بحوثًا، فهي في معظمها مجرد تمارين نظرية تبقى رهينة رفوف المكتبة ولا علاقة لها بما يجري في قطاعات الإنتاج من قريب أو بعيد.

إن مجموع ما أنفقته الأقطار العربية على البحث العلمي عام ١٩٩٦م لم يتجاوز ٧٨٢ مليون دولار أو ١٤ر٠٪ من الناتج القومي الإجمالي. وتأتي الأقطار العربية في آخر قائمة الدول في الإنفاق على البحث العلمي، حتى بعد مجموعة الدول الإفريقية ما وراء الصحراء التي تعد مواردها فقيرة جدًا إذا ما ووزنت بـ «غنى» الدول العربية(٩).

- **انعدام تقويم نوعية التعليم العالي وجودته:**

قد تخضع الجامعات في البلاد العربية لرقابة إدارية ومالية، ولكنها لا تخضع حاليًا لرقابة علمية.

فليس هنالك تقويم لبرامجها ومناهجها وأبحاثها وتجهيزاتها من قبل مؤسسة مستقلة، كما هو الحال في الغرب. فالجامعات هناك تتمتع باستقلالها الذاتي وحريتها الأكاديمية، ولكنها في الوقت ذاته تخضع لتقويم مستمر من قبل مؤسسات مستقلة متخصصة محليّة ووطنيّة. وهذه المؤسسات تضطلع بتقويم الجامعات، وتصنّفها حسب مستواها العلميّ في كلّ تخصص من تخصصاتها، وتنشر نتائج تقويمها بوسائل الإعلام المختلفة ليطلع عليها الطلاب، فيستطيعون اختيار الجامعة المعترف بها التي تلائم تطلعاتهم.

لا يقتصر التعليم الجامعي على الإعداد الأساسي الذي يتلقاه الطلاب الجامعيون فقط، وإنما تتعهد الجامعة كذلك بتزويد قيادات الدولة والقطاع الخاص بالتدريب التكميلي والتدريب المستمر اللذين تفرضهما التحولات العالمية المتلاحقة

لم يعد للطالب الحق في ولوج التعليم العالي فحسب، وإنما أصبح من حقه كذلك معرفة مستوى الجامعة التي يروم ولوجها.

تدريس العلوم بلغة أجنبية

لا تستخدم مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي اللغة العربية في تدريس العلوم والتقنيات، ولا في البحث العلمي؛ وإنما تستخدم بدلاً منها لغةَ المستعمر القديم، الإنجليزية في دول المشرق العربي، والفرنسية في دول المغرب العربي. وعلى الرغم من أن الدول العربية سعت بعد استقلالها إلى التخلص من التبعية الثقافية الاستعمارية عن طريق تعريب الإدارة والتجارة والتعليم، فإنها توقفت عند تعريب العلوم الأساسية والتطبيقية في التعليم العالي، وظلت هذه الموضوعات تُدرّس بلغة المستعمر القديم. وإذا كان هنالك في السابق بصيص أمل في استكمال التعريب، فإن هذا البصيص أخذ يتلاشى في ظل العولمة الزاحفة، إذ تبنت الجامعات التي أُنشئت في بلادنا مؤخراً

استعمال الإنجليزية في جميع المواد حتى الإنسانيات والاجتماعيات.

وتدل جميع البحوث العلمية الرصينة على أن الطالب الذي يتلقى تعليمه باللغة الأجنبية لا يستطيع أن يستوعب المعلومات بصورة جيدة، ويصعب عليه إدماجها في منظومته المفهومية، ومن ثم لا يتمكن من تمثّلها والإبداع فيها، إضافة إلى عدم قدرته على نقل معلوماته بسهوله إلى المستفيدين من معارفه وخدماته(١٠).

ما العمل؟

إن أي إستراتيجية ترمي إلى تحسين نوعية التعليم وجودته، لا بد أن تأخذ في الحسبان جميع العناصر: ماذا نعلّم؟ وكيف نعلّم؟ وما مردودية ما نعلّم؟ وأي ثقافة تعليمية نعتمد؟ وينبغي ألا ننظر إلى التعليم العالي بوصفه قطاعًا معزولاً، وإنما بوصفه نظاماً فرعياً في نظام أكبر هو المجتمع الذي نعيش فيه والعالم الذي يحيط بنا.

إن القطاعين العام والخاص مدعوان إلى دعم الجامعة ماديًا ومعنويًا، وتوفير التمويل اللازم لبرامجها، وللبحث العلمي الذي تضطلع به،وتمكينها من استقلالها الإداري وحريتها الأكاديمية. وفي مقابل ذلك يتوجب على الجامعة أن تعيد النظر في أهدافها بحيث تضع خدمة المجتمع في مقدمة أهدافها، وتعيد النظر في إدارتها بحيث تختار قياداتها وفقًا لمعايير مضبوطة(١١)، وتغير من هيكلتها ومناهجها وأساليبها في ضوء التطورات العلمية والتقنية، وأن تسعى إلى شراكة حقيقية مع الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين خارج حرمها الجامعي لخدمتهم، والاستجابة لاحتياجاتهم، وترقية مستواهم الثقافي والمهني، وزيادة مردوديتهم الاقتصادية، عن طريق البحث العلمي، والتدريب المستمر، والترجمة والتأليف، وأن تعمل على نشر المعرفة العلمية والتقنية، وإشاعتها بين شرائح الشعب المتنوعة باللغة الوطنية التي تفهمها الأغلبية الساحقة. وهكذا تستطيع الجامعة أن تقود عملية التنمية البشرية الشاملة في البلاد.

الهوامش والمراجع

١. يضم التعليم العالي ثلاثة أنواع من المؤسسات: الجامعات، والكليات الجامعية، والمعاهد الفنية/التقنية. وعندما نستخدم كلمة «الجامعة أو الجامعات» في هذه الدراسة فإن المقصود بها مؤسسات التعليم العالي، وذلك من باب إطلاق الجزء على الكل.

٢. تشير إحصاءات اليونسكو لعام ١٩٩٧م، إلى أن الدول العربية تتوفر على ١٧٥ جامعة، منها ١٢٨ حكومية و ٤٧ غير حكومية. ولكن منذ ذلك الحين، أنشئت عدة جامعات ومعاهد تقنية في عدد من الدول العربية، لا نتوفر على إحصاء دقيق لها. أما مجموع طلبة التعليم العالي في البلاد العربية فإن التقرير الذي أعده صبحي القاسم لمكتب اليونسكو في القاهرة بعنوان: «أنظمة التعليم العالي في الدول العربية: تطور مؤشرات العلوم والتكنولوجيا»، فيقدّره بـ ١ر٣ ملايين ، بينما يقدره تقرير اليونسكو عن التربية في العالم لعام ١٩٩٧م، بـ ٩و٣ ملايين طالب.

٣. وردت الإحصاءات الاقتصادية في دراسة أعدتها مديرة المكتب الإقليمي للدول العربية في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي:

Rima Khalaf-Hunaidi, Transforming the Quality of Arab Higher Education, Paper presented to Amideast International Conference on Higher Education in the Arab World, Marrakech, 13-15 March, 2002 .

أما إحصاءات محو الأمية، فانظر : المكتب الإقليمي للتربية في الدول العربية، «التعليم العالي في الدول العربية» دراسة مقدمة إلى مؤتمر مستقبل التعليم العالي في البلاد العربية، مراكش، ١٣ ـ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢م.

٤. نشرت جريدة (العلم) المغربية ملخصًا لتقرير البرنامج عن مؤشرات التنمية البشرية، في عددها ١٩٠٦٩، بتاريخ ٢٠٠٢/٨/١م.

٥. اليونسكو، تقرير حول التربية في العالم، عام ٢٠٠٠م.

٦. خالد العنقري، «مشكلات التعليم العالي في مؤتمر مستقبل التعليم العالي في العالم العربي»، مراكش، ١٣ ـ ١٥ /٢٠٠٢/٣م.

٧. المصدر السابق.

٨. المكتب الإقليمي للتربية في الدول العربية، «التعليم العالي في الدول العربية» بيروت، مارس ٢٠٠٢م.

٩. طه تايه النعيمي، «التعاون العربي المشترك في مجالات التعليم العالي والبحث العلمي» المؤتمر السادس للوزراء المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي، الذي عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الجزائر ١٧ ـ ١٩٩٦/٥/١٩م.

١٠. قدّم الكاتب ملخصًا لهذه البحوث في دراسة بعنوان «دور المصطلح العلمي الموحد في تعريب التعليم العالي» قدمها في المؤتمر العاشر للتعريب، دمشق ٢٠ ـ ٢٠٠٢/٧/٢٥م.

١١. مصطفى رجب، «تطوير التعليم العالي: الأحلام وتأويلها» في مجلة (الفيصل) العدد ٣١١ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ، (أغسطس ٢٠٠٢ م) ص٢٥ ـ ٢٨.

ـ مصادر الصور: الإنترنت.

النظم الخبيرة وتطبيقاتها في المكتبات ومراكز المعلومات

مجبل لازم مسلم المالكي
صنعاء - اليمن

يعرف النظام الخبير Expert System بأنه ذلك النظام الذي يقدم المساعدة باستخدام مجموعة من القواعد والخيارات والأساليب والمعرفة التي يتم الحصول عليها من النصوص، مقالات الدوريات، كتب الحقائق، وقواعد البيانات. والنظم الخبيرة هي النظم المبنية على الحاسوب، وتستخدم أساليب الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence لتقديم النصائح والإجابات الذكية، والمساعدة على حال المشكلات المعقدة لبعض الموضوعات التي تحتاج إلى المعرفة والخبرة المتخصصة(١).

وقد استخدمت النظم الخبيرة في مجالات متعددة كالطب والزراعة والكيمياء والهندسة والإلكترونيات والقانون والجيولوجيا وإدارة المعلومات وغيرها.

أنواع النظم الخبيرة

هناك أنواع مختلفة من النظم الخبيرة تؤدي أنواعاً مختلفة من المهام، وتعمل بدرجات متفاوتة من الذكاء، وهي:

- النظم التي تعمل كمساعدة: Assistant
- النظم التي تعمل كزميل: Colleague
- النظم التي تعمل كخبير حقيقي: True Expert

بينما يميز الباحث بدجولي بين نوعين من النظم الخبيرة، وهما:

- النظم الخبيرة المبنية على القواعد-Rule- based expert systems وتعمل بناءً على مجموعة من القواعد المختزنة بداخلها حيث يقوم النظام بتشغيل سلسلة من القواعد للتوصل إلى استنتاج معين.
- النظم الخبيرة المبنية على مثال Example -based expert systems، وتستخدم استنتاجاتها من موازنة موقف معين مع مثال مختزن في قاعدة المعرفة الخاصة بالنظام.

ويضيف الباحث توربان نوعاً ثالثاً يمثل النظم المعتمدة على نموذج Model-based expert systems، وتعتمد على معرفة هيكل وسلوك عناصر معينة تصمم النظم لفهمها والتعامل معها(٢).

معمارية (هيكلية) النظام الخبير

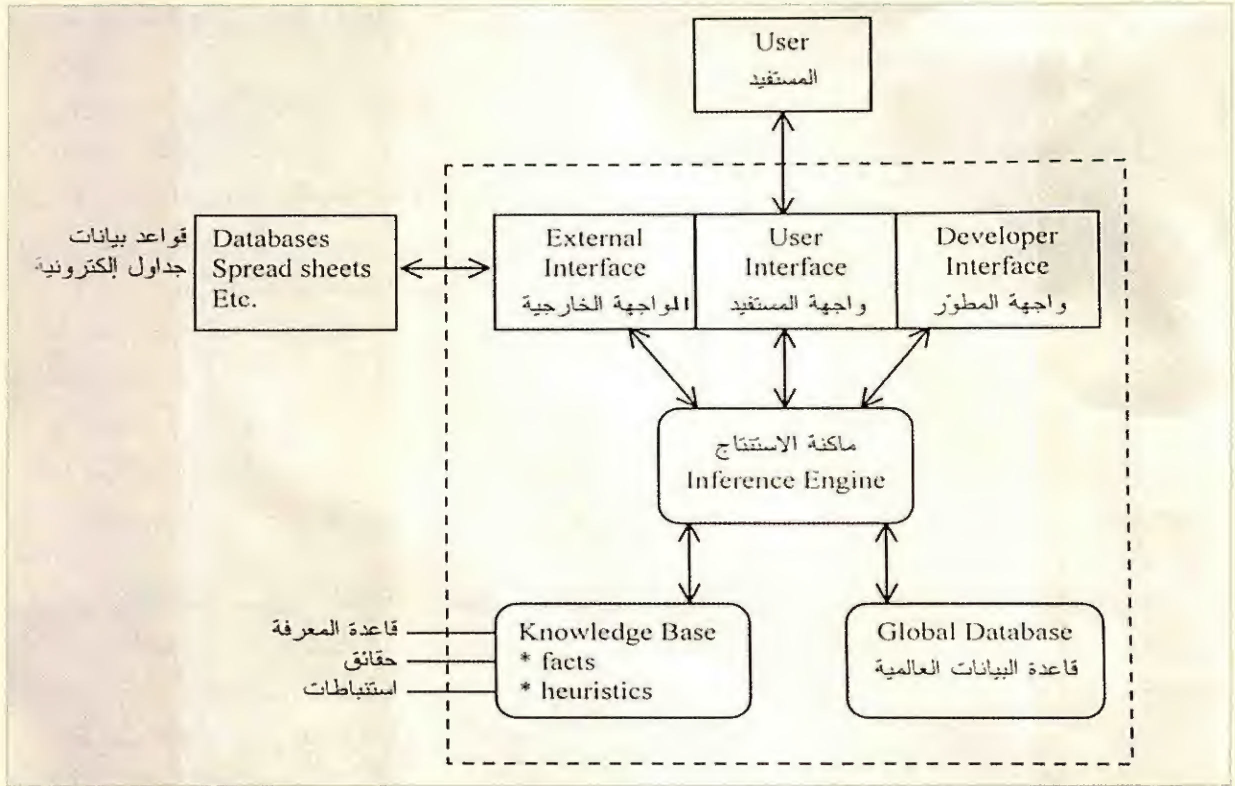
تتشكّل معمارية الخبير من العناصر الآتية(٣):

أ. قاعدة المعرفة Knowledge Base:

وتشتمل على الحقائق والمواقف والمعارف المختزنة التي يمكن الإفادة منها في أداء المهام، واتخاذ القرارات لحل المشكلة، وتقديم النتائج. وفي بعض الأحيان تحتوي قاعدة المعرفة على مواد هي قواعد حول القواعد، وباقي أنواع المعرفة الأخرى مثل التعاريف، والتوضيحات، والأوصاف، وغيرها. والطريقة التي يتم بها تمثيل المعرفة هنا ستعتمد على طبيعة النظام الخبير نفسه.

ب - واجهة المستفيد User Interface:

وهي عناصر برمجيات النظام الخبير المسؤولة عن تناول



معمارية (هيكلية) النظام الخبير المثالي

الحوار مع المستفيد، وبمعنى آخر هي البرنامج الذي يسمح بالتفاعل بين المستفيد والنظام الخبير.

ج ـ ماكنة الاستنتاج أو الاستدلال Inference Engine:

وهي طريقة التحكم التي تنظم وتضبط وتعمل على تنفيذ الخطوات التي يستخدمها النظام في قاعدة المعرفة بغية الوصول إلى وضع حل للمشكلة.

د ـ قواعد البيانات العالمية Global data bases:

وتمثل قسماً من البرنامج الذي يحفظ أثر المشكلة أو مسارها بوساطة الاختزان الشامل للبيانات، مثل إجابات المستفيد عن الأسئلة، والحقائق التي يتم التوصل إليها عبر المصادر الخارجية، وأي خاتمة، أو قرارات إضافية يتم التوصل إليها بعد ذلك.

ويمثل الشكل أعلاه معمارية النظام الخبير المثالي.

مزايا النظم الخبيرة وعيوبها

يمكن توضيح المزايا التي تقدمها النظم الخبيرة للهيئات والجهات التي تستخدمها وتطبقها بالآتي(٤):

ـ تجعل الخبرة والكفاءة النادرة متاحة بشكل أكبر داخل الهيئة، ومن ثم فهي تساعد الخبراء العاملين على إحراز نتائج متطورة.

ـ تفرغ الخبراء البشريين للأنشطة والأعمال الأخرى.

ـ تثبت الكفاءة والمقدرة التنظيمية عن طريق تقديم الحلول الجاهزة للمشكلات المعقدة التي يمكن أن تأخذ وقتًا طويلاً لحلها.

ـ مساعدتها على المحافظة على المعرفة الخبيرة والقيمة في حال ترك الخبير الهيئة التي يعمل بها.

ـ تنجز المهام بمستوى عال وثابت بعكس المهام التي يؤديها الإنسان بطريقة غير ثابتة أو مترابطة منطقيًا نتيجة للشعور بالتعب أو الإرهاق وفقدان التركيز.

ـ تقلل من نفقات استئجار الخبراء.

ـ تقدم وسيلة للاحتفاظ الدائم بالمعرفة ذات الدرجة العالية من التعقيد، لأن المعرفة الآلية لا تبلى مع الوقت كما هو الحال بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية.

أما أوجه القصور التي تكتنف النظم الخبيرة فيمكن إجمالها بالآتي:

- صعوبة السيطرة على المعرفة (المتعمقة) لمجال المشكلة.
- افتقاد المرونة.
- عدم القدرة على إعطاء تفسيرات متعمقة.
- صعوبات التحقق والتثبت.
- محدودية التفكير وجمود المعرفة، ولا تتسم بالإبداع إذا ما وزنت بالخبير البشري.

مراحل تطوير النظام الخبير

تمر عملية تطوير نظام الخبرة بخمس مراحل أساسية تتمثل في الشكل أدناه(٥).

ويفسر مطورو نظام الخبرة المشكلة ويعرفون كيف يساعد النظام على حلها، وما يتوافر لها من موارد متنوعة تسهم في بناء النظام، ومن هذه الموارد الخبير البشري والمصادر الثانوية للمعلومات.

وفي مرحلة تحديد مفهوم المشكلة يرسم مطورو النظام العناصر والمفهومات والعلاقات الكامنة المتنوعة في إطار المشكلة، وكيفية ترابطها وتناسق عرضها.

وعند صياغة المشكلة في عبارة محددة يبحث مطورو نظام الخبرة عن الحلول والصيغ المقننة لها، ويتم ذلك عن طريق تحليل العلاقات التي عرفت في المرحلة السابقة، وتعد هذه المرحلة أكثر المراحل تفاعلاً بين المطور والمستخدم، وأكثرها استغراقاً للوقت.

ويعمل في إطارها كل من مهندس المعرفة وخبير المجال الموضوعي لترجمة العبارات والصيغ بقواعد (إذا عندئذ If.. Then).

وخلال مرحلة التنفيذ تترجم الحقائق والقواعد التي تشكل منها قاعدة المعرفة في لغة آلية يمكن أن يفهمها الحاسوب.

وحتى عند سير الأمور بطريقة مرضية في مرحلة التنفيذ، يبقى النظام في حاجة إلى التدقيق والمراجعة، أي: الاختبار.

ويعدّ نظام الخبرة مطوراً وصالحاً للاستخدام عندما تصبح قدرته على حل المشكلات مشابهة لما يقوم به الخبير الإنساني إلى حد كبير.

ولا بد من الإشارة إلى أن الجانب التنفيذي هو جانب فني يختص بالبرمجة، ويشتمل على مداخل أساسية هي:

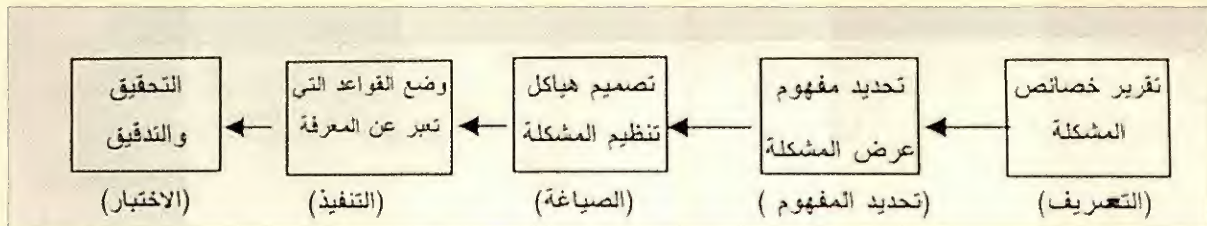
أ- اتّباع طرائق البرمجة التقليدية التي تستخدم لغات المستوى العالي كلغة البيسك، والفورتران، والباسكال، أو اتّباع اللغات المطورة للاستخدام مع نظم إدارة قواعد البيانات.

ب - استخدام لغات البرمجة ذات الأغراض العامة أو الخاصة من لغات الذكاء الاصطناعي مثل لغات (ليسب Lisp)، ولغة (الرولوج Prolog)، ولغة (ريتا Rita)، ولغة (روزي Rosie)، وغيرها.

ج - استخدام برامج شيل Shell، أي: البرامج الصدفية الجاهزة، وتشتمل على أدوات لإنشاء القواعد وتحريرها وعمل سلسلة الاستدلالات إلى الأمام، وإلى الخلف ،وإلى كلا الاتجاهين، ويساعد هذا المدخل محلل النظم على ترميز المعرفة الضرورية.

مجالات استخدام النظم الخبيرة في المكتبات ومراكز المعلومات

بسبب التطورات المتلاحقة في تقانة (تكنولوجيا) المعلومات والاتصالات، وظهور نظم المعلومات المتطورة، والبحث عن آليات عمل جديدة لتأدية الوظائف، وحل المشكلات الصعبة التي تعترض إدارة المكتبات ومراكز المعلومات، فقد شهدت السنوات القليلة الماضية اهتماماً ملحوظاً باستخدام النظم الخبيرة في مجالات المكتبات والمعلومات وتطبيقها، وظهور عدد من الدراسات والمؤلفات، وعقد المؤتمرات والندوات التي تناقش تطبيق مثل هذه النظم ومدى التقدم الحاصل للإفادة من النتائج المتحققة في هذه الميادين.



مراحل تطور نظام الخبرة

ومن المجالات التي استخدمت فيها النظم الخبيرة(٦):

- **التزويد:**

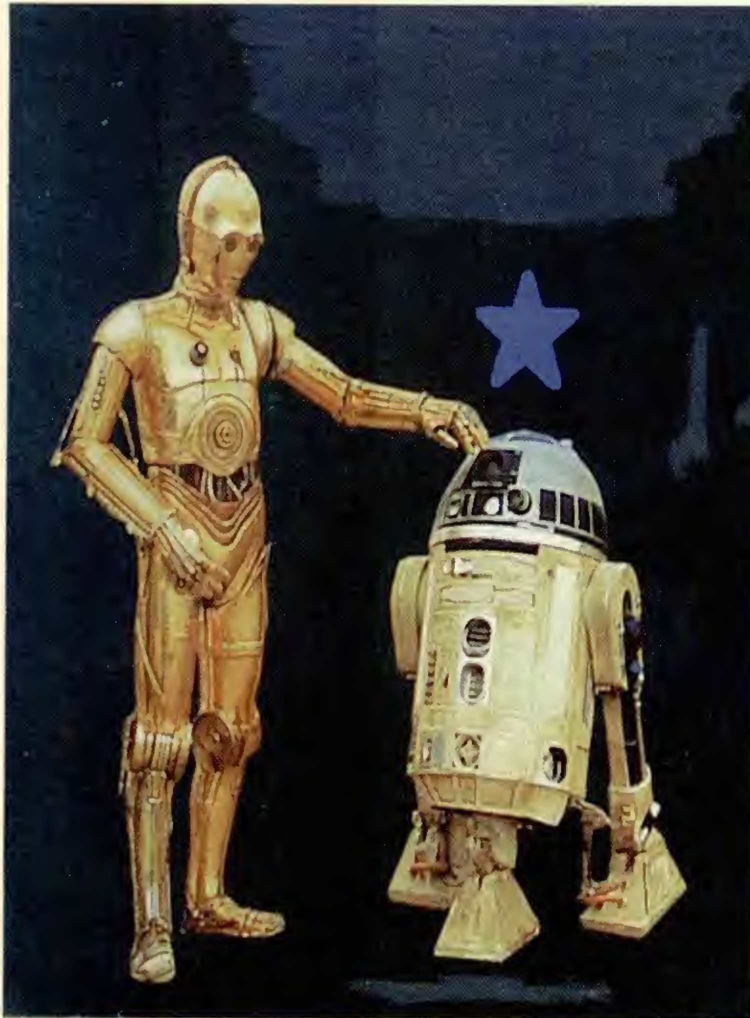
في هذا المجال يمكن للأنظمة الخبيرة أن تحدد تعاملها مع الناشرين وتجار الكتب، وتسهم في اختيار مصادر المعلومات بناءً على الاحتياجات المسبقة للمكتبات ومراكز المعلومات.

- **الفهرسة والتصنيف:**

يمكن للنظم الخبيرة أن تقوم بعمليات الفهرسة سواء فيما يتعلق بنقاط الإتاحة أو تحديد رؤوس الموضوعات. ولقد حصل مثل هذا من خلال إدخال القواعد الإنجلو أمريكية للفهرسة على هيئة قواعد وحقائق في قاعدة معرفة للنظام الخبير، ويقوم هو بعملية الفهرسة لكل كتاب يرد إلى المكتبة، وفي هذا الميدان يمكن الإشارة إلى الإفادة من هذا النظام في:

أ- الفهرسة الوصفية: وهنا ظهرت عدة محاولات لتطبيق هذه النظم واستخدامها في اختيار المدخل وتحديده وصياغته. وقد ركز أغلب المحاولات التي أجريت بهذا الصدد في الجزء الثاني من قواعد الفهرسة الإنجلو أمريكية (المداخل) لكونه أكثر تقنيات المداخل انتشاراً، وقد أوضحت هذه المحاولات أن قاعدة المعرفة المعتمدة على (AACR2) وحدها غير كافية للقيام بعملية الفهرسة بشكل متكامل آليًا، وما زال هناك دور للمفهرس الذي يمارس اجتهاده أحيانًا. وقد تركزت أغلب المحاولات التي بذلت لاستخدام النظام الخبير في إجراء عملية الوصف الببليوغرافي في اعتماد صفحة العنوان لاستقاء بيانات الوصف الأساسية (العنوان، الطبعة، بيانات النشر، السلسلة) ويستدعي قيام النظام الخبير بعملية الوصف الببليوغرافي لمصادر المعلومات أن تشتمل قاعدة معرفته على القواعد الخاصة بالوصف. وقد قام (O C L C) مركز المكتبات المحوسبة على الخط المباشر بمحاولة لاستخدام نظام خبير في الوصف الببليوغرافي. ويشتمل نظام (O C L C)على قواعد مرتبطة بشكل إخراج المعلومات ومعاني الكلمات والجمل على صفحة العنوان. وكانت مخرجات هذه التجربة في المستوى الأول من الوصف في (AACR2) وكان التقرير المبدئي لهذه التجربة يتضمن عينة مكونة من (٢٦) صفحة عنوان مع ست عشرة قاعدة، وظهر من خلال التطبيق أن ٧٥٪ من الحقول قد حددت تحديداً كاملاً، كما أن صفحات العناوين حللت تحليلاً صحيحاً بكاملها.

ب - الفهرسة الموضوعية: يتمثل عمل المفهرس في تحديد رأس الموضوعات المناسبة لوعاء المعلومات أو رؤوسها، ومما لا شك فيه أن هذه العملية ليست سهلة بسبب الاختيار الدقيق لرأس الموضوع المستخدم للتعبير عن الموضوع أو الموضوعات، وإعداد الإحالات المناسبة، وإعداد التفريعات المناسبة للرأس


الذكاء الاصطناعي يعجز عن تجاوز حدود البرنامج المرسوم له

(وجهية، جغرافية، زمنية، شكلية) ويعتمد ذلك كله على استخدام قوائم رؤوس الموضوعات، أو مكنز معين في حالة استخدام الواصفات.

وعند استخدام النظام الخبير في هذا المجال فإنه سيؤدي كل هذه المهام ولا بد لقاعدة معرفته أن تشتمل على سياسات الفهرسة الموضوعية وقواعدها، وقوائم رؤوس الموضوعات المقننة، أو ملفات استناد بالأسماء والهيئات المتاحة في شكل مقروء آلياً. وسوف يقوم النظام باستقبال المدخلات من المفهرس الموضوعي في شكل مصطلح يعبر عن مفهوم الموضوع، فيقوم النظام بإنشاء الرأس المناسب ومضاهاته بالقائمة أو المكنز المستخدم، وبذلك يتولى النظام عملية البحث في ملف الاستناد الموضوعي، ويقترح على المفهرس رأس الموضوعات الاستنادية أو رؤوسها، أما المصطلحات غير الاستنادية فإن النظام سيعدها كإحالات بالإضافة إلى أن المصطلحات ذات العلاقات سوف تظهر للمفهرس في شكل مصطلحات أعرض أو أضيق.

- الإرشاد القرائي:

ويتمثل في توجيه القرّاء والطلبة نحو قراءات معينة وفقاً لميولهم واتجاهاتهم القرائية والعملية والبحثية والترفيهية، وإصدار قوائم بمصادر المعلومات المختارة والمعدة لإنجاز هذه المهمة بما يحقق الأهداف المطلوبة.

- خدمات المعلومات:

وتتجلى في أتم صورها في خدمات الإحاطة الجارية والبث الانتقائي للمعلومات التي يحتاج إليها الباحثون من خلال مطابقة ملف المستفيدين وملف الوثائق لانتقاء ما يناسب المستفيد، ويلبي احتياجاته العلمية في المكتبات ومراكز المعلومات.

- بناء المجموعات:

تتم من خلال عمليات الاختيار والاستبعاد لتحقيق تكامل المجموعة المكتبية وفقاً لاحتياجات المكتبة وجمهور المستفيدين وتنقيتها من المصادر والمواد التي تعرضت للتقادم، وأضحت غير صالحة للتداول والاستخدام.

ومثل هذه الاستخدامات والتطبيقات للنظم الخبيرة في المكتبات ومراكز المعلومات قد أدت إلى الآتي:

- تسهيل الوصول إلى مصادر المعلومات.
- تقديم المعلومات الدقيقة للمستفيدين وتوجيههم للإفادة منها وفقاً للاحتياجات المعلوماتية والبحثية.
- الاستغلال الأمثل لإمكانات المكتبات وخدمات المعلومات.

ويمكن للمكتبيين والمستفيدين الإفادة من هذه النظم عن طريق التحاور مع الآلة. إذ يقوم النظام الخبير بمساعدة المتحاور في :

أ- تحديد أهدافه.

ب - شرح تخطيط النظام وطريقة عمله.

ج - توفير النتائج وشرحها.

- البحث العلمي:

تستعمل هذه النظم في المكتبات ومراكز المعلومات لحل مشكلات البحث العلمي باستخدام المفهوم Concept بدلاً من الكلمات المفتاحية Keywords أو اعتمادها على اللغة الطبيعية في التحاور مع الآلة Natural Language Interface، وبهذه الطريقة فقد جربت النظم الخبيرة في تكشيف النصوص، وإنشاء الكشافات الآلية. ومن ثم توفير مداخل سهلة للحصول على كم واسع ومتنوع من المعلومات المطلوبة.

- شبكات المعلومات:

استعملت الأنظمة الخبيرة في شبكات معلومات تعتمد على نصوص كاملة حتى أطلق على هذا النوع من شبكات المعلومات النصية(الشبكات العصبية:Textual Networks) لكنها تعتمد على الذكاء الاصطناعي في تكوين هذا النوع من الشبكات(٧).

- الخدمة المرجعية:

يمكن القول: إن مجال الخدمات المرجعية من المجالات الأولى التي تم تطبيق نظم الخبرة فيها، وكان ذلك عام ١٩٦٧م، حين قامت ويل Weil بتطوير نظام خبير لاسترجاع الأعمال التي تعدّ أفضل ما يجيب عن الأسئلة المتعلقة بالتراجم، وقد ذكرت أن نظامها يمكن أن يمتد ليشمل الأنواع المختلفة من كتب المراجع مثل المعجمات، والأطالس، والببليوجرافيات، وتلاه في الظهور نظام Refsearch عام ١٩٧١م، للعمل على الخط المباشر، وكذلك نظام Reference Information Station(RIS) الذي قام بتطويره ستاركز وآخرون عام ١٩٧٢م. ولعل أشهر النظم في الثمانينيات نظام Plexus الذي طور في قسم خدمات المعلومات المركزي بجامعة لندن

عام ١٩٨٣م، واكتمل العمل عام ١٩٨٧م، واستخدمت لغة الباسكال في تطوير النظام.

ومن النظم الأخرى النظام الخبير The Information Machine في مكتبة جامعة هوستون Hoston، وأصبح متاحًا للمستفيدين في عام١٩٨٧م، على حاسوب شخصي من نوع IBMXT. وقام بتطويره كل من Jeff Fadell و Judy E. Myers من الجامعة نفسها. ويتكون النظام من (٣٥٠) شاشة، تعنى الشاشات الأولى بإرشاد المستفيد لقواعد التعامل مع النظام، وقواعد التعامل مع المكتبة وهواتفها، ودليل المكتبة من الداخل. والنظام فيما يتعلق بالخدمات يتصف بالعمومية؛ فهو يركز في المعلومات العامة عن المكتبة. وهناك أيضاً النظام الخبيرASK BART، وهو ضمن مجموعة من النظم التي تم تطبيقها في مجموعة مكتبات البحث في الولايات المتحدة الأمريكية.

ويهدف هذا النظام إلى إرشاد الباحثين إلى المراجع والمصادر المناسبة في الأنثروبولوجيا. وتم استخدام حاوية VP- EXPERT في تطوير النظام ثم التحول إلى حاوية Knowledge Pro، وقام بتطويره كل من باثون كلارك، وماري بث آلن، وآندي بوز، ويعود الاهتمام بتطبيق مثل هذه النظم في مجال الخدمة المرجعية بالمكتبات ومراكز المعلومات إلى الأسباب الآتية:

- عدم توافر الخبراء في مجال الخدمة المرجعية في المكتبات.
- مواجهة المكتبات لعدد كبير من المستفيدين في وقت واحد.
- طول ساعات العمل بالمكتبة، وقلة المتخصصين من أمناء المراجع.
- ضعف الخدمات المرجعية التي تضطلع بها المكتبات(٨).

بهذا الصدد تم تطبيق نظام خبير في مجال استرجاع المصادر المرجعية وتنفيذه في العراق على حاسبة مايكروية تمتلك قاعدة معرفة لكتب المراجع، ويكون بإمكان المستفيد معرفة المرجع في مجال اهتمامه بعد محاورة مع النظام دون الاعتماد على الخبير البشري (المتخصص)، ويمثل هذا التطبيق مرحلة أولية لمرحلة تتبعها في توفير ببليوغرافية مع مستخلص لجميع المراجع الموجودة في المكتبات الجامعية.

والطريقة التي يتم فيها استخلاص الخبرة والمعرفة من الخبير تشبه المقابلة المرجعية التي يجريها اختصاصي المعلومات عند توجيهه الأسئلة، وإعادة تشكيل العبارات، وتقديم الأمثلة للوصول إلى الحقيقة.

والنظام الخبير الذي استخدم ليشمل خدمة مرجعية وخبرة استرجاع هو من البرامج الجاهزة، ويعرف باسم جيني Jeni مبني على القواعد +Rule Base، وكتبت برامجه بلغة Prolog، وصمم أصلاً لتشخيص الأمراض. ويتم عادة تزويد النظام

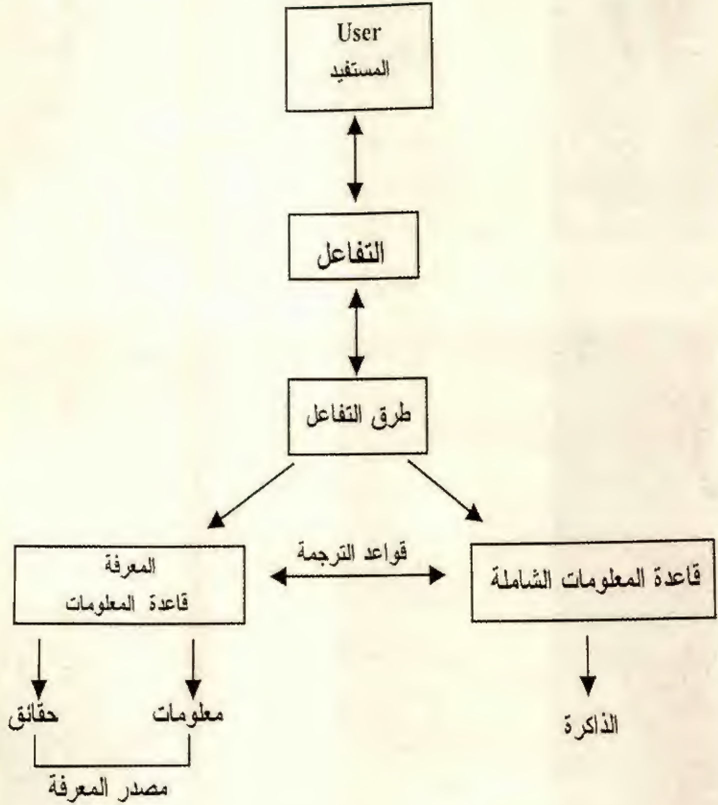


استفادت المكتبات كثيراً من ثورة المعلومات

بالمعلومات حول مجال معين (المواد المرجعية) التي أدخلت بشكل Rules، أو سرد الحقائق عن كل تصنيف Category، فيتم بشكل شروط Conditions تمنح أرقامًا متسلسلة، وباستخدام هذه الأرقام يمكن الاستفسار من النظام مرة أخرى عن كيفية الوصول إلى نتيجة معينة عن طريق How، ويجيب النظام بتقديم مجموعة من قواعد الإنتاج Productions التي تقود إلى النتيجة(٩).

نظم الاسترجاع على الخط المباشرOnline:

هناك أيضاً تطبيقات للذكاء الاصطناعي، والنظم الخبيرة على نطاق واسع في مجال استرجاع المعلومات تتمثل في تصميم واجهات لنظم إدارة قواعد البيانات، كما هو الحال في معمارية نظم استرجاع المعلومات الذكية IIR التي تم تصميمها،



خطوات نظام الخبير في حل المشكلة

أو عمل نماذج لها لاكتشاف طرائق جديدة مفضلة وسريعة لاختزان الوثائق ووصفها واسترجاعها.

ومن البحوث الملائمة أيضاً فيما يتصل بحقل علم المعلومات والمكتبات استخدام النظم الخبيرة للبحث والفهارس المتاحة على الخط المباشر، ومنها OPAC، وأعمال المراجع، وتمثيل الوثائق والكشافات، وبشكل خاص معالجة اللغة الطبيعية(١٠).

- استخدام النظم الخبيرة في حل المشكلات:

في ظل التغيرات المتلاحقة، وتطورات تقنيات المعلومات والاتصالات، وما يتصل منها بأعمال إدارة المكتبات ومراكز المعلومات وأنشطتها يظهر عدد من المشكلات والأزمات التي تواجهها هذه الإدارات، لذا تكون الحاجة ضرورية إلى ابتكار طرائق وأساليب جديدة لوضع الحلول المناسبة لمثل هذه المشكلات. ونتيجة لذلك طورت نظم الخبرة للقيام بهذه المهام. ومن العوامل التي ساندت استخدام هذه النظم الآلية الخبيرة في حل المشكلات والأزمات المعاصرة ما يأتي(١١):

- ندرة الخبرة البشرية المتاحة.
- الاقتصاد في التكاليف.
- الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة.
- السرعة والدقة والكفاءة المطلوبة.

وتصمم نظم الخبرة على أساس تتابع الأغراض المختلفة التي تتضمنها مشكلة، وتحديد البراهين التي تعتمد عليها الحلول الخاصة بالمشكلة.

ويعمل النظام الخبير على تبسيط المعرفة من خلال التحاور مع المستفيد بطريقة قريبة من تحاور الإنسان مع الإنسان، وفي بعض الأحيان بطريقة أدق وأحسن من البشر لمساعدة المستفيد على الوصول إلى القرار الفعال. ويمكن توضيح خطوات الأنظمة الخبيرة في حل المشكلة كما هو موضح في الشكل السابق(١٢).

إن مساعدة المتخصص وغير المتخصص في اتخاذ القرارات الصحيحة تعدّ النشاط الأساسي للأنظمة الخبيرة فضلاً عن ذلك فإنها:

- تقوم بتوزيع المعرفة والخبرة في المؤسسة.
- تحرر الخبراء والمتخصصين من الأعمال التكرارية.
- تساعد على استخدام المعرفة المتخصصة في الأماكن التي تكمن فيها الخطورة على الإنسان.

- دعم عملية اتخاذ القرارات:

يختلف الدور الذي تؤديه النظم الخبيرة في اتخاذ القرارات عن أدوار نظم المعلومات الأخرى. فنظم معالجة البيانات، ونظم المعلومات الإدارية تهتم بتزويد متخذي القرار بأدوات تحديد المشكلات، وتجميع البيانات لكي يفهم بشكل دقيق الظروف المحيطة بالمشكلة. وكذلك تساعد نظم دعم القرار متخذي القرار على تعرف الأفكار البديلة لحل مشكلة معينة، فضلاً عن ذلك، فإن هذه النظم تساعد على تنمية خبرات التعليم لدى العنصر البشري أما النظم الخبيرة فتعتمد على ما قد تعلمه العنصر البشري بالفعل، وتقوم بتطبيق نتاج هذا التعلم في ظروف ومواقف محددة، وتعتمد هذه النظم على أدوات الذكاء

الاصطناعي في تحديد المشكلات وتشخيصها، والوصول إلى المعلومات التي تستخدم في حلها من خلال ما هو متوافر في قاعدة المعرفة. كما أن لديها القدرة على تحديد بدائل حل المشكلة وتقويمها، واقتراح المناسب لها. ومع أن تقويم الحلّ يعد من مسؤولية مستخدم النظام، إلا أن النظام الخبير يوفر له المنطق الذي يساعده على القيام بهذه العملية(١٣).

الخاتمة

خلاصة القول أن النظم الخبيرة هي أهم تطبيقات الذكاء الاصطناعي، بالإضافة إلى أربعة مجالات أخرى رئيسة هي اللغة الطبيعية، والنظم البصرية، والربوتية، والشبكات العصبية. وهذه النظم الحاسوبية تؤدي دور الخبير، وتنفذ المهام التي تحتاج إلى الخبرة، وتسهم في حل الكثير من المشكلات التي تعانيها مختلف المؤسسات والمنظمات المختلفة، ومنها مؤسسات المعلوماتية وذلك للقدرات والإمكانات التي توفرها لتحسن طبيعة الأعمال، وتفادي المشكلات المعقدة، وتوفير الخبرات، وزيادة الإنتاجية. وقد استخدمت في مجالات متنوعة، وطبقت ضمن أصناف محددة، منها التفسير، والتخمين، والتشخيص، والتصميم، والتخطيط، والمراقبة، والصيانة، وغيرها، ويعدّ استخدامها في الثمانينات في المكتبات ومراكز المعلومات من التطورات الكبيرة التي أدت إلى زيادة قدرة المكتبيين على السيطرة على ثورة المعلومات والاستفادة منها.

ويلاحظ أن هذه الأنظمة لها القدرة على أداء أعمال تفوق أحياناً قدرة الإنسان، ولكن هذا لا يتم إلا في حدود البرنامج الذي يقوم بإعداده الإنسان المتخصص؛ لأن الذكاء الاصطناعي يعجز عن تجاوز حدود البرنامج المرسوم له، فهي ما زالت تعاني التخصصية أكثر من العمومية. فلكي يكون النظام الخبير ممكناً لا بد أن تتوافر الخصائص الآتية في الأعمال التي ينجزها(١٤):

- تتطلب المهمة مهارات إدراكية، وليست مهارات تتطلب الاعتماد على البديهة أو سرعة الفهم، وقد ثبتت استحالة إنشاء نظام يعمل بالاستدلال بالسليقة.
- وجود خبير (خبراء) يعمل في المشروع الإنشائي، ولا بد لهذا الاستشاري أن يمتلك خبرة طويلة وموثوق بها وأن يكون قادراً على إيصال خبرته ونقلها بكفاءة عالية.
- تكون المهمة مفهومة جيداً ويمكن تحديد مدخلات النظام ومخرجاته بوضوح.
- يكون المجال مستقراً نسبياً مع عدم وجود تغييرات جذرية فيه، بل تغييرات تدريجية.
- يكون هناك توثيق مكتوب في المجال مثل توافر قواعد فهرسة وقوائم رؤوس موضوعات أو مكانز.

وواقع الأمر أنه لا يمكن بالطبع تفويض الآلات بسهولة للاضطلاع بالمهام الفكرية الحقيقية المرتبطة بأعمال المكتبات من تحليل موضوعي، وتفسير الحاجة إلى المعلومات، وإستراتيجيات البحث، وأيا ما يحدث لمؤسسات المعلومات بأنواعها المختلفة فإنه لا يمكن أن يستعاض من خبرة المكتبيين المتمرسين بالذكاء الاصطناعي، أو تقنية أخرى في المستقبل القريب(١٥).

المراجع

1 - Patil, D.B. and M. M. Kooganuramath. Library and Information Science. New Delhi: Ashish Publishing House,1994, P. 12.

٢ـ عبدالرحمن الصباح، وعماد الصباغ، مبادئ نظم المعلومات الإدارية الحاسوبية. عمان : دار زهران، ١٩٩٦م، ص ٢٨١ـ٢٨٧.

3 - Morris, Anne. The Application of Expert Systems in Libraries and Information Centers. London -Bowker - Saur, 1992, PP: 8 -11.

٤ـ يسرية زايد. «النظم الخبيرة والفهرسة بين القبول والرفض»، الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات ، ع٥ (١٩٩٦م)، ص ٤٢-٤٣.

٥ـ محمد محمد الهادي، التطورات الحديثة لنظم المعلومات المبنية على الكمبيوتر. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م، ص ٣٠٣-٣٠٤.

٦- يسرية زايد، المصدر السابق، ٤٣- ٤٨.

٧ـ بهجة مكي بومعرافي، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في المكتبات الحديثة: ظهورها ومجالات استخدامها. عمان: دار الفرقان، ١٩٩٧م، ص ٧٠- ٧١.

٨ـ زين عبدالهادي، «النظم الخبيرة وتطبيقاتها في الخدمات المرجعية في المكتبات»، في : تكنولوجيا المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات العربية بين الواقع والمستقبل، وقائع المؤتمر العربي الثامن للمعلومات/ إعداد وتحرير: محمد فتحي عبد الهادي، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩م، ص ١٧٣-١٧٧.

٩ـ عامرة حقي عبدالرزاق، «تطبيقات النظم الخبيرة في مجال المعلومات والمكتبات» في : الندوة العلمية الثالثة عن مؤسسات المعلومات في الوطن العربي حاضرها ومستقبلها، عمان: جمعية المكتبات الأردنية، ١٩٩٥م، ص ١٠٢- ١١٥.

10 - Morris, Anne. Op. Cit.P.167.

١١ـ محمد محمد الهادي، المصدر السابق، ص ٢١٩.

١٢ـ بهجة مكي بو معرافي، المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩.

١٣ـ عبدالرحمن الصباح، وعماد الصباغ، المصدر السابق، ص ٢٩٣.

١٤ـ يسرية زايد، المصدر السابق، ص٥٠.

١٥ـ لانكستر، ولفرد، و أ. ج. وورنر، أساسيات استرجاع المعلومات، ترجمة حشمت قاسم، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٧م، ص ٤٢٠.

ـ مصادر الصور: أرشيف «الفيصل».

تكتل تجاري عربي لحماية المصالح المشتركة وتنميتها

صباح نعوش
ليون - فرنسا

تحت ظل الاقتصاد العالمي الجديد المتسم بتعدد التكتلات الإقليمية وتنوعها، أصبح تمتين التعاون الاقتصادي العربي ضرورة ملحة. ولتحقيق هذا الهدف تم إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، لكن مراحلها الأولى تعاني عدة مشكلات. كما أنها غير قادرة على الدفاع عن مصالح أعضائها في المحافل الدولية إن لم تتطور إلى اتحاد جمركي.

تراجعت التجارة الخارجية العربية موازنة بالمبادلات السلعية العالمية بصورة كبيرة خلال فترة قصيرة نسبياً، وانتقل حجم التجارة العالمية من ٣٨٠٢ مليار دولار في عام١٩٨٠م إلى ١٢٦٦٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٠م، أي: بزيادة قدرها ٢٣٣٪. بينما ارتفعت التجارة الخارجية العربية من ٣٤٧ مليار دولار إلى ٣٩٦ أي بنسبة ١٤٪ فقط، وكانت التجارة العربية تشكل ٩ر١٪ من المبادلات العالمية في عام ١٩٨٠م ،ثم هبطت إلى ٣ر١٪ في عام ٢٠٠٠م. حدث هذا التقهقر الذي يؤثر تأثيراً سلبيًا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية على الرغم من تحرير المبادلات العالمية من الرسوم الجمركية، وعلى الرغم من اتفاقات الشراكة المتعددة المنعقدة في التسعينيات مع الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة التي تقدم تسهيلات للصادرات العربية، وهذا التراجع يعود إلى ازدهار المبادلات الأوربية والأمريكية والآسيوية بمعدلات عالية على أثر تخفيف القيود التجارية الذي أملته جولة أورغواي. وبالمقابل تراجعت إيرادات النفط مما أفضى إلى تدهور صادرات الدول العربية، فتقلصت وارداتها.

كما تقود الصراعات السياسية والعسكرية إلى تردي القطاعين الزراعي والصناعي مما ينعكس مباشرة على حجم التجارة الخارجية. أما التجارة العربية البينية البالغة ٢٩ مليار دولار فهي ضعيفة لا تتجاوز ١٠٪ من التجارة الخارجية الكلية. أضف إلى ذلك عدم وجود تنسيق اقتصادي عربي.

بالتحليل النهائي لا تنظر العلاقات الاقتصادية الدولية إلى الأقطار العربية كنظام إقليمي متفرع عن النظام العالمي؛ وذلك على عكس النظرة إلى الاتحاد الأوربي والنافتا وآسيان. وبات من اللازم أن تشرع البلدان العربية في إيجاد الصيغة الملائمة للتعاون الاقتصادي فانصرفت الأنظار إلى تقليص الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة البينية.

منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى

في ١٧فبراير/شباط ١٩٩٧م اتخذ المجلس الاقتصادي والاجتماعي لجامعة الدول العربية القرار رقم ١٣١٧وافق بموجبه على البرنامج التنفيذي لاتفاقية تيسير التبادل التجاري وتنميته بين الدول العربية لعام ١٩٨١م. يتناول البرنامج إقامة منطقة



إجراءات الدول الصناعية تضر بصادرات الأقطار النفطية وغير النفطية

التجارة الحرة العربية الكبرى حسب جدول زمني محدد يفضي إلى إلغاء الرسوم الجمركية والحواجز غير الضريبية المفروضة على تجارة السلع ذات المنشأ العربي. ولغاية منتصف عام ٢٠٠٢م انضمت إلى هذه المنطقة ١٤ دولة، وهي جميع بلدان مجلس التعاون الخليجي ولبنان والأردن وسورية والعراق ومصر وليبيا وتونس والمغرب. وتشكل تجارتها البينية ٩٢٪ من التجارة العربية البينية، وعدد سكانها ١٩٥ مليون نسمة، وناتجها الإجمالي ٥٢٢ مليار دولار. ويمكن تقسيم التزامات الدول العربية ثلاثة أصناف رئيسة.

الصنف الأول: إلغاء الرسوم الجمركية خلال عشر سنوات بواقع ١٠٪ سنويًا ابتداءً من عام ١٩٩٨م. ويستثنى من ذلك السلع الواردة في الرزنامة الزراعية العربية المشتركة، والسلع الممنوعة لأسباب دينية وأمنية وصحية.

الصنف الثاني: إلغاء الضرائب ذات الأثر المماثل خلال الفترة المذكورة أعلاه وبالنسبة نفسها. ويتعلق الأمر بالرسوم التي تفوق مبالغها قيمة الخدمات المقدمة للسلع المستوردة كالرسوم المبالغ فيها المفروضة على تفريغ البضائع أو تحميلها في الموانئ، وكذلك الضرائب التكميلية على الواردات دون خدمة محددة ومباشرة، كالضرائب على الدفاع. وأيضًا الضرائب التي تسري على المنتجات المستوردة دون المنتجات المحلية كالرسوم القنصلية. وحسب البرنامج التنفيذي يتعين إدماج جميع هذه الرسوم ذات الأثر المماثل في هيكل التعريفة الجمركية بهدف إخضاعها للتخفيض.

الصنف الثالث: إلغاء القيود الكمية: على خلاف الصنفين المذكورين الخاضعين للتخفيض التدريجي، يجب إزالة هذه القيود فورًا، لأنها الحواجز غير الجمركية التي تمنع دخول السلع العربية والإجراءات النقدية المختلفة، كالرقابة على التحويلات وتعقيدات فتح

الاعتمادات المصرفية وتعدد الجهات الإدارية المانحة لتراخيص الاستيراد. أضف إلى ذلك التعقيدات الحدودية والمبالغة في المواصفات القياسية.

كمبدأ عام تخضع جميع الواردات وفق ضوابط المنشأ للالتزامات المذكورة. ووافقت دول الخليج الست على هذا المبدأ. أما البلدان الأخرى فقد قدمت كل منها قائمة بالسلع التي لا ترغب في تحرير استيرادها. وحسب تقارير لجنة التنفيذ والمتابعة يتضح أن عدد السلع المستثناة بلغ ٢٠٨٧ سلعة. وبطبيعة الحال كلما زاد هذا العدد تضررت مصداقية المنطقة وتراجع دورها في تنمية التجارة البينية. كما أن قيام دولة باستثناء سلعة معينة يعطي الحق لدول أخرى في طلب استثناء سلع مماثلة. وحتى لا تنقلب الاستثناءات إلى قاعدة عامة تفضي إلى إخفاق المنطقة الحرة، وضع البرنامج الشروط التي تحكم نظام الحماية، وأهمها أن تضر الواردات بالإنتاج المحلي، وعلى الدولة تقديم الأدلة الكافية للضرر، وتتولى لجنة التنفيذ والمتابعة تقويم هذه الأدلة، وألا تتجاوز مدة الحماية ثلاث سنوات غير قابلة للتمديد. وللجنة تقليص هذه المدة.

واهتم البرنامج بوظائف الأجهزة الإدارية للمنطقة. فقد عهد بتحديد قواعد التبادل الحر والاستثناءات الواردة عليها إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي الذي تخضع له لجنة التنفيذ والمتابعة، ولجنة المفاوضات التجارية، وتضع اللجنة الأولى التقارير حول احترام الدول الأعضاء لالتزاماتها، وتعالج حالات الإغراق، كما تقوم ببعض مهام المجلس، كفض المنازعات التجارية مستعينة بخبراء عرب. وتتولى اللجنة الثانية تصفية القيود الكمية، ووضع قوائم السلع المحظور استيرادها.

واستحدث البرنامج أمرين على درجة كبيرة من الأهمية: أولهما: التزام الدول الأعضاء رفع تقارير دورية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية التي تتولى مهمة الأمانة الفنية للمنطقة. وتتضمن هذه التقارير المشكلات التي تعترض تنفيذ اتفاق المنطقة، وكذلك الحلول المقترحة لمعالجتها. وتنكب لجنة التنفيذ والمتابعة على دراسة هذه التقارير. وللأمانة العامة إعلام أي دولة عضو في حالة مخالفتها لالتزاماتها المنصوص عليها في البرنامج التنفيذي. ورغبة في أن تعكس هذه التقارير الحالة الحقيقية للالتزامات تم الاتفاق على عدم الاقتصار على البيانات المقدمة من قبل الحكومات. وأصبحت المنظمات العربية المتخصصة في الزراعة والصناعة والمالية تساهم أيضاً في توفير المعلومات. كما يشارك القطاع الخاص عن طريق اتحاد الغرف التجارية والصناعية للدول العربية في تقديم البيانات.

على المدى القصير لا يمكن إحداث سوق عربية مشتركة؛ وذلك لاختلاف السياسات النقدية والضريبية والأنظمة الإدارية والاجتماعية

على الصعيد العملي وخلال العامين ١٩٩٨م و ١٩٩٩م، لم تقدم أي حكومة تقريراً حول التنفيذ. ومن أسباب ذلك عدم مراعاة البرنامج لقابلية الأجهزة الإدارية العربية على توفير المعلومات الحديثة. إذ يستوجب البرنامج تقريراً كل ثلاثة أشهر.

ويرتبط الأمر الثاني بالتصويت على القرارات. فعلى خلاف قاعدة الإجماع السائدة في جامعة الدول العربية، يتخذ القرار في إطار منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى بأغلبية ثلثي الأعضاء. إنه يسري على جميع الدول الأعضاء بما فيها تلك التي لم تصوت أو صوتت ضده مما يشير إلى رغبة حقيقية في تمتين العلاقات التجارية البينية. ويقتصر التصويت على القضايا التجارية، ولا يشمل قبول عضو جديد. إذ لا تستوجب عضوية المنطقة سوى المصادقة على اتفاقية تيسير التبادل التجاري وتنميته بين الدول العربية لعام ١٩٨١م وكذلك إيداع هيكل التعريفة الجمركية السائد في الدولة في نهاية عام ١٩٩٧م لدى جامعة الدول العربية.

يترجم هذا التطور الإرادة الفعلية في المضي قدماً نحو تحسين العلاقات الاقتصادية العربية. بيد أن

النتائج الإيجابية لهذا التطور لا تتحقق إلا إذا تمت معالجة المشكلات الإدارية والمالية والاقتصادية المختلفة.

ضعف التنفيذ

تشكو المنطقة ضعف تنفيذ الالتزامات: خلال العامين ١٩٩٨م و ١٩٩٩م التزمت جميع الدول الأعضاء التزامًا كاملاً بالتخفيض التدريجي للرسوم الجمركية. أما تنفيذ التزام تقليص الضرائب ذات الأثر المماثل فلا يتجاوز ٥٨٪. والواقع اقتصر التنفيذ على بلدان مجلس التعاون الخليجي التي لا تعرف أصلاً مثل هذه الضرائب. و اتضح أن ضعف التنفيذ ارتكز على القيود الكمية، إذ لم تقم أي دولة بإلغائها. وتراوح نسبة التنفيذ بين ٣٩٪ و ٥٦٪ فقط. والواقع أن هذا الضعف لا يقتصر على منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، بل يشمل أيضًا جميع الاتفاقات الثنائية والمتعددة الأطراف ذات الطابع الاقتصادي. ينبغي إذن بذل الجهود لتذليل العقبات التي غالبًا ما تتخذ بعداً إدارياً.

ينبغي معالجة الآثار المالية السيئة الناجمة عن تقليص الرسوم الجمركية، إذ تعتمد البلدان العربية غير الخليجية على هذه الرسوم في إيراداتها العامة وتمويل نفقاتها. فعلى الرغم من الإصلاحات الاقتصادية الهادفة إلى تحرير التجارة الخارجية لا تزال حصيلة الرسوم الجمركية تشكل مصدراً أساسياً من مصادر الإيرادات العامة في مصر والأردن وتونس والمغرب. ولما كانت ميزانيات هذه البلدان تعاني عجزاً مزمنًا؛ فإن أي تقليص لهذه الرسوم يقود إلى ارتفاع العجز المالي مما يستوجب تغطيته بالقروض الداخلية والخارجية فتتراكم الديون أو بالإصدارات النقدية فترتفع الأسعار، أو بهذين الأسلوبين معاً. ويتعين عدم المبالغة في حجم هذه الآثار السيئة؛ وذلك لضعف المبادلات البينية لكن خطر تفاقم العجز قائم بسبب التحرير التجاري.

وتختلف درجة الخطر حسب أهمية الواردات البينية، فكلما ارتفعت حصة هذه الأخيرة هبطت الحصيلة الضريبية. وعلى هذا الأساس فإن تحسين العلاقات الاقتصادية العربية يجب أن يعوض الخسارة المالية عن طريق رفع مستويات الاستثمارات والمبادلات البينية.

تهتم منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى بمعالجة الرسوم الجمركية والضرائب ذات الأثر المماثل والقيود الكمية المختلفة، وهي جميعها أدوات مالية وإدارية تحد من انتقال السلع. وهنالك ضرائب أخرى غير مشمولة بأحكام المنطقة لا تمس هذه الحرية، لكنها تؤثر بشدة أيضاً في المبادلات التجارية؛ إنها الضرائب على استهلاك السلع المستوردة، وفي مقدمتها تلك التي تسري على المنتجات النفطية. فالرسوم الجمركية تقود إلى ارتفاع أسعار السلع بسبب عملية نقل العبء الضريبي من المستوردين إلى المستهلكين. وتؤدي الضرائب على الاستهلاك بالضبط إلى النتيجة نفسها من جراء نقل العبء من المنتجين إلى المستهلكين. وفي الحالتين تتراجع المبادلات الخارجية. ومع ذلك تسعى المنطقة العربية إلى التصدي للحالة الأولى دون الثانية. فعلى سبيل المثال يخضع الوقود في الدول العربية غير المنتجة للنفط لضغط ضريبي لا يقل عن مستوى الضغط المفروض في بلدان الاتحاد الأوربي. ولا توجد تفرقة بين النفط المستورد من داخل العالم العربي أو خارجه. وبات من اللازم أن تهتم المنطقة العربية بجميع أنواع السلع، بصرف النظر عن طبيعتها، وجميع أشكال الضرائب بغض النظر عن تكييفها القانوني. إذ من غير المعقول إخضاع النفط المنتج كليًا في دولة عربية لضرائب مرتفعة في دولة عربية أخرى مستوردة. بينما تخضع مبادلات المواد الأخرى بين هاتين الدولتين للتحرير الجمركي حتى وإن كانت منتجة بنسبة ٥٩٪ خارج العالم العربي. ويلاحظ أن هذا

الاتحاد الجمركي ليس هدفًا بحد ذاته في المجتمعات التي تصبو إلى تعاون وثيق وشامل؛ إنه مرحلة انتقالية لإنشاء سوق مشتركة يتحرك فيها الأفراد، وتتنقل فيها البضائع ورؤوس الأموال بحرية

التمييز غير المنطقي بين الضرائب على استهلاك النفط والرسوم الجمركية على السلع الأخرى لا يقتصر على المنطقة العربية بل يشمل أيضًا التنظيم التجاري العالمي. فبسبب ضعف دور البلدان النفطية في جولة أوروغواي للمفاوضات المتعددة الأطراف لم تجر مناقشة حول تحرير التجارة النفطية من الضرائب المرتفعة المفروضة عليها. وتجدر الإشارة إلى أن أربع دول عربية (المملكة العربية السعودية والعراق والجزائر وليبيا) من التي تستحوذ على ثلثي إنتاج أوبك وعلى نصف الاحتياطي العالمي لا تتمتع بعضوية منظمة التجارة العالمية.

و يقتصر البرنامج التنفيذي على المبادلات السلعية، فالنظام التجاري العالمي يهتم اهتماماً كبيراً بتحرير تجارة الخدمات التي تشكل ١٩٪ من التجارة العالمية الكلية، و ١٤٪ من الناتج الإجمالي العالمي. بينما تخرج تجارة الخدمات كليًا من نطاق منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى علماً بأنها تستحوذ على ٢٤٪ من التجارة الخارجية العربية، وعلى ٢١٪ من الناتج الإجمالي العربي.

وهنالك عوامل اقتصادية وإدارية وسياسية تحول دون تحرير هذه التجارة. فمن السهل إلغاء الرسوم الجمركية المفروضة على الملابس الجاهزة والمواد الغذائية، ولكن من الصعب تقليص القيود الكمية على الاتصالات والعمليات المصرفية. ويلاحظ أن تقييد تجارة الخدمات لا يقتصر على المبادلات البينية، بل يشمل أيضًا المبادلات الخارجية. إذ لم تلتزم غالبية الدول العربية الأعضاء في منظمة التجارة العالمية الاتفاق المتعدد الأطراف الخاص بالخدمات إلا في بعض المجالات كالسياحة.

ولا يمكن تنمية التجارة العربية البينية إلا إذ تمت معالجة مشكلة ضعف هياكل الإنتاج. فمن ناحية ينتج العالم العربي مواد لا يحتاج إليها بكاملها في أسواقه المحلية. وأوضح مثال على ذلك النفط حيث لا يزيد الاستهلاك على ١٧٪ من الإنتاج. ومن ناحية أخرى يحتاج العالم العربي إلى أنواع كثيرة من السلع لا تنتجها أجهزته بصورة كافية على المستويين الكمي والنوعي. ففي الميدان الزراعي تبلغ قيمة الفجوة أكثر من ١٩ مليار دولار سنويًا، وتنصب على منتجات لا تقبل الاستغناء أو الاستعاضة كالحبوب. أما المواد المصنعة فهي تستحوذ على ٦٧٪ من مجموع الواردات العربية. وهي تقريبًا النسبة نفسها التي تحتلها المنتجات الطاقية في الصادرات. ولما كانت المواد المصنعة تنتج في الولايات المتحدة وأوربا وبعض البلدان الآسيوية، ولما كانت هذه المجموعات أكبر سوق لتصريف المنتجات الطاقية فان الجزء الأكبر من التجارة العربية يجري معها، ومن ثم تنتفي الحاجة إلى المبادلات البينية فتصبح ضعيفة. وعلى هذا الأساس يؤدي تحرير التجارة دوراً ثانويًا قياسًا بدرجة مرونة هياكل الإنتاج. إن استمر وضع الإنتاج العربي على هذا النحو، فلن تؤثر المنطقة الحرة في التجارة البينية تأثيراً يستحق الذكر. ينبغي العمل على تنويع القاعدة الإنتاجية وتحسين كميات الإنتاج ورفع الكفاءة النوعية للمنتجات. وما يثبت صحة هذا التحليل النتائج الإيجابية التي حصلت عليها مجموعة المركوسور، إذ ارتفعت حصة التجارة البينية لدول أمريكا اللاتينية؛ لأنها صناعية وزراعية في آن واحد؛ ولأن الجزء الأكبر من تجارتها ينصب على سلع تنتج محليًا. وينطبق هذا التحليل على مجموعة آسيان. وفي الحالتين ساهمت منطقة التبادل الحر دون أن تكون العامل الوحيد في تنمية التجارة البينية.

الرسوم الجمركية تقود إلى ارتفاع أسعار السلع بسبب عملية نقل العبء الضريبي من المستوردين إلى المستهلكين

يتعين بذل الجهود اللازمة للتغلب على تلك المشكلات. وعندئذ يمكن الانتقال إلى مرحلة التكتل المتمثلة بإحداث اتحاد جمركي. إنه بداية لسياسات أخرى تدافع بفاعلية عن المصالح العربية.



الاتحاد الجمركي العربي يساهم في إحداث صناعات أكثر تكاملاً وتطوراً

نحو اتحاد جمركي عربي

أبدت الأقطار العربية رغبتها في إنشاء اتحاد جمركي من خلال اتفاقية تيسير التبادل التجاري وتنميته لعام ١٩٨١م حيث نصت مادتها الثامنة على ما يأتي: «يتم التفاوض بين الأطراف المعنية لفرض حد أدنى موحد ومناسب من الرسوم الجمركية والضرائب والقيود ذات الأثر المماثل على السلع التي تستورد من غير الدول العربية، وتكون منافسة أو بديلة للسلع العربية». فعلى الرغم من مرور أكثر من عشرين سنة على هذه الاتفاقية ومع التطورات التي شهدتها الساحة الدولية في التسعينيات والمتسمة بظهور عدة تكتلات اقتصادية لا يزال العالم العربي يفتقر إلى الاتحاد الجمركي.

فالاتحاد الجمركي ليس هدفًا بحد ذاته في المجتمعات التي تصبو إلى تعاون وثيق وشامل، إنه مرحلة انتقالية لإنشاء سوق مشتركة يتحرك فيها الأفراد، وتتنقل فيها البضائع ورؤوس الأموال بحرية.

دلت التجربة الأوربية على مدى أهمية هذه المرحلة لترتيب الأوضاع المالية والقانونية والإدارية بغية انسجامها مع مقتضيات السوق المشتركة. كما دلت أيضاً التجربة العربية على إخفاق السوق المشتركة لعام ١٩٦٤م بسبب اعتمادها على قضايا وأمور سياسية أهملت المرحلة الانتقالية. ولكن على المدى القصير لا يمكن إحداث سوق عربية مشتركة؛ وذلك لاختلاف السياسات النقدية والضريبية والأنظمة الإدارية والاجتماعية. هنالك إمكانية لإقامة أسواق مشتركة تضم كل منها مجموعة محددة من البلدان العربية التي تتشابه فيها تلك السياسات والأنظمة، كما هو الحال في دول مجلس التعاون الخليجي. بينما يمكن بعد نجاح منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى إنشاء اتحاد جمركي حتى تحت ظل سياسات وأنظمة مختلفة. حالياً الاتحاد الجمركي هو شكل التكتل الملائم للعالم العربي؛ لأنه يحقق عدة مكاسب دون أن يتطلب جهوداً وتنازلات كبيرة.

الاتحاد الجمركي يعني تبني سياسة تجارية خارجية موحدة. وهذه السياسة الموحدة ضرورية لتقوية المركز التفاوضي الدولي للأقطار العربية في جميع الميادين خاصة الاقتصادية. لنأخذ منظمة التجارة العالمية مثلاً، إنها تضم ١٤٢ دولة عضو. يجمع أغلب هؤلاء الأعضاء تكتل بشكل اتحاد اقتصادي (أوربا) أو اتحاد جمركي (مركوسور) أو سياسات تجارية منسجمة (أبيك وآسيان). ومن مجموع ٢١ دولة عربية ١٠ دول غير منتمية إلى المنظمة، ومن ثم لا تشارك في

قراراتها. أما الدول العربية الأعضاء فلا يجمعها أي تكتل. لا تستطيع البلدان العربية إذن الدفاع عن مصالحها الاقتصادية على الرغم من أن صادراتها ووارداتها تشكل المحرك الأساسي للتنمية.

هنالك إجراءات مطبقة خاصة في الدول الصناعية الكبرى تضر بصادرات الأقطار العربية النفطية وغير النفطية، كالضرائب المرتفعة على استهلاك المنتجات النفطية، والقيود على دخول السلع المصنعة، ولا يمكن التخفيف من حدة هذه الإجراءات إلا عن طريق التفاوض مع الدول التي تطبقها. وتختلف المكاسب التي يحصل عليها المفاوض حسب درجة قوته. ومن أبرز عوامل القوة تمثيله لتكتل إقليمي فاعل.

الاتحاد الجمركي يساهم في إحداث صناعات عربية أكثر تكاملاً وتطوراً. في الوقت الحاضر، وبسبب ضعف المبادلات البينية توجد في العالم العربي صناعات صغيرة، كصناعة الملابس الجاهزة، مهمتها تلبية بعض الحاجات المحلية دون أن تكون قادرة على المنافسة الخارجية. كما تفتقر المنطقة العربية إلى عدد كبير من الصناعات نتيجة ضعف الاستثمارات، وندرة الأطر الفنية، وعدم استخدام التكنولوجيا الحديثة. من دون شك لا يعالج الاتحاد الجمركي هذه المشكلات، لكنه يشجع المبادلات البينية، وذلك لغياب القيود الكمية، والرسوم الجمركية، وتشابه التشريعات التجارية فضلاً عن قدرة استهلاكية ضخمة تتألف من ٢٧٥ مليون شخص. بالتحليل النهائي تزداد الاستثمارات الأجنبية والمحلية وفرص العمل فيتحسن الإنتاج كماً ونوعاً. كما تتولد الحاجة إلى تطوير قطاعات أخرى، كالبنية التحتية، خاصة الطرق البرية لنقل السلع.

الاتحاد الجمركي يساهم في زيادة الصادرات العربية. كقاعدة عامة يقود الاتحاد الجمركي إلى تقليص الرسوم الجمركية على الواردات. وبفعل السوق يرتفع حجم الواردات، أي: تنتعش صادرات الشركاء التجاريين (الدول غير الأعضاء في الاتحاد). وبموجب القواعد المتعارف عليها في التعامل التجاري الدولي تستطيع الأقطار العربية التفاوض مع هؤلاء الشركاء بغية تقليص


تنويع القاعدة الإنتاجية ضرورة لتنمية التجارة العربية البينية

الرسوم الجمركية المفروضة على صادراتها في أسواقهم؛ إذ لا يعقل أن يحقق الشركاء مكاسب دون مقابل، لكن غياب الاتحاد الجمركي يعيق هذا التفاوض. فعلى سبيل المثال، يرفض الاتحاد الأوربي، وهو الشريك التجاري الأول، تقليص الرسوم الجمركية على البتروكيماويات الخليجية ما لم يتم إنشاء اتحاد جمركي خليجي، ومن هذه الزاوية كلما تأخر الاتحاد زادت الخسائر التجارية لدول الخليج.

إن تنمية التبادل البيني من الأولويات التي تسعى إليها دول مجلس التعاون الخليجي. فقد تمت المصادقة على الاتفاقية الاقتصادية الموحدة في ١١نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨١م، أي: بعد ستة أشهر فقط من تاريخ تأسيس المجلس. وفي مارس/ آذار١٩٨٣م أنشئت منطقة التجارة الحرة الرامية إلى تحرير تبادل السلع الصناعية والزراعية ذات المنشأ الخليجي من القيود الكمية والرسوم الجمركية. كما دعت مؤتمرات القمة (خاصة مؤتمر عمان لعام ١٩٩٥م، ومؤتمر الدوحة لعام ١٩٩٧م) إلى ضرورة تأسيس الاتحاد الجمركي الخليجي. وقرر مؤتمر الرياض لعام ١٩٩٩م إنشاء هذا الاتحاد في مطلع شهر مارس/آذار ٢٠٠٥م مؤكداً ضرورة ملاءمة الأنظمة الجمركية للدول الأعضاء في المجلس مع مقتضيات المرحلة المقبلة. يتبين أن الفترة الفاصلة بين إنشاء منطقة التجارة الحرة (مارس/ آذار ١٩٨٣م) وظهور الاتحاد الجمركي الخليجي (مارس/ آذار ٢٠٠٥م) طويلة جداً تنجم عنها خسائر تجارية لا يستهان بها. لذلك وبعد الاطلاع على توصيات المجالس واللجان الوزارية والدراسات المستفيضة قرر مؤتمر القمة المنعقد بمسقط في نهاية عام ٢٠٠١م تقديم إنشاء الاتحاد الجمركي الذي سيتم إحداثه في بداية عام ٢٠٠٣م، وستخضع السلع غير الخليجية لسعر جمركي موحد قدره ٥٪، وسيشكل هذا الاتحاد أساساً ترتكز عليه السوق الخليجية المشتركة. وستتحول هذه السوق إلى اتحاد نقدي يتوج بعملة موحدة مما سيفضي إلى تكتل اقتصادي إقليمي له وزن كبير في الساحة التجارية العالمية.

كما هو الحال في منطقة التجارة الحرة يتعين أن يسهل الاتحاد الجمركي المبادلات التجارية بين الدول الأعضاء، وألا يقود إلى وضع عراقيل أمام تجارة الدول غير الأعضاء. ولكن على خلاف منطقة التجارة الحرة يستوجب الاتحاد الاتفاق على جدول جمركي موحد يسري على سلع الدول غير الأعضاء. ترى كيف يمكن التوصل إلى هذا الجدول الموحد بحيث لا تتضرر تجارة الآخرين؟ في أغلب الأحيان يصعب التوفيق بين هذين الأمرين؛ وذلك للاختلاف الكبير في الأسعار الجمركية للبلدان العربية. فالأسعار المفروضة على استيراد السلع تراوح بين ٥٪ و٥٠٪ وتصل أحياناً إلى أكثر من ذلك. وتوحيد الجداول (لكل سلعة أو نوع معين من السلع سعر خاص موحد) يفترض بالضرورة الاعتماد على الجداول الوطنية السائدة قبل تأسيس الاتحاد ثم تتولى لجنة متخصصة تحديد متوسط الأسعار. والمتوسط هو الجدول الموحد. وينجم هذا التحديد عن دراسات اقتصادية ومالية، وعن التوفيق بين المصالح المتعارضة.

يمكن تنمية التجارة العربية البينية إذا تمت معالجة مشكلة ضعف هياكل الإنتاج. فمن ناحية ينتج العالم العربي مواد لا يحتاج إليها بكاملها في أسواقه المحلية. ومن ناحية أخرى يحتاج العالم العربي إلى أنواع كثيرة من السلع لا تنتجها أجهزته بصورة كافية على المستويين الكمي والنوعي

في أغلب الحالات يفضي الجدول الموحد إلى تقليص الرسوم الجمركية للدول التي كانت تطبق رسوماً مرتفعة، والى زيادة الرسوم الجمركية للدول التي كانت تطبق رسوماً منخفضة. في الحالة الأولى لا توجد مشكلة على صعيد تنظيم المبادلات العالمية الذي يسعى إلى تخفيف الرسوم الجمركية وإلى إلغائها. ترتبط المشكلة فقط بمالية الدولة المعنية ومدى

استعدادها على التنازل عن بعض إيراداتها العامة لمصلحة الاتحاد. أما الحالة الثانية فتثير بعض المشكلات إن كانت الدولة التي رفعت رسومها الجمركية منتمية إلى منظمة التجارة العالمية؛ لأنها التزمت بموجب الاتفاقات المتعددة الأطراف بوضع حد أعلى لرسومها الجمركية لا يجوز تجاوزه إلا في نطاق سياسة مكافحة الإغراق أو التدابير الوقائية، وتحت شروط محددة. وعلى هذا الأساس يقود الاتحاد إلى الإضرار بمصالح البلدان غير الأعضاء فيه، مما يربك العلاقات التجارية إن كانت هذه البلدان منتمية إلى منظمة التجارة العالمية. لذلك ينبغي الدخول في مفاوضات مع البلدان المتضررة بهدف إيجاد الحلول المناسبة التي تفضي إلى ما يسمى بالإجراءات التعويضية. تتمثل هذه الإجراءات بمنح امتيازات تجارية أو مالية جديدة للدول المتضررة تتعلق بالاستثمارات مثلاً. ويمكن لدول الخليج أن تتعرض لهذه المشكلة؛ لأن معدل رسومها الجمركية أضعف بكثير من معدل الرسوم السائدة في الدول العربية الأخرى. ولكن يتعين عدم المبالغة في حجم هذه المشكلة؛ لأن تحديد متوسط الأسعار الجمركية يجب ألا يرتكز على عمليات حسابية مبسطة تجمع الأسعار الجمركية السائدة في جميع البلدان العربية، ثم تقسم النتيجة على عدد البلدان للوصول إلى المتوسط، ويتعين أن يعتمد هذا المؤشر على أهمية التجارة الخارجية والبينية. ومن المعلوم أن دول مجلس التعاون الخليجي تستحوذ على ٦١٪ من التجارة الخارجية العربية الكلية، وعلى النسبة نفسها تقريبًا من التجارة العربية البينية. انطلاقاً من هذا الأمر يجب ألا يقود الاتحاد الجمركي العربي إلى ارتفاع الرسوم المعتمدة لدى الاتحاد الجمركي الخليجي.

من الناحية المبدئية لا يفترض الانتقال إلى الاتحاد الجمركي انضمام جميع أعضاء المنطقة الحرة، بل يكفي استعداد بعض الدول. بمعنى آخر، إن الاتحاد الجمركي لا يلغي المنطقة الحرة. من هذا الباب يمكن الانتماء إلى المنطقة دون الاتحاد. ويتبين من تجربة المركوسور نجاح هذه الفكرة. ففي عام ١٩٩١م وقعت البرازيل والأرجنتين وأوروغواي وبيروغواي على معاهدة لإنشاء منطقة تجارية حرة بينها تحولت في عام ١٩٩٥م، إلى اتحاد جمركي. ولم يمنع هذا التطور دخول التشيلي في عام ١٩٩٦م، وبوليفيا في عام ١٩٩٧م، إلى المنطقة الحرة للمركوسور مع رفضهما الانضمام إلى الاتحاد. ولكن من الناحية العملية يعاني الاتحاد الجمركي ضعف الفاعلية إن لم يضم الدول ذات الثقل التجاري الإقليمي الكبير. فقد بلغت التجارة الخارجية للبرازيل والأرجنتين وحدهما ١٧٢ مليار دولار في عام ١٩٩٩م، أي: ٨٢٪ من التجارة الخارجية للمركوسور. بينما لا تتجاوز التجارة الخارجية لتشيلي وبوليفيا ٢٤ مليار دولار، أي: ١١٪ فقط من التجارة الخارجية للاتحاد. تنطبق هذه الملاحظة على الوضع العربي حيث يترجم وزن التجارة الخارجية لبلدان الخليج أهمية انتمائها إلى الاتحاد الجمركي العربي، ويعكس أيضاً ضعف فاعلية هذا الاتحاد أو أي تكتل تجاري آخر دون مساهمتها.

إن الاتحاد الجمركي يستوجب إحداث مؤسسات تنسجم ومتطلباته. إذ ينبغي أن يجتمع رؤساء الدول الأعضاء فيه دورياً لوضع السياسة العامة للاتحاد. وأن يكون له مجلس مكون من وزراء التجارة والاقتصاد والخارجية مهمته اتخاذ القرارات وفق توجيهات الرؤساء؛ لأن الاتحاد الجمركي يتناول قضايا تجارية تؤثر مباشرة في الاقتصاد المحلي لكل دولة من ناحية، وفي علاقات البلدان الأعضاء مع الدول الأجنبية من ناحية أخرى. كما يستوجب بطبيعة الحال لجنة تنفيذية تطبق قرارات مجلس الوزراء.

لابد من تكثيف الجهود الاقتصادية والسياسية والإدارية الرامية إلى إنشاء اتحاد جمركي عربي. إنه يساهم في تحسين المبادلات الخارجية والبينية، وفي زيادة القدرة الإنتاجية. فضلاً عن دوره الفاعل في الدفاع عن مصالح أعضائه في التجمعات الدولية.

- مصادر الصور: أرشيف «الفيصل».

اللغة والتواصل الاجتماعي

عبدالعزيز الصالح
سرت - ليبيا

اللغة هي أداة الاتصال الأولى في المجتمع الإنساني، وهي الوسيلة الأكثر فاعلية في تمكين الفرد من الدخول في علاقات وتفاعلات اجتماعية متعددة، وهي الأساس في عملية التنشئة أو التطبيع الاجتماعي!

شهدت اللسانيات الحديثة منذ نشأتها في القرن العشرين شهرة واسعة، واللسانيات هي دراسة اللغة علميًا. ولا تعني هذه الإشارة أن الإنسان لم يدرس اللغة مطلقًا قبل ظهور اللسانيات، بل كانت اللغة محور الدراسات الإنسانية، «إما لجانب يتعلق بالدين كالسنسكريتية بالنسبة إلى الهنود، واللاتينية بالنسبة إلى الأوربيين في القرون الوسطى، والعربية بالنسبة إلى العرب منذ نزول القرآن الكريم، وإما لقضايا فلسفية، كالنظريات التي أتى بها كلٌ من أفلاطون، وأرسطو ليثبت الأول: أن اللغة ظاهرة طبيعية، لا شأن للإنسان بوجودها، وليؤكد الثاني: أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتغير بتغير المجتمع والإنسان»(١).

فدراسة اللغة إذن رافقت الإنسان في رحلته المديدة وهو يسطر بناء حضارته، وأهمية الدراسة اللغوية الحديثة لا تعود إلى كونها اكتشفت مادة جديدة للبحث، بل إلى أنها اعتمدت المنهج العلمي الصرف، وأول ما اهتمت به اللسانيات الحديثة هو تحديد مهام دارس اللغة للتمييز بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي. من هنا «جاءت الحاجة إلى وضع تعريف محدد للغة، وتحديد خصائص تميز لغة الإنسان من سائر وسائل التعبير والتبادل»(٢).

ومعلوم أن الحياة البشرية تقوم برمتها على الاتصال،



تمتد الموجات الصوتية عبر الهاتف إلى أقاصي الأرض

وعلى العلاقات الإنسانية بما يشمل ذلك العلاقة الدينية والسياسية والاجتماعية. فلا حياة بشرية واجتماعية دون اتصال، فقد كان الاتصال، ولا يزال، ظاهرة حية

في سلوك البشر، الهدف الأسمى منه العلاقات الإنسانية والاجتماعية مع الفرد أو الجماعة.

ومن أهم ما يميز لغة الإنسان من سائر وسائل الاتصال الأخرى أنها تشكل مجموعة من الدوال تعمل ضمن نظام ذي قواعد محددة ومعقدة في آن معاً، فلا يستطيع الدال أن يقوم بمهمة الاتصال أو التبادل إلا إذا وجد ضمن مجموعة أخرى من الدوال وظيفتها تمنحه، بوجوده بينها، وظيفة اتصالية معينة كما تستقي تلك الدوال وظيفتها من وجودها معه(٣).

واليوم يشكل الاتصال أحد الموضوعات المهمة في علم النفس لكون الحياة البشرية تقوم على هذا المبدأ. وهنا «يجب التمييز بين نوعين من الاتصال الإنساني: الاتصال الأفقي أو السطحي القائم على وجود علاقات اجتماعية عرضية، والاتصال العمودي الذي يقوم على إقامة إنسانية متينة تستمر مع الزمن، وتترافق بالتعاطف والصداقة والانفتاح»(٤).

ففي الخمسينيات وما بعدها كنا نقرأ تعابير ومصطلحات جديدة، مثل الترميز والإرسال والتلقي، وشبكات الاتصال، وقنوات الاتصال والتبادل ...إلخ. يذكر دانس: «أن تغلغل الاتصال في علم النفس قد جاء بشكل مباشر عن طريق علم النفس الاجتماعي واللسانيات النفسية وعن النظريات الشخصية»(٥).

وإذا كان الاتصال يتسلل إلى صميم الحياة البشرية منذ أن دبّ الإنسان على هذه الأرض يرتاد ويكتشف من أسرار هذا الكون الزاخرة، فإن دراسة هذا الموضوع لم تتهيأ لها البدايات إلا في الشوط الأخير من القرن الماضي.

«إن في استطراد المنظرين لظاهرة الكلام ما يدل على نفاذ تفكيرهم في شأن قيمة البعد اللغوي في الحياة الجماعية إلى مؤشرات سوسيولوجية على غاية الدقة خصوصاً عند ربطهم قضية الكلام بمحرك الحاجة في الوجود الإنساني»(٦).

أهمية الظاهرة اللغوية

إن أهمية الاتصال لا تنحصر في كونها حاجة نفسية فحسب، بل في كونها ضرورة لتحقيق التوازن في الشخصية. والاتجاه في الطب النفسي يشير إلى دور الاتصال في تحرير المريض من حالة البلبلة والاضطراب، فهناك عدد من الأطباء بدؤوا يهتمون بهذه الظاهرة، ويسمونها «الطب النفسي الظاهري»(٧) أي الطب الذي يوثق رابطة الإنسان بالعالم المحيط، كما أن هناك حاجات نفسية متعددة يتم إشباعها من خلال الأحاديث وبإمكان الاتصال أن يتخذ شكل التسلية أو الرغبة في التأثير أو التباهي، وقد يكون الفرد بحاجة إلى إظهار المهارة الكلامية أو بحاجة إلى إعجاب الآخرين (٨) وهذا الاتصال يساعد أكثر على التفاهم، ويوفر السرور والطمأنينة والتعبير عن الذات في المحادثة والتحاور، وهو بمنزلة «الخبز المشترك» بين الناس، فالكلام يؤدي إلى تفريغ التوترات، ويقوم بوظيفة تطهيرية في الحياة الاجتماعية(٩).

الإنسان دائماً في حاجة إلى التعبير عن شعور أو غرض أو فكرة عن طريق الكلام، وهو بالطبع يتقن لغته الأصلية، وله القدرة على النطق

واللغة - أيضاً - تمكّن الفرد من تلبية مطالبه، وتنفيذ رغباته في مجتمعه، عن طريقها يحصل التعارف والتفاهم والتفاعل مع بني جنسه، والاطلاع على تجارب الشعوب في المجتمعات الأخرى ماضياً وحاضراً، وبقنواتها يقدر على التأثير في عقول الآخرين، والإثارة نحو الإقناع بتأييد موقف أو إدانة آخر(١٠).

وتعد اللغة أداة الفرد للتحكم في وجوده في المجتمع، فهي ثمرة من ثمار التفكير الإنساني، بها يقوم العقل بالعمليات التفجيرية من تجريد إدراك وتحليل واستنتاج وربط للعلاقات إدراكاً لها بين الظواهر... إلخ(١١).

وينشط العلماء العرب إلى استنباط المقومات اللغوية في التراث العربي، فتراهم يعنون أيما عناية بتحول قيم الظاهرة اللغوية من الوجود الفردي إلى الوجود الإنساني، فالجاحظ يقرر أن وظيفة الكلام في المجتمع

الإنساني «لربط حبل الأسباب بين أفراده مما يجعله مطية التعبير عن حقائق حاجاتهم ليتم الاهتداء إلى مواضع سد الخلة ورفع الشبهة ومداواة الحيرة»(١٢).

ويلحّ الغزالي على البعد اللغوي في المجتمع موضحاً: «أن الإنسان من دون خطاب لا يكون إلا حبيساً لذاته، وهو مايؤول إلى عدّ العامل اللغوي حبل التواصل بين الفرد والمجموعة التي يعيش في وسطها»(١٣).

وينفذ حازم القرطاجني من خلال هذا السياق إلى حتمية حضور العامل اللغوي في «استقامة تعايش الناس سواء في تفاهمهم أو تعاونهم على تحصيل المنافع وإزاحة المضار، واشتقاق حقائق الأمور»(١٤).

والكلام وإن كان أداة تعبير في منطلقه فهو وسيلة لبلوغ الفرد غاياته من الجماعة، وبذلك فحص الدارسون الأبعاد اللغوية، والكلام محور هذه الأبعاد، فجعلوه قيمة جوهرية بين الإنسان والمجتمع وأول أسس الاجتماع البشري(١٥).

ولا يقف الأمر باللغة عند حد التفاهم والتعامل والاتصال بأفراد المجتمع في الحاضر، بل هي الوسيلة لنقل التراث من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل، كما أنها الجسر الذي تعبر عليه الثقافة من جيل إلى آخر، إضافة إلى أنها تحتفظ بالتراث والأعراف الاجتماعية جيلاً بعد جيل،إذْ إن كل كلمة تحمل في طياتها خبرات بشرية، ولولا لغات الأقدمين لما أحطنا بتجاربهم وثقافتهم. واللغة تدخر التراث، وتنقل الأمم الميتة ميتة مثلها، ولو كان أهلها أحياء يدبون على الأرض دبيباً!.



اللغة عامل جوهري لتيسير عمليات التفاعل الاجتماعي بين الناس

بعد هذا تعدّ اللغة عاملا جوهرياً في تيسير عمليات التفاعل الاجتماعي بين الناس، ولولاها لعاشَ الناس في ظلام، وقد هبطت عليهم سكينة اللحد العميق.

ومن اللافت للاهتمام أن الأمم كلما ارتقت زاد اعتمادها على اللغة، وليس أدل على ذلك من أن الكتب والصحف وسائر المواد المكتوبة تكون أكثر كمية وتنوعاً في الأمم الراقية منها في الأمم المتخلفة(١٦).

معادلة تواجدية بين الكلام والإنسان

«إن بين الوجود والعدم الكلام..»(١٧).

«الكلام تكريم لإنسانية الإنسان، يخرج الإنسان من محبس البهيمة ليدخل رحاب الإنسانية»(١٨).

يلحّ المنظرون على سمة الانفصال بين الإنسان والحيوان انطلاقاً من الحدث اللساني، ففي الكلام فضل الإنسان على سائر الحيوان وتكريم الخالق - سبحانه - وبالكلام يخرج الإنسان من حريم البهيمة ليدخل حدّ الإنسانية(١٩).

فالمنهج التعريفي يطوف بالإنسان بين عناصر الوجود معتمداً أساساً على الحدث اللساني الذي يبوّئ الآدمي مركز الوجود في الكون، وفي هذا السياق يوثق الرازي فكرته بدليل منطلقه الآية: *وآتيناه الحكمة وفصل* **الخطاب**. ص:٩. موجهاً إلى تقسيم الأجسام في العالم إلى ثلاثة:

أولها: الخالية من الإدراك والشعور وهي الجمادات.

ثانيها: ما لها إدراك وشعور، لكنها غير قادرة على التعبير عن أحوالها والتعريف بذواتها، وهي جملة الحيوانات عدا الإنسان.

ثالثها: التي يحصل لها إدراك وشعور وتملك القدرة على تعريف غيرها الأحوال المعلومة لها، وذلك هو الإنسان، وقدرته على التعبير والتعريف بالنطق والخطاب.!(٢٠).

وهؤلاء الذين نظّروا في قضية علاقة الإنسان باللغة «انتبهوا إلى أنها علاقة بالطبع والاقتضاء لا بالعرض والاتفاق»(٢١) ومعنى ذلك المتحصّل «أن الإنسان في كينونته الجوهرية موجود متكلم، فتركيبه الطبيعي مقتضٍ البعد اللغوي بالضرورة»(٢٢)

وينعطف الجاحظ من جانب آخر على سَيْر «أسرار هذا الارتباط بين البعد اللغوي والبعد الوجودي في الإنسان ضمّ تأملات تجريدية ينتهي منها إلى ربط القضية بما يسميه حكمة الوجود مفصلا إياها إلى حكمة معقولة غير عاقلة وحكمة عاقلة ومعقولة في آن معاً، ومدارها الإنسان بوصفه قادراً على الخطاب المبين المستدلّ»(٢٣).

ثم يستنبط الجاحظ موقفاً تنظيرياً خلاصته «مشاركة كلّ حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، وتميز الإنسان بكونه دليلاً مستدلاً، ثم جُعل للمستدل سببٌ يدلّ به على وجوه ما ينتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً»(٢٤)

ويهدينا النظر الفاحص إلى أن البعد اللغوي«العنصر المحدد في بروز خصوصية الإنسان بالكلام من وجهتين: كونية الظاهرة وتهيؤ الإنسان لها، فأما كونية الظاهرة اللغوية فتتمثل في أن الحدث اللساني ملازم الوجود البشري على الرغم من تباعد المكان أو تعاقب الزمان، بل تنوع الألسنة واختلاف اللغات، ويفهم من ذلك: أن اللغة من حيث هي وجود مطلق لازمة الحضور مع الإنسان، وفي ذلك طابعها الكوني»(٢٥).

ولابن جني استقراءٌ نابهٌ لعلاقة الإنسان بالكلام عبر الحاجة «تتمثل في وعي الكائن البشري بالتراهن القائم بين وجوده وتكامل بعده اللغوي ليصل إلى تصرف الإنسان في بنية لغته إلى الوعي بضرورة سدّ الحاجة أولاً وبالذات» (٢٦).

أهمية الاتصال لا تنحصر في كونها حاجة نفسية فحسب، بل في كونها ضرورة لتحقيق التوازن في الشخصية. والاتجاه في الطب النفسي يشير إلى دور الاتصال في تحرير المريض من حالة البلبلة والاضطراب

بعد هذا الاستطراد نعلم أن قدرة الإنسان على صنع الكلام وصياغة رموزه التي تمثل ظواهر جبهتيه الخارجية والداخلية على السواء هي أهم الخصائص التي تميزه من بقيَة الكائنات، ففي محاولة الإنسان فهم محيطه الاجتماعي الذي يعيش فيه، وحل ألغازه يصوغ انساقاً رمزية يمكنه من طريقها بناء هذه العملية، ونقلها إلى الآخرين.(٢٧)

والكلمات تمد الإنسان بقوالب يصبّ فيها أفكاره ومفهوماته وتصوراته، مثلما تزوده برموز تعبِّر عن معتقداته وقيمه، وعلى العكس من بعض الرموز الأخرى التي لا تتضمن سوى معان محدودة وثابتة، كالأرقام أو

الأعداد أو عبارات التوثيق «فإن الكلمات تحتمل كثيراً من التأويلات التي تختلف بين متلق ومستقبل كما تختلف باختلاف الأحوال والمواقف، وهذا هو ما يضفي على الكلمات أهميتها وخطورتها في عملية الاتصال»(٢٨)

اللغة إذاً ـ باختصار ـ هي أداة الإنسان الأولى في المجتمع. هي أداته المجربة في عملية التكامل مع الثقافة التي ينشأ في ظلها. إن ثمة عوامل اجتماعية واقتصادية وتاريخية تؤدي إلى تفاوت أفراد المجتمع في وعيهم اللغوي وطرائق توظيفه. هنا يجدر القول: إن لغة الفرد هي بمنزلة رقيب داخلي، يتصرف في تحديد علاقاته بالناس بقدر ما هي وسيط لفظي، أو تجربة وسيطة، يوظفها في توصيل آرائه وأفكاره وانفعالاته. ومن هنا تتوقف قدرة الإنسان على الاتصال ـ إلى حد كبير ـ على حصيلته من المفردات والتركيب اللغوية(٢٩).

يرى تشومسكي ـ أن القدرة على الكلام ناتجة من الطبيعة الإنسانية يقول: «الإنسان ملكة مخصوصة بجنسه، ونوع من التنظيم الذهني الفريد في نوعه، لا نستطيع إرجاعه إلى بعض الأعضاء أو ربطه بالذكاء عامة؛ فالكلام الإنساني قادر على أن يكون وسيلة لإبلاغ حر ولتفكير حر»(٣٠).

مراحل التواصل اللغوي

يتحفز الإنسان إلى الكلام من أثر مؤثر، والا التزمَ الصمت، وعاش جماداً أصم. وقد يكون المؤثر خارجياً يحدث أثراً إيجابياً أوسلبياً، يرى الإنسان صديقاً فيسارع إليه بالتحية، أو يواجه بائع صحف جوالاً فيناديه ويحادثه، وقد يلقى عتاباً قاسياً من جماعته، فيرد غاضباً منفعلاً، أو يشم عطراً فوّاحاً، فينشد شعراً، أو يلمس كأساً ساخنة تحرق أنامله، فيسخط ـ جهراً ـ على غفلته.

وقد يكون هذا المؤثر داخلياً، كأن يشعر بالجوع أو العطش أو الضيق أو الفرح، فيعبّر عن تلك الأحاسيس بطرائق الكلام المختلفة منها اللغوي، ومنها غير اللغوي.

دراسة اللغة رافقت الإنسان في رحلته المديدة وهو يسطر بناء حضارته، وأهمية الدراسة اللغوية الحديثة لا تعود إلى كونها اكتشفت مادة جديدة للبحث، بل إلى أنها اعتمدت المنهج العلمي الصرف

خلاصة القول: إن الإنسان يشعر بحاجة إلى التعبير عن شعور أو غرض أو فكرة عن طريق الكلام، وهو بالطبع يتقن لغته الأصلية، وله القدرة على النطق. إننا من هذه اللحظة حتى تلك التي تصل الرسالة من المرسل إلى المتلقي ليعيها نستطيع أن نميّز مراحل ثلاثاً تعدّ قنوات تمرّ بها الرسالة بدءاً من فم الأول إلى أذني الثاني، وفي كلّ مرحلة تجرى عدة عمليات فرعية، وهذه دورة الخطاب بين المخاطِب والمخَاطَب تعرض منفصلة ومحددة في مراحل ثلاث باقتباس وتصرف في الصوغ والتداول(٣١).

المرحلة الأساسية الأولى:

هذه مرحلة تكوين الرسالة أو الخطاب، تطلق أصواتاً وتجتمع كلمات وجملاً، وهي تخص المتكلم وهو معنيٌّ بها، لذلك يقول علماء الكلام: الكلام صفة المتكلم.

المرحلة الثانية:

ينتقل الكلام في هذه المرحلة أمواجاً صوتية عبر الهواء حتى تدق بوابة الأذنِ لدى المتلقي، ثم تنتقل بعملية فنية معقدة دقيقة إلى دماغه.

المرحلة الثالثة والأخيرة:

هذه أيضاً تتعلق بالمتلقي، كيف يعيد تركيب الرسالة أو الخطاب من الأصوات التي تلقاها إلى المعنى الذي تحمله. إن أول ما يفعله المتكلم أو المرسل في المرحلة الأولى ـ مرحلة تركيب الرسالة وإطلاقها ـ وهي مهمة اختيار المعاني وصبها في القوالب المعدة لذلك والمتحصلة من ذخيرته اللغوية. ولا يزال الجدل قائماً منذ قرون حول هل يمكن أن تتكون الأفكار من دون قوالب لغوية، أو أن تلك الأفكار والقوالب شيء واحد، أو أن القوالب اللغوية هي التي تحدد الأفكار. هنا نفترض أن الفكرة الأساسية لابد لها ـ على الأكثر ـ من قالب لغوي للتعبير عنها، ولطرح المعلومة بسهولة نقول: إن بعض القوالب اللغوية الخاصة بالمعنى هي تلك المفهومات التي تعبّر عنها الكلمات المجردة التي ضمّها المعجم.

إذن أصبحت الرسالة خطاباً جاهزاً لدى المتكلم، ولم يبق عليه إلا إصداره. والخطوة التالية أن يقوم الدماغ بإصدار أوامره إلى أجهزة النطق المتعددة الوظائف لتؤدي الأدوار المعينة والمناسبة لنطق هذه الجملة. أما الخطوة الأخيرة فهي أن تقوم أجهزة النطق بالفعل بإصدار الأصوات اللازمة والإشارات اللغوية الإبلاغية، وهنا يتم دور المتكلم. وحين تصدر الأصوات عن أجهزة النطق تحدث اهتزازات في الهواء تتولد عنها موجات صوتية تبثّ في كل مكان يحيط بالمتكلم، وتمتد لمسافات محدودة، ثم تبدأ بالضعف تدرجياً إلى أن تصبح الآذان البشرية عاجزة عن التقاطها وفهم القصد منها، وربما انتقلت هذه الموجات عبر الهاتف، فتمتد مسافة وصولها إلى أذن السامع إلى أبعاد أكبر. فإذا ما استعملت وسائل التقنية المتطورة التي تعنى بالتقوية الصوتية، وصلت تلك الموجات الصوتية جلية واضحة إلى أقاصي الأرض، بل إلى تخوم الفضاء الخارجي.

ولنفترض - إيضاحاً للموقف - أن ظروفاً قد صاحبت تلك الأمواج الصوتية حتى بلغت أذن المتلقي، ودقت بوابتها، ثم انتقلت الاهتزازات إلى أذنه الوسطى والداخلية عبر الأعصاب، ثم قفزت إلى الدماغ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي توصف وصفاً علمياً دقيقاً عن طريق علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء.

أما المرحلة الثالثة - وهي الأخيرة - فهي التي يشغل السامع فيها بحلّ رموز تلك الرسالة الصوتية، والتوصل إلى تركيبها الصوتي والصرفي والنحوي - ضمن عملية معقدة ودقيقة وسريعة - ثم يستخلص منها مراد المتكلم.

وهذه المرحلة كالأولى من أعصى المراحل على التحليل والوصف، لأنها تنفّذ وتتكامل داخل الدماغ. وللتواصل اللغوي ثلاث مراحل:

الأولى: إعداد الرسالة (الخطاب) ثم إطلاقها من المتكلم عبر جهاز النطق.

الثانية: انتقال الرسالة (الخطاب) إلى السامع (المتلقي) عبر جهاز السمع.

الثالثة: بلوغ الرسالة (الخطاب) السامع (المتلقي): وتحليلها وفك رموزها وفهم مضمونها داخل الدماغ.

المراجع والهوامش

١. تعريف اللغة في نظر الألسنية الحديثة: بسام بركة، مقالة، المجلة العربية، الرياض، العدد ٥، السنة ٤ ، ١٩٨٠م. ص/ ٥٥ ـ ٥٦.
٢. المرجع نفسه.
٣. المرجع نفسه.
٤ ـ ٥ ـ سيكولوجية الاتصال والعلاقات الإنسانية، غسان يعقوب مع جوزف طبش، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩م.
٦. التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبدالسلام المسدي، الدار العربية، ١٩٨١م
٧ ـ ٩ ـ سيكولوجية الاتصال والعلاقات الإنسانية، مرجع سابق.
١٠. الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها: محمود أحمد السيد دار العودة ـ بيروت ١٩٨٠م:١١. ١٢.
١١. المرجع السابق.
١٢. الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ص ٢، القاهرة ـ ١٩٦٥م، ١/٤٤.
١٣. المستصفى من علم الأصول، الغزالي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٣٧م، ١/٦٥.
١٤. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب الخوجة ـ دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦م، ص٣٤٤.
١٥. التفكيراللساني في الحضارة العربية: عبدالسلام المسدي، الدار العربية، ١٩٨١م، ص ٤٩.
١٦. الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها، مرجع سابق.
١٧. أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني.
١٨. نهاية الأقدام في علم الكلام، الشهرستاني، تصحيح الفرد جيوم، بغداد ، ص٣٢٣.
١٩. المرجع السابق.
٢٠. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازي، ط١، المطبعة البهيّة، مصر، د. ت ٢٦/٧٨.
٢١. التفكير اللساني، مرجع سابق :ص ٤٧.
٢٢. كتاب الحروف، الفارابي، تحقيق:محسن سهدي، دار المشرق، بيروت ١٩٧٠م، ص٧٧.
٢٣. التفكير اللساني، مصدر سابق ص ٤٨.
٢٤. الحيوان، مصدر سابق: ١/٣٣.
٢٥. الإمتاع والموانسة: أبو حيان التوحيدي، تصحيح أحمد أمين ورفيقه، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٣: ١/١١١، بتصرف في النص.
٢٦. الخصائص، ابن جني، تحقيق النجار، ط٢، دار الهدى، بيروت، د. ت: ٢/٣٠.
٢٧. الاتصال: أحمد أبوزيد، مقالة: عالم الفكر ـ الكويت، العدد ٢ سبتمبر ١٩٨٠م، ص ٤ ـ ٥.
٢٨. ٢٩ ـ المرجع نفسه، بتصرف.
٣٠. نقلاً عن مقالة للحبيب اللويزي، مجلة «الحياة الثقافية»، تونس، ١٩٧٧م.
٣١. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: نايف خرما، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص ٧٨. ٧٩، ص٨٣.٨٤.

ـ مصادر الصور: أرشيف «الفيصل».

شاعر من جُدّة يسيِّر جيشاً إلى الروم

عبدالله بن سليم الرشيد
الرياض - السعودية

شاع في مصطلحات النقاد العرب القدماء- في معرض تقعيد جماليات الشعر- مصطلح حسن الابتداء، وعدّوه ركنًا من أركان البلاغة.
قال ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): «وحقيقة هذا النوع أن يُجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من هذا الكلام، إن كان فتحًا ففتحًا، وإن كان هناءً فهناء أو كان عزاءً فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني» (١).


من معالم جدة القديمة

ومما ضُرب به المثل في حسن الابتداء قول النابغة:

كِليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ
وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ(٢)

وقول أبي حيّة النُّمَيْريّ:

ألا حيِّ من أجلِ الحبيبِ المغانيا
لبسنَ البِلى مما لبسنَ اللياليا (٣)

وقول إسحاق الموصلي:

هل إلى أن تنام عيني سبيلُ
إن عهدي بالنوم عهدٌ طويلُ(٤)

ولست هنا في مقام عرض اجتهادات النقّاد، وإنما أنا بصدد الإشارة إلى قصة عُرف بعضها، ونُسِي بعضُ تفصيلاتها، وفيها قصيدة تَمُتّ بسبب إلى ما أسموه حسن الابتداء.

والذي لفت نظري إلى هذه القصيدة كونُ قائلها من أهل جُدّة، كما نقل هذا أبو العبّاس المبرّد (ت ٢٨٥هـ) في كتابه «الروضة»، وهو كتاب مفقود، وعنه نقل ابن الأثير،

وخلاصة القصة عند هذا الأخير: أن هارون الرشيد غزا بلاد الروم، وكان ذلك سنة مئة وسبع وثمانين، فخضع له ملكهم نقفور، وبذل الجزية، فلما عاد عنه، واستقر بمدينة الرقة، وسقط الثلج، نقض نقفور العهد، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد، لهيبته في صدور الناس، فبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعاراً في إعلامه، فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك، إلا شاعراً من أهل جُدّة، فنظم قصيدة وأنشدها الرشيد. فلما أنهى الأبيات قال الرشيد: أوقد فعل؟ ثم غزاه وفتح مدينة هرقلة(٥).

وهذه هي القصيدة كما وردت عند الطبري (ت ٣١٠هـ)، وأبي الفرج الأصفهاني(ت٣٥٦) باختلاف يسير:

نقضَ الذي أعطيتَه نقفورُ ... فعليه دائرةُ البَوار تدورُ

أبشر أميرَ المؤمنين فإنه ... غُنْمٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ

فلقد تباشرت الرعيّةُ أن أتى ... بالنقض عنه وافدٌ وبشيرُ

ورَجَتْ يمينُك أن تعجِّل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكورُ

أعطاك جزيتَهُ وطأطأ خدَّهُ ... حذرَ الصوارمِ والرَّدَى محذورُ

فأجرتَهُ من وقعها، وكأنها ... بأكفِّنا شُعَلُ الضرام تطيرُ

وصرفتَ بالطَّوْل العساكرَ قافلا ... عنه وجارُكَ آمنٌ مسرورُ

نقفورُ إنك حين تغدرُ أن نأى ... عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ

أظَننتَ حين غدرتَ أنك مُفْلِتٌ ... هَبِلَتْك أمُكَ . ما ظننتَ غرورُ

ألقاك حَيْنُك في زواجر بحره ... فطمَتْ عليك من الإمام بحورُ

إن الإمامَ على اقتسارك قادرٌ ... قرُبت ديارُك أم نأتْ بك دورُ

ليس الإمامُ وإن غفلْنا غافلاً ... عما يسوسُ بحزمِهِ ويُدِيرُ

ملكٌ تجرَّد للجهاد بنفسه ... فعدوُّهُ أبدًا به مقهورُ

يا من يريد رضا الإله بسعيه ... واللهُ لا يخفى عليه ضميرُ

لا نُصْحَ ينفعُ من يغشُّ إمامَهُ ... والنصح من نُصَحائِهِ مشكورُ

نُصْحُ الإمام على الأنام فريضةٌ ... ولأهلها كفَّارةٌ وطهورُ(٦)

والقصيدة من متوسط الشعر، بالقياس إلى شعر العصر العباسي الأول الذي قيلت فيه، وإنما أوردها بعض النقّاد إعجاباً بحسن الابتداء بها، فقد صرّح هذا الشاعر بالمعنى في صدر البيت الأول.

ثم إنه توصّل إلى تحريض الخليفة بأسلوب فيه تهوين من شأن نقفور، بل إنه جعل نقضه العهد بشارة بالغنيمة والظفر، وبرع في تصوير حال الناس، إذ جعلهم متباشرين بما حدث، مستعجلين للنفير إلى جهاد الروم.

وتوسّل الشاعر- في معرض التحريض على الجهاد، وإظهار حماسة الناس له - بتكرار كلمة (الإمام) وصفًا للخليفة، وفيها دلالات لغوية ملائمة لهذا المقام، فهي تشير إلى الطاعة والانقياد والتسليم للخليفة فيما يرى وما يقرّر.

أما الشاعر صاحب هذه القصيدة المدويّة، فلم تَسْخُ المصادر إلا بعُلالة لا تشفي غليلاً:

فهو أبومحمد عبدالله بن يوسف التيمي، وقيل: اسمه الحجاج(٧)، وهو من أهل جُدّة، وقد نعته الأصفهاني بـ «الجُدّي الشاعر»(٨)، وفي موضع آخر قال: «الشاعر المكي الذي كان ينزل جدة» (٩).

ويبدو أنه لم يكن مشهوراً، فكل الذين أوردوا قصة قصيدته تلك يشيرون إليه تنكيراً لا تعريفًا: «إلا شاعراً من أهل جدة»(١٠)، «بشاعر من أهل جدة»(١١)، على أن بعض الجمل التي وردت في التعريف به تدل على أنه كان ذا شهرة ومكانة، فأبو الفرج يذكر أن ذا اليمينين طاهر بن الحسين اختصّه في أيام المأمون، ورفع قدره(١٢).

بل إن بعض من ذكروه نعتوه بأنه «قوي الشعر»(١٣)، وأنه كان «شاعراً مُفلقًا»(١٤)، والذي أميل إليه أنه لم يكن كذلك، إذ لو كان مُفْلِقًا لَشاع ذكره، وروي شعره.

ويشهد لرأيي أن القطعتين الأُخْرَيَيْن من شعره - وهما مع القصيدة الرائية كل ما وقعت عليه منسوباً إليه - ليستا من رائق الشعر أو رائعه، يقول في الأولى واصفاً فتح هِرَقلة:

هَوَتْ هِرَقلةُ لما أن رأت عجبا
حوائماً ترتمي بالنفط والقارِ
كأن نيراننا في جنب قلعتهمْ
مصبَّغات على أرسان قصَّارِ (١٥)

ويقول في الأخرى واصفاً نقفور ونقضه العهد:

لجَّتْ بنقفور أسباب الردى عبثا
لما رأته بغيل الليث قد عبثا
ومن يزرْ غيله لا يخلُ من فزع
إن فات أنيابه والمخلب الشَّبَثا
خان العهود، ومن ينكثْ بها فعلى
حوبائه، لا على أعدائه نكثا
كان الإمامُ الذي تُرجى فواضلُهُ
أذاقه ثمر الحلم الذي ورثا
فردَّ ألفته من بعد أن عطفت
أزواجه مَرهًا يبكينه شَعِثا(١٦)

فهذا شعر متماسك مُحكَم، غير أني لا أجد فيه شاعرية «مُفْلِقة»، وإن كان شعره الذي لم يصل إلينا على هذه الشاكلة فيمكن عدّه شاعراً متوسطاً مقتدراً على النظم، ولكنه لا يصل إلى درجة الإبداع المتميِّز.

ومن المهم إيراد رأي المبرد في قصيدته الرائية المشهورة، إذ قال عنها: «وهذا كلام ضعيف ليِّن، ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت»(١٧)، وهو رأي يعضد الحكم بتوسط شاعريته، وإن لم يخلُ من مبالغة في تهوين شأن القصيدة.

وأعود إلى حياة هذا الشاعر الجُدِّي، محاولاً الإمساك ببعض خيوط حياته، فهو شاعر مكيّ الأصل، استوطن جُدَّة، ثم رحل إلى العراق، واتصل ببلاط هارون الرشيد، ولعله حظي عنده، إذ إن الأصفهاني يذكر أنه - أي الرشيد - أعظم الجائزة له، ولعلّ قصيدته الرائية هي أول ما لفت النظر إليه.

وبعد وفاة الرشيد اتصل بطاهر بن الحسين ذي اليمينين وزير المأمون الذي ولي خراسان أمداً طويلاً، وكان مجلسه ملتقى للشعراء والأدباء، ويبدو أن أبا محمد الجُدِّي قد حظي عنده، وقد سبقت الإشارة إلى أن طاهراً اختصه ورفع قدره.

ومن العجيب أن تسكت المصادر الأدبية والتاريخية عن الترجمة له، على شهرة قصيدته والخبر الذي وردت في سياقه، مع أن جُلّ المصادر ترجمت لمجهولين لا يعرف لهم آثار فنية سائرة.

ومما يدعو إلى العناية بهذا الشاعر كونُه منسوباً إلى «جُدَّة»، ومن النادر بحسب اطّلاعي - على رقة العلم وقلة المعرفة - أن نجد شاعراً أو أديباً ينتسب إلى جُدَّة، وبخاصة في القرون الأولى.

ولعل حظّه التاريخي يبسم له ولو بسمة عابرة، كما ابتسم له حظّه الدنيوي في بلاط الرشيد، فيسخو له الزمن بمزيد تعريف به وبتراثه الشعري، وعسى أن تكون هذه المقالة موفّقة في لفت النظر إليه، على أنّها قلادة تطوّق الجيد، ولا تكسو الجسد، والله المستعان.

المراجع والهوامش

١- ابن الأثير: المثل السائر ٣/١١٩.
٢-٣- ابن المعتز: البديع ص ٧٥-٧٦.
٤- البديعي: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ص٣٩٥.
٥- ابن الأثير: المثل السائر٣/١٢٨.
٦- الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٣٠٨، والأصفهاني: الأغاني ١٨/١٦٩.
٧- ينظر: الطبري ٨/٣٠٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/٣٥٧.
٨-٩- الأصفهاني: ١٨/١٧٣.
١٠- ابن الأثير: المثل السائر ٣/١٢٨، والبديعي ٣٩٥.
١١- الطبري: ٨/٣٠٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/٣٥٧، ويلحظ أن (جُدَّة) صحفت في الطبري إلى «خرَة» وفي الكامل إلى «جَنْدة».
١٢-١٣- الأصفهاني: ١٨/١٦٩.
١٤- ابن الأثير: المثل السائر٣/١٢٨.
١٥- الأصفهاني: ١٨/١٧٣.
١٦- الطبري: ٨/٣١٠.
١٧- الأصفهاني: ١٨/١٧٣، وأنبّه على أن الكامل في التاريخ انفرد بذكر بيت من الرائية موضع الخبر.

- مصادر الصور: أرشيف «الفيصل».

أسباب انتشار المدارس في العصر الأيوبي

ثناء نجاتي عياش
عمّان - الأردن

إذا ما ذكر العصر الأيوبي فإن الذهن ينصرف أول ما ينصرف إلى الجانب العسكري والسياسي، كيف لا؟ وحكام هذا العصر، والمماليك من بعدهم، هم الذين تصدَّوْا للحملات الصليبية المتتالية التي هاجمت بلادنا، ولكن الإعداد العسكري وحده لا يكفي، فلابد من الإعداد الفكري والثقافي للإنسان ليتمكن من مواجهة الأعداء، وهذا الأمر لا يتم إلا إذا سبقته حملة تعليمية منظمة ترعاها الدولة بتوفير المؤسسات التعليمية وكل ما تحتاج إليه للارتقاء بشأنها.

وقد تميز هذا العصر بكثرة المؤسسات التعليمية التي تنوعت بين دور للقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والخوانق، والرباطات، والزوايا...إلخ، ويحتار الباحث فيما يختاره للحديث عنه في هذا المجال، وحتى لا يطول البحث فقد قصرت الحديث فيه على أسباب انتشار المدارس في هذا العصر الذي أدى العلم فيه دوراً مهماً في إرساء قواعد الدولة الأيوبية.

وبحثت في الدوافع التي أدت إلى انتشار المدارس في هذا العصر بدءاً بالدافع الديني، ومروراً بالسياسي، وانتهاءً بالدافع العلمي، ولئن تعددت هذه الأسباب إلا أنها يكمل بعضها بعضاً.

الدافع الديني

مما لا شك فيه أن أول الأسباب التي دفعت أهل هذا العصر إلى بناء المدارس هو الدافع الديني، فقد حث الإسلام على طلب العلم والاهتمام بنشره، فقد كانت أول آيات القرآن الكريم نزولاً هي قوله تعالى: *اقرأ باسم ربك الذي خلق*. **العلق**:١. بالإضافة إلى ورود كثير من الآيات القرآنية التي تبين فضل العلم وأهميته، وهناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تشجع على طلب العلم، حتى إنه - عليه السلام - عدّ طلبه فريضة على كل مسلم، وانسجاماً مع مبادئ الدين الإسلامي قام صلاح الدين والأيوبيون من بعده ببناء المدارس التي تشكل القاعدة الأساسية لنشر العلم وبثه بين أفراد الشعب على مختلف طبقاته، وأقبل الناس على طلب العلم تلبية لقوله تعالى: *يَرفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا منكُم والذينَ أُوتُوا العلمَ درجات*. **المجادلة**:١١. وقوله تعالى: *قل هل يستوي الذينَ يعلَمونَ والذينَ لا يَعلَمُونَ*. **الزمر**:٩.



قلعة صلاح الدين بالقاهرة قديماً

ومن الأمثلة التي تبين حرص أهل هذا العصر من مختلف الشرائح على بناء المدارس لغرض نيل الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى: قيام الفقيه ضياء الدين المقدسي الحنبلي الحافظ (ت٦٤٣هـ) ببناء المدرسة الضيائية المحمدية، وقد وقف عليها أوقافاً كثيرة، ووفر لها ما تحتاج إليه من الكتب، وقد أعانه أهل الخير على إتمامها(١) وما مساعدتهم له إلا لإحساسهم أن بناء المدارس من أفضل أعمال البر والإحسان.

وقام صارم الدين قايماز النجمي (ت ٥٦٩هـ) الذي كان مسؤولاً عن أمر مخيم صلاح الدين وبيوته، ببناء المدرسة «القيمازية»، وكان من عادة صلاح الدين إذا فتح بلداً سلمه إليه، واستأمنه عليه، ووظف صارم الدين الأموال التي حصل عليها في أعمال الخير وفي التصدق على الفقراء والمحتاجين حتى إنه تصدق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عيناً(٢) وساهم كذلك في بناء المدرسة السابقة الذكر.

وأنشأت خاتون بنت معين الدين أنر (ت٥٨١هـ) زوجة نور الدين محمود، ثم صلاح الدين من بعده، المدرسة الخاتونية الجوانية، وهي من أعفّ النساء، وكانت متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها أمر نافذ ومعروف، وصدقات ورواتب للفقراء وإدرارات، وبنت للفقهاء وطلبة العلم بدمشق مدرسة ورباطاً (٣). فبناء المدارس كان جزءاً من أعمال الخير التي اعتادت القيام بها.

وزاد الاهتمام بنشر التعليم لأن الصراع في هذا العصر لم يكن صراعاً عسكرياً فحسب، بل كان صراعاً سياسياً واقتصادياً وحضارياً ودينياً، وإذا كان الإنسان هو الدعامة الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة الإسلامية، فلابد من إعداده إعداداً جيداً، شاملاً ومتكاملاً، ليكون قادراً على مواجهة الزحف الصليبي، فبناء الإنسان لا يقل أهمية عن الإعداد العسكري، ومما لاشك فيه أنهم ركزوا في تدريسهم في الآيات

القرآنية التي تتحدث عن الجهاد وأهميته، ومكانة المجاهد والشهيد في الإسلام وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، ويروون للنشء قصص أبطال المسلمين التي تحبب الجهاد إليهم، وتعمق روح الجهاد في نفوس الطلبة، وقد تميزت هذه الفترة بتأليف الكتب التي تتحدث عن الجهاد وفضائله، كما فعل ابن شداد الذي وضع كتاباً في الجهاد جمع فيه كل الآيات التي تحدثت عن الجهاد وفضله وأهميته، وكل الأحاديث التي ورد فيها ذكر للجهاد. وكان الملك الأفضل ووالده يطالعان هذا الكتاب(٤)، وقد جمع ابن عساكر أربعين حديثاً في الجهاد(٥)، دفعه إلى جمعها هذا الصراع العنيف بين المسلمين والصليبيين في عهده.

والأيوبيون يريدون من وراء ذلك بيان مفهوم الجهاد في الإسلام، وفوائده للأمة الإسلامية، وذكر المخاطر التي تعود على الأمة الإسلامية إذا ما تخلت عن الجهاد. ويطمحون كذلك إلى بث روح إسلامية جديدة في النفوس، تمكنها من التصدي لهذه الحملات الصليبية المتتابعة.

وقد خشي الأيوبيون أن يدفع إحساس الناس بالخطر الداهم المحيط بهم باستمرار، نتيجة للصراع العسكري الدائم، إلى الشعور باليأس، وكراهية الحياة، والانعزال عن المجتمع، أو القيام بأعمال عنف نتيجة لهذا التوتر المستمر، وهذا بدوره يؤدي إلى اضطراب في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ ولهذا استخدم الأيوبيون ما يسمى بالتعليم السياسي، وهو فتح المدارس، وأخذ برامج دراسية تعيد الثقة بالمجتمع والدولة من خلال تدريس مذهب أهل السنة، وتشجيع الناس والطلاب على التمسك بتقاليد الإسلام وقيمه، واستبعاد كل ما يتعارض مع القيم الإسلامية(٦)؛ أي هم يريدون توحيد الجبهة الداخلية وتدعيمها للتصدي للخطر الخارجي.

نشاط الحركة العلمية في هذا العصر كان نشاطاً جماعياً ساهم فيه كل من يستطيع ذلك؛ لأن الناس كانوا يحترمون كل من له دور في ازدهار الحركة العلمية

نشر المذهب السني

وبناء المدارس من أجل نشر المذهب السني هو جزء من الدافع الديني، ولو لم يكن لنشر المذهب السني في هذا العصر دلالة خاصة، لما أفردته بالذكر، وجعلته سبباً قائماً بذاته. ولما جاء الأيوبيون إلى مصر وجدوا الفاطميين قد نشروا لمدة قرنين من الزمان المذهب الشيعي، فكان لزاماً عليهم وهم يتبنون المذهب السني، إزالة معالم المذهب السابق، ونشر مذهبهم فأنشؤوا جملة من المدارس عنوا فيها بنشر الحديث النبوي الشريف، وفقه الأئمة الأربعة، ولا سيما فقه الشافعية.

ويمكن تسمية ما قاموا به حملة تطهير دينية وثقافية من الممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر، وقد بدأ صلاح الدين محاربة المذهب الشيعي منذ أن كان وزيراً عند الفاطميين، إذ لم تمض أشهر قليلة على وزارته حتى قام بفتح المدارس السنية ومنها: الناصرية والصلاحية لأتباع المذهب الشافعي، والقمحية للمالكية والسيوفية للحنفية.

وقد تمت الاستفادة من قصور الفاطميين وآثارهم في بناء المدارس، جاء في كتاب «الروضتين»: «كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة، فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين وخمسمئة، وعمل في النصف من المحرم دار الغزل مدرسة للمالكية»(٧). ففي غضون أشهر قليلة حوّل صلاح الدين معلمين من معالم الدولة السابقة إلى مدارس لتدريس المذهب السني.

وسار الأيوبيون على نهج صلاح الدين، فقد اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه - وهو ابن أخي صلاح الدين - منازل العز بمصر، وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضتين وحمام الذهب وغيرها من الأملاك ووقفها عليها(٨). ومما يحمد للأيوبيين تحويلهم ممتلكات العهد البائد إلى مراكز تشع علماً وفكراً.

وأنشأ الملك الصالح نجم الدين على جزء كبير من


قلعة صلاح الدين بالقاهرة بعد التجديد

أرض القصر الفاطمي الكبير مدرسة كبرى عُرفت بالمدرسة الصالحية، تم بناؤها في سنة (٦٤١هـ) وجعلها ذات أواوين أربعة، لكل مذهب إيوان، وتمتاز هذه المدرسة بأنها أول مدرسة أنشئت بمصر للمذاهب الأربعة معًا(٩). ومن المفارقات أن تصبح أخصّ ممتلكات الفاطميين مراكز لنشر المذهب السني.

ولم يقتصر بناء المدارس من أجل نشر المذهب السني على الأيوبيين، فقد ساهم الأمراء والفقهاء والنساء والعتقاء وعامة الناس في بنائها، ومن الأمثلة على ذلك:

وقف جمال الدين بن يغمور الباروقي، المدرسة اليغمورية الحنفية، وهو من أعيان الأمراء، ولي نيابة مصر، ونيابة دمشق في عهد الملك الصالح أيوب(١٠)، وتخصصت هذه المدرسة في تدريس المذهب الحنفي، كما هو ظاهر من اسمها.

وبنى الشيخ أبو عمر بن قدامة محمد بن أحمد المدرسة العمرية، وهو أحد رجال صلاح الدين، وكان يحضر الغزو معه، ووقفها على فقه الحنابلة، مما يدل على شدة إخلاص رجال هذا المذهب، وحبهم لنشره وإذاعته بين الناس، وصار خريجوها من أعيان المذهب ووجوه الناس. وأنشأ الفقيه الواعظ شيخ الحنابلة بالشام، شرف الإسلام عبدالوهاب بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري، المدرسة الشريفية ووقفها على أتباع المذهب الحنبلي(١١). ومَن أولى من شيخ الحنابلة ببناء مدرسة لمذهبه؟!.

ووقفت الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح (ت ٦٥٣هـ) المدرسة العامة على الحنابلة، وكانت سيدة فاضلة لها تصانيف، وبلغ حبها للمذهب الحنبلي أن شجعت ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب على وقف المدرسة الصاحبية على الحنابلة أيضًا(١٢)؛ فهي لم تكتف ببناء مدرسة، وإنما شجعت غيرها على فعل الأمر نفسه.

ووقف ركن الدين منكورس (ت٦٣١هـ) عتيق فلك الدين سليمان العادي أخي الملك العادل لأمه، المدرسة الركنية الجوانية الشافعية، وقام أيضًا ببناء المدرسة الركنية الحنفية البرانية(١٣). ويتضح لنا أنه لم يكن متعصبًا لمذهبه، فقد وقف المدرسة الأولى على الشافعية، وبنى الثانية لتدريس المذهب الحنفي.

وقد لاحظنا من خلال عرضنا للأمثلة السابقة أن باني المدرسة أو واقفها كان يحدد المذهب الذي سيدرس في مدرسته، ولكن بعض المدارس كانت مشتركة بين مذهبين، ومن الأمثلة على ذلك:

المدرسة الدماغية التي أنشأتها زوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلي، وهو من أصدقاء العادل، وجعلتها مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها أوقافاً. ومن المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية: العذراوية، والأسدية، والمقصورة الحنفية بالجامع، والظاهرية البرانية الشافعية والجوهرية الحنفية(١٤) وهذا يعني أنهم لم يكونوا متعصبين لمذهب واحد، وإن كانوا متحمسين لمذهبهم ونشره بين الناس، ولكن هذه الحماسة لم تمنعهم من تدريس المذاهب الأخرى.

ومن الأمثلة الطريفة التي ينبغي أن تذكر في هذا المجال أن شرف الإسلام عبدالوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الحنبلي عبدالواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي (ت ٥٣٦هـ) شيخ الحنابلة بدمشق قد وقف المدرسة الحنبلية الشريفة على أتباع المذهب الحنبلي، ومن خلال تتبعي لأسماء الأشخاص الذين تولوا التدريس فيها لاحظت أن كلاً من: بهاء الدين الشيرازي (ت ٥٤٥هـ)، وسديد الدين الشيرازي (ت ٥٨٠هـ) ونجم الدين الشيرازي (ت٥٨٦هـ)، وعز الدين الشيرازي (ت٥٨٦هـ)، وشهاب الدين الشيرازي (ت٦١٩هـ)، وناصح الدين الشيرازي (ت ٦٣٤هـ)، وشمس الدين الشيرازي (ت٦٤١هـ)، وسيف الدين الشيرازي (ت٦٣٢هـ) قاموا بالتدريس فيها مما يعني أن هذه الأسرة أسرة علم، وتتوارث أمر التدريس في هذه المدرسة.

وفيما يتعلق بالمذهب المالكي فلم يجد اهتماماً به كما هو شأن المذاهب الأخرى، يظهر هذا من قلة عدد المدارس التي بنيت لتدريسه، فقد حدثنا النعيمي عن أربع مدارس(١٥) خُصصت لتدريسه، بنى اثنتين منها صلاح الدين، وهما الزاوية المالكية، والمدارس الصلاحية، وهذه المدرسة غير المدرسة الصلاحية التي وقفها للشافعية.

وقد اهتم بهذا المذهب العلماء الوافدون إلى بلاد الشام ومصر، ونظرة على أسماء من تولوا التدريس في الزاوية المالكية، تؤكد ذلك، ومنهم: الشيخ جمال الدين الشريشي، ومجد الدين أبو بكر التونسي، وعلي بن علوش بن عبدالله المغربي، والشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن المراكشي، والشيخ أبو الوليد ابن الحاج الإشبيلي المالكي، والإمام أبو الوليد محمد بن أبي القاسم بن الحاج التجيبي القرطبي(١٦)، وغيرهم. فالأسماء تدل أنهم قدموا من شمال إفريقية ومن الأندلس. وهذا دليل على مساهمة هؤلاء العلماء في النشاط الفكري والعلمي الذي كان مزدهراً في العصر الأيوبي.

أما المذهب الحنفي فقد وجد اهتماماً مميزاً من قبل الملك المعظم عيسى الذي اشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة وبرع فيه، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات مستعيناً بغيره من العلماء، وكان


صورة تخيلية للكتّاب في الماضي

محباً لمذهبه مغالياً فيه. قيل إن أباه قال له: كيف خالفت أهلك، وصرت حنفياً؟ قال: ياخوند، ألا ترضون أن يكون منكم واحد مسلماً؟ وبلغ من حبه لهذا المذهب أنه جعل جائزة بمقدار مئتي دينار لمن يحفظ الجامع الكبير(١٧) وبنى المدرسة المعظمية لأتباع هذا المذهب.

ويمكننا القول: إن الدافع إلى بناء المدارس من أجل نشر المذهب السني كان سياسياً في بادئ الأمر، إذ كان الأيوبيون يسعون إلى تأمين الولاء الروحي لهم، وتدعيم سلطتهم السياسية، وتثبيت أركان المذهب السني عن طريق بثّه بين الناس، وبخاصة النشء منهم وطلبة العلم؛ لأن هؤلاء الطلبة بعد تخرجهم سينخرطون في الحياة العامة، وسيؤثر كل منهم في مجتمعه حسب وظيفته؛ وهذا يعني أن هذه المدارس لم تكن دينية سنية فحسب، بل كانت مراكز لتدريب طبقة جديدة من رجال الإدارة، والموظفين السنيين على إتقان العلوم العربية والدينية(١٨). والانبعاث السني لم يكن يرمي إلى استئصال التشيع من حيث قوته السياسية فقط، بل كان يركز في القضاء على الشيعة لكونهم أحد عناصر التفكك في الدولة(١٩)، وكما قلنا سابقاً، فقد حرص الأيوبيون على توحيد الجبهة الداخلية.

انسجاماً مع مبادئ الدين الإسلامي قام صلاح الدين والأيوبيون من بعده ببناء المدارس التي تشكل القاعدة الأساسية لنشر العلم وبثه بين أفراد الشعب على مختلف طبقاته

التصوف

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى انتشار المدارس في هذا العصر، بناء المدارس الخاصة بالمتصوفين؛ لأن التصوف شاع وانتشر في هذا العصر لأسباب شتى منها: تشجيع الحكام للمتصوفة للوقوف في وجه المذهب الإسماعيلي، والعمل على نشر الثقافة السنية، وقد أقاموا الخوانق والزوايا والربط، ووقفوا عليها أوقافاً كثيرة(٢٠).

وهذا يعني أن التصوف قد تطور وأصبح عاماً وموضوعاً للدرس، إلى جانب كونه سلوكاً، وفيه اتجاهات: اتجاه فردي فلسفي كان يمثله سلطان العاشقين ابن الفارض، والثاني جماعي سني، وهذا الاتجاه هو الذي اهتم به الأيوبيون وهيؤوا له ما يحتاج إليه من الخوانق والزوايا، مما شجع عدداً من متصوفة العراق والشرق والأندلس على القدوم إلى بلاد الشام.

ومما يدل على اهتمام صلاح الدين بنشر العلم وبالمتصوفة قيامه بإنشاء المدرسة الصلاحية في بيت المقدس بعد تحريره مباشرة؛ لتكون مدرسة للفقهاء الشافعية، وبنى رباطاً للصلحاء الصوفية(٢١) ووقف عليهما وقوفاً كثيرة، ووقف نصف دار الاسبتار رباطاً للصوفية وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة(٢٢).

ونلاحظ أنه وفر للمدرسة وللرباط كل ما يحتاجان إليه من الأوقاف على حد سواء.

وكانت الخانقاه الصلاحية مستقراً للطلاب الذين كانوا يشتغلون بالعلم في المدرسة الصلاحية، وجمع أولئك الفقهاء بين الاشتغال بالعلم في المدرسة الصلاحية والتصوف - علماً وسلوكاً - بالخانقاه الصلاحية(٢٣).

وقد ساهم بعض شيوخ المتصوفة في الحركة الفكرية التي كانت مزدهرة في العصر الأيوبي، عن طريق قيامهم بالتدريس في المدارس التي أنشأتها الدولة. وفيما يأتي عرض لبعض الأمثلة:

ومن الذين تولوا التدريس في المدرسة الفلكية العلامة برهان الدين المراغي (ت٦٨١هـ) ودرس بالمدرسة الفخرية أيضاً، وكان زاهداً متعففاً عابداً متصوفاً، وعرضت عليه المناصب فرفضها(٢٤) لزهده وصلاحه، ولكنه قام بالتدريس، وهذا يدل على أنه لم يكن منعزلاً عما يجري في مجتمعه.

ودرّس محيي الدين بن الحرستاني (ت٦٨٢هـ) في المدرسة الغزالية، ودرّس بالمجاهدية، وكان متصوفاً حسن الديانة، كما وصفه معاصروه. وحضر جنازته نائب السلطة وخلق كثير(٢٥). وفي هذا دليل على مبلغ تقديرهم للعلم والعلماء.

وتولى إمامة المدرسة الكلاسية أحمد بن محمد بن الخلاطي الصوفي، وكان ذلك في الأيام الصالحية النجمية، وبقي فيها إلى أن توفي في سنة ٦٧١هـ(٢٦).

ولم أتحدث عن الخوانق والزوايا والربط التي كانت دور عبادة وعلم، وقد كان تُدَرَّس فيها العلوم الشرعية واللغة العربية بالإضافة إلى تدريس التصوف علمًا وممارسته سلوكًا، وكانت بعض الزوايا تسمى مدارس، ومن الأمثلة الدالة على ذلك الزاوية الأمينية أو المدرسة الأمينية والمدرسة المالكية أو الزاوية المالكية حتى لا يطول البحث.

دور الأسرة الأيوبية

وتميز هذا العصر بكثرة المدارس التي أنشئت فيه، وقد بدأ ذلك - كما قلنا سابقًا - صلاح الدين الذي بنى المدارس في مصر عندما كان وزيرًا عند الفاطميين. واستمر بذلك عندما آل الحكم إليه، ومن أوائل الأعمال التي قام بها بعد تحرير بيت المقدس قيامه بإنشاء المدرسة الصلاحية، وكان صلاح الدين المثل الأعلى لأفراد أسرته الذين ساروا على نهجه، وقاموا ببناء المدارس التي كانت غالبًا تنسب إلى أسمائهم، ومن الأمثلة الدالة:

قيام الملك المظفر نور الدين عمران ابن الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ابن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ببناء المدرسة الأمجدية(٢٧). ومَن لم يتسنَّ له بناء مدرسة كان يقف الأوقاف على المدارس كما فعل الملك الصالح أبو الجيش إسماعيل بن الملك العادل الذي وقف الأوقاف الكثيرة على المدرسة الصالحية(٢٨)، مساهمة منه في توفير المستلزمات التي تمكّن المدرسة من أداء وظيفتها.

وشاءت الأقدار أن يتم بناء المدرسة العادلية الكبرى في عهد الملك المعظم ابن الملك العادل، ولم يكتف ببنائها بل قام بوقف الأوقاف الكثيرة عليها؛ ومما هو جدير بالذكر أن ثلاثة حكام تقاسموا بناء هذه المدرسة؛ إذ بدأ نور الدين زنكي ببنائها، ولكنه توفي قبل تمامها، ثم تابع بناءها الملك العادل سيف الدين الذي وافاه الأجل قبل تمامها. وحدث الأمر نفسه مع المدرسة العزيزية التي بدأ بناءها الملك الأفضل، ثم أتم بناءها من بعده الملك عزيز عثمان بن صلاح الدين. ومما هو جدير بالذكر وجود مدرسة ثانية تحمل الاسم نفسه، لكن الذي قام ببنائها الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل(٢٩). ومن المعروف أن المدارس كانت تنسب إلى اسم بانيها؛ ولهذا لا غرابة أن نجد مدرستين أو أكثر تحمل الاسم نفسه.

الدافع إلى بناء المدارس من أجل نشر المذهب السني كان سياسيًا في بادئ الأمر، إذ كان الأيوبيون يسعون إلى تأمين الولاء الروحي لهم، وتدعيم سلطتهم السياسية

وقد ساهمت نساء الأسرة الأيوبية في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها، وكانت مساهمتهن واضحة في هذا المجال، وهذا يعني أنهن قد ساهمن في نشاط الحركة الفكرية في هذا العصر. وفي ما يأتي عرض لبعض المدارس التي قمن ببنائها:

بنت والدة الملك الصالح المدرسة الشامية البرانية (الشافعية) وقيل: أنشأتها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، وقيل لها المدرسة الحسامية أيضًا، نسبة إلى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين، وهي من أكبر المدارس وأعظمها، وأكثرها فقهاء وأوقافًا. وبنت أيضًا المدرسة الشامية الجوانية(٣٠). وهذا يدل على أن للمرأة شأنًا في بناء المدارس، ووقف الأوقاف عليها.

وأنشأت خاتون بنت معين الدين أنر، زوجة نور الدين محمود، ثم زوجة صلاح الدين من بعده المدرسة الخاتونية الجوانية، ووقفتها على الحنفية، والخانقاه التي بظاهر دمشق(٣١). ويتضح لنا من النص السابق، أن للمرأة مطلق الحرية في بناء ما تشاء من المراكز التعليمية، وفي تحديد المذهب الذي يُدرّس فيها.

وقامت عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب



فوّض السلطان حسام الدين إلى الأمير علم الدين سنجر عمارة جامع ابن طولون بالقاهرة

الدين، صاحب ماردين، بإنشاء المدرسة الماردانية، وهي زوجة السلطان الملك المعظم، وكان ذلك سنة عشر وستمئة، ومما يدل على مقدار عنايتها بشأن هذه المدرسة أنها خصصت لوقفها الكثير من الأوقاف منها: بستان جوار الجسر الأبيض، وبستان آخر بجوار المدرسة، وثلاثة حوانيت بالجسر المذكور والأحكار(٣٢). فهذه الأوقاف تؤمن الاستمرارية لهذه المدرسة.

وأنشأت زهرة خاتون بنت الملك العادل المدرسة العادلية الصغرى، وشرطت للمدرسة مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبواباً وقيّماً وعشرين فقيهاً(٣٣).

وهذا يعني أن من صلاحيات باني المدرسة تحديد مايراه مناسباً من الشروط لضمان أداء وظيفتها التعليمية، حتى لو كان بانيها امرأة.

وأنشأت الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة العذراوية التي قامت بتدريس المذهبين الشافعي والحنفي. وأنشأت بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل في سنة أربع وخمسين وستمئة المدرسة المرشيدية(٣٤).

ومن نساء الأسرة الأيوبية اللواتي ساهمن في بناء المدارس: زمر خاتون، وربيعة خاتون، وبنات الملك العادل: مؤنسة خاتون، وزهرة خاتون، وضيفة خاتون، وزوجة الملك الأشرف موسى، وابنة المظفر صاحب حماة، وغيرهن الكثيرات.

ومن الأمثلة السابقة اتضح لنا حجم مشاركة النساء في الحركة الفكرية التي ازدهرت في هذا العصر، وقد لمس ذلك ابن جبير عندما زار مدينة دمشق فقال: «ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار مَنْ تَأْمُرُ ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق عليها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف»(٣٥). فالمرأة والرجل على حد سواء ساهما في ازدهار الحركة التعليمية في هذا العصر.

الخدم والعتقاء

ولم يقتصر أمر إنشاء المدارس ووقفها في هذا العصر على الأحرار والسادة وأفراد الأسرة الحاكمة، بل ساهم العبيد أو الخدم والعتقاء منهم في بناء المدارس، وهذه الميزة تحسب للأسرة الأيوبية، وللدين الإسلامي الذي يرد لهذه الفئة إنسانيتها وكرامتها، فعند تحريرها تستطيع فوراً أن تمارس دورها في الحياة العامة، وفيما يأتي عرض لبعض الأمثلة:

قام صارم الدين أزبك مملوك قايماز النجمي عتيق الست الجليلة عصمة الدين عذراء ابنة شاهنشاه ببناء المدرسة الصارمية، وكان ذلك في سنة ٦٢٢هـ، وخصصها لتدريس المذهب الشافعي، وبنى أيضًا دار الحديث الأشرفية(٣٦).

وبنى الطواشي شبل الدولة الحسامي في سنة ٦٢٢هـ المدرسة الشبلية البرانية، وحوّل منزله إلى خانقاه للصوفية، ووقف عليهما وقفًا كثيراً، كما أنه بنى المدرسة الشبلية الجوانية، ولما فكرت سيدته ست الشام ببناء المدرسة الشامية البرانية اعتمدت عليه في بنائها؛ لأنه كان أهلاً لثقتها؛ فهو معروف بتدينه وصلاحه وبعد نظره(٣٧)، مما جعله موضع ثقة الملوك. وهذا يدل على أن المرأة في العصر الأيوبي كانت تحتل مكانة عالية، ولها دور بارز في الحياة العامة في هذا العصر، فهي تعتق العبيد، وتبني المدارس، وتقف عليها الأوقاف، وبذلك تكون قدوة حسنة للنساء من بعدها.

وأنشأ الأمير ركن الدين منكورس الحنفي الفلكي - غلام فلك الدين أخي الملك العادل لأمه - المدرسة الركنية البرانية، ووقف عليها أوقافًا كثيرة، وعرف عنه كثرة تصدقه على الفقراء والمحتاجين، وقلة الكلام(٣٨).

أما المدرسة الإقبالية فقد اختُلف في شأن من بناها، وتعددت الآراء في هذا المجالَ ولا يعنينا هذا الآن، والذي يهمنا أن أحد عتقاء الأسرة الأيوبية هو الذي قام ببنائها، سواء كان جمال الدين أو جمال الدولة عتيق ست الشام أو جمال الدين خادم السلطان صلاح الدين، وقام كذلك بوقف الأوقاف الكثيرة على مدرستين في دمشق، الأولى لتدريس المذهب الحنفي، والثانية لتدريس المذهب الشافعي عرفتا بالإقباليتين(٣٩). وهذا دليل على أن المملوك بعد إعتاقه يُعطَى حريته كاملة، ومن ذلك تحديد المذاهب التي تدرس في المدارس التي يبنيها.

ومن الذين ساهموا في بناء المدارس ما عُرف بالأستادار، ويقصد به المسؤول عن أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان والنفقة والكسوة(٤٠). وقد أنشأ أستادار الملك المعظم عز الدين أيبك المعظمي عدداً من المدارس منها: المدرسة العزية البرانية في سنة ٦٢٦هـ، وأنشأ كذلك المدرسة العزية الجوانية، ومن الذين درسوا فيها شمس الدين سبط ابن الجوزي، وهذا الأمر يعلي من شأن هذه المدرسة(٤١). ولمّا عرف عنه كرمه ورجاحة عقله، عينه الملك نائباً على صرخد، وأظهر نشاطًا وكفاية.

ساهم بعض شيوخ المتصوفة في الحركة الفكرية التي كانت مزدهرة في العصر الأيوبي، عن طريق قيامهم بالتدريس في المدارس التي أنشأتها الدولة

وأنشأ جمال الدين أقوش الصالحي النجمي، المدرسة النجمية، وقد أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وجعله من أكابر الأمراء، وولاه أستداريته، ثم استنابه بالشام تسع سنين، وأظهر خلالها خبرة وفضلاً. وعُرف عنه حبه للعلم، وتقديره للعلماء، وكثرة التصدق(٤٢).

وبنى خازندار صلاح الدين الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبدالله القصري المدرسة الميمونية. والخازندار هو المسؤول عن خزائن الأموال السلطانية والخلع والتشاريف السلطانية(٤٣).

ويمكننا القول بعد قراءة الأمثلة السابقة: إن نشاط الحركة العلمية في هذا العصر كان نشاطًا جماعيًا

ساهم فيه كل من يستطيع ذلك؛ ولأن الناس كانوا يحترمون كل من له دور في ازدهار الحركة العلمية؛ ولهذا لا نستغرب أن يقبل الخدم والعتقاء على بناء المدارس، ولا يمكننا إغفال الدافع الديني في هذا المجال أي طَلَب الأجر والثواب، وقد عرف عن هؤلاء تدينهم وصلاحهم وتقواهم. بدليل الأمثلة السابقة التي ذكرتها.

كبار رجال الدولة وموظفوها

وقد كان صلاح الدين وأسرته مثلاً أعلى لمن حولهم من الوزراء، والأمراء وقادة الجيش، وموظفي الدولة، والأثرياء من الناس، والتجار والفقهاء...إلخ ممن كانوا يحيطون بالأسرة الأيوبية، فهم قد ساروا على النهج نفسه الذي اختطه نور الدين من قبل، وتباروا في ما بينهم في إنفاق أموالهم على بناء المؤسسات التعليمية ومنها المدارس، ووقف الأوقاف الكثيرة عليها، وهذا يعني أن بناء المنشآت العلمية في هذا العصر لم يقتصر على الفئة الحاكمة وحدها، وأدى هذا الصنيع إلى ازدهار الحركة الفكرية واستمرارها. وعندما أتى المماليك وجدوا الطريق أمامهم ممهداً، فأكملوا بناء المدارس ونشر العلم والثقافة بين الناس.

وفيما يأتي عرض لبعض الأمثلة التي تؤكد ما قلناه سابقًا، فقد قام القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ) ببناء مدرسة بالقاهرة للمذهبين الشافعي والمالكي، ومكتب للأيتام، ووقف على هذه المدرسة الأوقاف الكثيرة، ونقل إليها بعض كتبه، وكون فيها مكتبة ضخمة، قيل: إنها بلغت مئة ألف مجلد، وله أيضاً دار حديث عُرفت بدار الحديث الفاضلية(٤٤). ولم تقتصر فضائل القاضي الفاضل على قلمه، فها هو ذا يساهم مساهمة فعالة في خدمة الدولة الأيوبية بأمواله وعلمه وكتبه.

وأنشأ مجد الدين البهنسي (ت ٦٢٨) المدرسة البهنسية، وهو وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل. ومما يدل على عنايته الفائقة بهذه المدرسة أنه وقف عليها أوقافًا جيدة دارّة وجعل كتبه أيضاً وقفًا لها(٤٥).


مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين

وسار الأمراء على الدرب نفسه، وقاموا ببناء المدارس، ومن هؤلاء الأمراء:

الأمير شمس الدين بن المقدم (ت ٥٨٣هـ) الذي قام ببناء المدرسة المقدمية الجوانية، وكان من أعيان أمراء الدولتين النورية والصلاحية، وله تربة ومسجد وخان، وسار ابنه فخر الدين على نهجه، وقام ببناء المدرسة المقدمية البرانية(٤٦). واقتصر التدريس في المدرستين على المذهب الحنفي.

وبنى الأمير فخر الدين شركس الصلاحي (ت ٦٠٨هـ) المدرسة الجركسية، وهو أحد أمراء الدولة الصلاحية، ويروى اسمه جهاركس أيضًا، ولهذا تسمى بالمدرسة الجهاركسية، أيضاً وإليه تنسب قباب شركس بالسفح تجاه تربة خاتون، وهو الذي بنى القيسارية الكبرى بالقاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجداً، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في سائر البلدان في حسنها وعظمها وإحكام بنائها(٤٧).

وبنى الأمير علم الدين سنجر (ت٦٩٩هـ) المدرسة العلمية في سنة ٦٢٨هـ، ووقف دار الحديث الدوادارية، وكان ديّناً خيّراً عالمًا حافظًا لكتاب الله

تعالى، وفوض إليه السلطان حسام الدين لاجين عمارة جامع ابن طولون، وعمارة وقوفه، وقرر فيه دروس الفقه والحديث (٤٨). ويتضح لنا من الأمثلة السابقة أن الأمراء الثلاثة السابق ذكرهم اشتركوا في بناء المدارس وعرفوا بتدينهم بدليل قيامهم ببناء المساجد أيضًا.

ومن الذين ساهموا في النشاط العلمي المزدهر في العصر الأيوبي موظفو الدولة الذين وظفوا الأموال التي حصلوا عليها، فيما يعود بالخير العميم على بلادهم، وفيما يجلب لهم الثناء والتقدير، أي بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها. ومن الأمثلة على ذلك:

أنشأ صاحب اليمن عز الدين الزنجلي (ت٦٢٦هـ) المدرسة الزنجارية ويقال لها الزنجيلية، عندما قدم إلى بلاد الشام في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهي من أحسن المدارس. وله أوقاف مشهورة باليمن، ومدرسة في مكة المشرفة، ورباط في المدينة المنورة(٤٩). ونستطيع القول: إن نسبة المدارس إلى اسم بانيها ربما شجعت صاحب اليمن على بناء مدرسة تحمل اسمه في بلاد الشام.

وأنشأ ناصر الدين القيمري (ت ٦٦٥هـ) المدرسة القيمرية، ووقفها على القاضي شمس الدين علي الشهرزوري، وفوض إليه التدريس فيها، وإلى من يكون جديرًا بالتدريس من ذريته، واهتم بإتقان بنائها، ووضع على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها، ولم يعمل على شكلها، وقيل: كلفته أربعين ألف درهم(٥٠). وهذا دليل على حرصه على أن تظهر مدرسته في أبهى حلة.

ووقف محتسب دمشق جمال الدين بن كروس (ت٦٤١هـ) دار الحديث الكروسية والمدرسة الكروسية، وكان كَيِّسًا متواضعًا(٥١)، وليس من قبيل المصادفة أن يهتم ثلاثتهم بالمدارس التي بنوها، فهم من كبار رجال الدولة في العهد الأيوبي.

وفيما يتعلق بمساهمة الأثرياء والتجار في بناء المدارس، فلم تكن مساهمة فعالة، كما كان متوقعًا منهم في عصر ازدهرت فيه الحركة العلمية، ومن الأمثلة القليلة التي عثرت عليها، وتحدثت عن مساهمتهم في بناء المدارس ما يأتي:

قيام زكي الدين بن رواحة ببناء المدرسة الرواحية ووقفها على الشافعية، وفوض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها. وأنشأ جمال الدين الساوجي التاجر المدرسة الساوجية، ووقفها على الشريف كمال الدين حمزة الطوسي. وبنى تاجر من أصفهان المدرسة الأصفهانية، ودرس فيها جمال الدين الكافي، ثم من بعده الفقيه جمال الدين أحمد بن عبدالله المعروف بالمحقق(٥٢).



جانب من قلعة صلاح الدين في سورية التي شهدت بناء مدارس أيوبية متعددة

تقدير العلم والعلماء

لقد اهتم الأيوبيون، وعلى رأسهم صلاح الدين، بالعلم والعلماء، والدليل على ذلك قيامهم ببناء المدارس، وفتحها أمام عامة الناس لتلقي العلم فيها، ولا يمكن للمدارس أن تؤدي دورها إلا بتوفير أعضاء الهيئة التدريسية لها، والذين هم علماء أجلاء؛ لأن المدرس كان يختار من أفضل الناس وأعلمهم، وعلى سبيل المثال: من الصفات التي تمتع بها تقي الدين سليمان بن حمزة أنه كان من خيار الناس، وأحسنهم خلقًا، وأكثرهم مروءة(٥٣). وهذه الصفات جعلته

جديراً بالتدريس في دار الحديث الأشرفية البرانية، بالإضافة إلى براعته في الفقه والحديث النبوي الشريف، فهو يجمع بين حسن الخلق وحسن العلم.

ومن الصفات التي تحلى بها تاج الدين الفركاح (ت٦٩٠هـ) الذي تولى التدريس في دار الحديث الكروسية: أنه كان حسن العشرة، كثير الصبر والاحتمال والقناعة، والإيثار والتواضع، وحسن الخلق، والتدين وقيام الليل، والورع، وشرف النفس، وغير ذلك من الصفات الحسنة، وله تصانيف مفيدة تدل على تبحره في العلوم(٥٤). وما ذكرته سابقاً هو أمثلة فقط على الأخلاق الفاضلة التي كان يتمتع بها المدرسون والعلماء؛ ولهذا قدّرهم الأيوبيون وقربوهم، وحضروا مجالسهم، وبنوا المدارس لفضل بعضهم، وفوضوا إليهم أمر التدريس في مدارسهم، والإشراف على أوقاف المدارس ودور الحديث والقرآن الكريم التي بنوها.

ومن مظاهر تقدير الأيوبيين للعلم والعلماء ما رواه عبداللطيف البغدادي عما رآه أول مرة عندما قدم بلاد الشام، وحضر مجلساً لصلاح الدين حافلاً بأهل العلم، وأصحابه يتذاكرون أصناف العلوم، وكان صلاح الدين بينهم يحسن الاستماع، والمشاركة والتفقه، ويأتي بكل معنى بديع(٥٥). ومارواه ابن شداد أيضاً عن إنفاق صلاح الدين مئتين وعشرين ألف دينار على الأمراء والعلماء(٥٦)، ولهذا فليس من الغريب انتشار المدارس في عهده.

وكان أفراد الأسرة الحاكمة مثقفين ثقافة عالية، ويحيطون أنفسهم بالعلماء، ويجلونهم، ومن أبرزهم الملك المعظم عيسى الذي تلمذ لتاج الدين الكندي، وقرأ عليه الكتاب لسيبويه، وشرحه للسيرافي، وأخذ عنه الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي، وحفظ القرآن، وكان يحفظ المفصّل للزمخشري، والإيضاح في النحو، وجعل لمن يحفظ المفصّل للزمخشري مئة دينار، ولمن يحفظ الإيضاح ثلاثين ديناراً، سوى الخلع. وكان يحب العلماء ويكرمهم ويناظرهم؛ ولهذا نفق سوق العلم في زمنه، وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأعطاهم(٥٧). ومن الطبيعي أن يهتم ببناء المدارس أيضاً. ومن الأيوبيين الذين تلمذوا لتاج الدين الكندي كل من: فروخشاه وابنه الملك الأمجد، ثم تردد إليه بدمشق الملك الأفضل وأخوه الملك المحسن(٥٨)، مما يعني أن بناء أفراد الأسرة الأيوبية للمدارس لم يكن تقليداً شكلياً، وإنما كان نابعاً من اهتمام حقيقي بالعلم وأهله. وكان الملك الكامل محبّاً للعلم والعلماء، مُؤثِراً مجالستهم، مشْغُوفاً بسماع الحديث النبوي الشريف، وقد حصل على الإجازة في الحديث، وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحِن بها، فمن أجاب عنها قدّمه، وحظي عنده. ويقال إن الإمبراطور فردريك أرسل إليه أسئلة في الهندسة والطب والرياضيات للإجابة عنها، فعرضها على عالم من العلماء، فكتب جوابها إلى الإمبراطور(٥٩) المذكور، وهذا يدل على أن الاشتغال بأمور قتال الصليبيين لم يحل دون الاهتمام بالعلم والتفرغ في سبيل طلبه.

ساهمت نساء الأسرة الأيوبية في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها، وكانت مساهمتهن واضحة في هذا المجال، وهذا يعني أنهن قد ساهمن في نشاط الحركة الفكرية في هذا العصر

ومن مظاهر تكريم الأسرة الأيوبية للعلماء واهتمامهم بهم أنهم كانوا يحضرون افتتاح بعض المدارس، ويستمعون إلى أول درس يُلقى فيها، ومن الأمثلة الدالة على ذلك: حضور الملك المعظم الدرس الأول الذي ألقي في سنة ٦١٩هـ في المدرسة العادلية الكبرى فجلس في الصدر، وإلى شماله القاضي جمال الدين المصري، وعن يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري، ويليه فخر الدين ابن عساكر شيخ الشافعية،

ثم القاضي شمس الدين الشيرازي، ثم محيي الدين بن الزكي، وتحت المدرس سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم نجم الدين خليل قاضي العسكر، وغير هؤلاء من كبار أعيان البلد(٦٠). وألقي هذا الدرس بعد تمام بناء هذه المدرسة.

ولما تم بناء المدرسة الناصرية الجوانية التي أمر بإنشائها الملك الناصر يوسف، حضر الملك الناصر والأمراء والدوادار نجم الدين البادراني، وأعيان الشام، وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق أول درس ألقي فيها، وألقاه قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة(٦١)، وهذا يعني أنهم كانوا يقيمون احتفالاً بمناسبة انتهاء بناء المدارس وفتحها أمام طلبة العلم.

وقد قام بعض أفراد الأسرة الحاكمة ببناء المدارس تكريماً لفضل عالم من العلماء كما فعل ذلك الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل الذي قام ببناء دار الحديث الأشرفية البرانية للحافظ ابن الحافظ جمال الدين عبدالله بن تقي الدين عبد الغني المقدسي (ت ٦٢٩هـ)، وجعله شيخها، وقرر له معلوماً، فمات قبل فراغها(٦٢).

وقامت ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب ببناء المدرسة الصاحبة، لناصح الدين الشيرازي (ت ٦٣٤هـ) فدرس فيها، وكان يوماً مشهوداً. وقد حضرت الدرس من وراء الستر(٦٣)؛ وهذا دليل آخر يؤكد أن المرأة في هذا العصر مارست دورها في خدمة مجتمعها.

العلماء الوافدون

وقد استقطب الأيوبيون العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، بسبب اهتمامهم بالعلم والعلماء، وبنائهم المؤسسات التعليمية، وبخاصة المدارس التي ساهم العلماء الوافدون في التدريس فيها، وساهموا كذلك في حركة التأليف التي نشطت في هذا العصر، وعلى رأس العلماء الوافدين عبدالله بن أبي عصرون (ت ٥٨٥هـ) الذي ولد بالموصل، وتلمذ لمشايخها، ثم ارتحل إلى بغداد واتصل بعلمائها الأفذاذ، ثم سافر إلى واسط، والتقى قاضيها الشيخ أبي علي الفارقي، ولازمه مدة للقراءة عليه، وأخذ عنه فوائد «المهذب»، ثم عاد إلى الموصل، وتولى مهمة التدريس في مدارسها ومراكز العلم فيها، ثم ارتحل إلى سنجار، وأقام مدة فيها يزاول مهنة التدريس والإفتاء(٦٤). وطار صيته في الآفاق، فاستدعاه نور الدين، وقربه إليه، وأقام له جملة من المدارس في حلب ودمشق وحماة وحمص ومنبج وبعلبك عرفت باسم المدارس العصرونية(٦٥) وفعل الأمر نفسه صلاح الدين بعد وفاة نور الدين إذ قربه وأكرمه وقدره أحسن تقدير، وولاّه قضاء القضاة في جميع ممالك بلاد الشام الخاضعة لسلطته(٦٦) وكان ذلك سنة ٥٧٣هـ، ولو لم يكن جديراً بتولي هذا المنصب لما ولاه إياه صلاح الدين، كما أن تنقل ابن أبي عصرون في عدة بلدان في سبيل طلب العلم، ومن ثم التدريس، يعطينا فكرة عن المناهج التي كانت تدرس في ذلك الوقت، وعن شيوع الرحلة في طلب العلم.

استخدم الأيوبيون ما يسمى بالتعليم السياسي، وهو فتح المدارس، وأخذ برامج دراسية تعيد الثقة بالمجتمع والدولة من خلال تدريس مذهب أهل السنة، وتشجيع الناس والطلاب على التمسك بتقاليد الإسلام وقيمه

وقام عبدالله بن أبي عصرون ببناء مدرسة له في دمشق، بالإضافة إلى المدارس التي أنشأها له نور الدين، وفوّض إليه أمر التدريس فيها، وهذا يدل على مقدار تكريمه للعلم والعلماء، واحترامه لشخصية عبدالله المتميزة، ومكانته العلمية العالية، ولنا أن نتخيل أعداد الذين تلمذوا له. وهؤلاء كانوا يساهمون بدورهم في ازدهار الحركة الفكرية في بلاد الشام.

ومن العلماء الوافدين إلى بلاد الشام في عهد نور الدين العلامة قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري (ت ٥٧٨هـ) الذي تفقه في نيسابور

ومرو، ودرس بنظامية نيسابور نيابة، وورد بغداد، ونال مكانة عالية فيها، ثم قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ فلاقى الاهتمام والتكريم، ودرس في المدرسة المجاهدية ثم بالزاوية الغزالية، ودرس بالنورية والأسدية في حلب، ثم مضى إلى همذان وولي فيها التدريس مدة، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٦٨هـ، فدرس بالمدرسة الأمينية وبالغزالية، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية تكريماً له، ولكنه مات قبل أن يتم عملها، وقام الملك العادل أخو صلاح الدين بإتمامها، ووقف قطب الدين كتبه على طلبة العلم، ثم نقلت إلى المدرسة العادلية بعدما تمت(٦٧). ونستنتج من النص السابق أن قطب الدين لم يأت إلى هذه البلاد إلا بعد أن تمكن من العلوم، وبرز في هذا المجال، واكتسب خبرة عملية؛ لأنه تولى التدريس في مدارس نيسابور وهمذان وبغداد، وكان له دور مميز في تنشيط الحركة العلمية في بلاد الشام؛ لأنه درس في عدة مدارس فيها، وكان له خريجون تلمذوا له أينما حلّ، ولم يكتف بالتدريس فقام بوقف كتبه على طلبة العلم، وبلغ تقدير نور الدين له ولمكانته العلمية قيامه ببناء مدرسة كبرى لفضله، وقد سار الأيوبيون على نهج نور الدين، ونفذوا رغبة نور الدين في إتمام بناء هذه المدرسة.



نقل صلاح الدين المنبر إلى المسجد الأقصى

ومن مظاهر تكريم العلماء الوافدين أنهم كانوا يعاملون معاملة تليق بعلمهم وبمكانتهم، فقد عُهد إلى ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) بتولي منصب القضاء ونظر الأوقاف والجامع والمارستان، والتدريس في سبع مدارس هي: العادلية، والناصرية، والعذراوية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية(٦٨).

ويتضح لنا كذلك من النص السابق أن ابن خلكان عومل معاملة العلماء والمقيمين في البلد بدليل أنه تولى القضاء.

وقام تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ببناء مدرسة بمصر معروفة بمنازل العز للعلامة شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي(٦٩). وقد كانت له منزلة سامية عند الخاصة والعامة على حد سواء.

وأمر الملك الأشرف بتحويل دار الأمير قايماز النجمي إلى دار لتدريس الحديث في سنة ٦٢٨هـ، عرفت بدار الحديث الأشرفية، وجعل شيخها ابن الصلاح، وفوض إليه أمر المدرستين الأمينية والرواحية وكان أول من درّس في المدرسة الشامية البرانية، ودرّس أيضًا بالمدرسة الشامية الجوانية، وحضر الملك الصالح الدرس(٧٠) الأول الذي ألقي فيها.

ومن الذين قدموا إلى هذه البلاد زين الدين الزواوي (ت٦٨١هـ) الذي ولد ببجاية وقدم طلبًا للعلم، فقرأ القرآن الكريم بالإسكندرية على عيسى، وبدمشق على السخاوي، ولمّا برع في الفقه وعلوم القرآن ولي مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح، ودرس بالمدرسة الصالحية، وقرأ عليه عدد كثير، وولي القضاء تسعة أعوام(٧١).

وقدم تاج الدين الكندي (ت٦١٣هـ) إلى هذه البلاد ليكمل دراسته في دمشق ومصر، وسمع من العلماء فيها، ولما تميز وتفوق في العلم، ازدحم الطلبة ببابه، ومنهم المعظم عيسى الذي كان يأتي القلعة ماشياً إلى درب العجم - مكان سكن الشيخ - والمجلد تحت إبطه. وكان عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي صاحب بعلبك، ونائب دمشق من

أكابر أصحاب الشيخ تاج الدين الكندي(٧٢).

ولم يقتصر طلب العلم في هذا العصر على الخاصة، بل تيسر أمره للعامة أيضاً؛ وذلك لانتشار المدارس فيه، ولم يقتصر دور العلماء الوافدين على التدريس في المدارس، وعلى تأليف الكتب في مختلف العلوم، بل ساهم بعضهم في بناء المدارس، فنسبت إليهم، ومن هؤلاء:

جمال الدين الدولعي (ت ٦٣٥هـ) الذي بنى المدرسة الدولعية، وهو من مواليد الدولعية، من قرى الموصل، ورد دمشق شاباً، فتفقه على عمه الشيخ ضياء الدين بن عبدالملك الدولعي، خطيب دمشق وسمع منه، ثم ولي الخطابة بعد عمه، ودرس في الغزالية مدة من الزمن(٧٣).

ونجم الدين البادرائي (ت ٦٥٥هـ) الذي بنى المدرسة البادرائية، وكان هو أول من درّس بها، ثم ولده كمال الدين من بعده، وكان قد درّس بالمدرسة النظامية، وحدّث بحلب ودمشق ومصر وبغداد. وقد وقف على مدرسته أوقافاً حسنة دارّة، وجعل بها خزانة كتب نافعة(٧٤).

ومما سبق ذكره يتضح أن العلماء الوافدين قد ساهموا مساهمة فاعلة في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في العصر الأيوبي، وكان لسياسة الأيوبيين في استقطاب رجال الفكر والعلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي أثر واضح في تشجيع هؤلاء العلماء على القدوم إلى هذه البلاد حيث يجدون وسائل العيش الكريم موفرة لهم، مما يساعدهم على التأليف والإبداع، وأصبحت بلاد الشام ومصر ملتقى للعلماء القادمين من العراق والأندلس والمغرب وأصفهان وخراسان وغيرها من المدن والبلدان، ونظرة على أسماء العلماء الذين قدموا إلى هذه البلاد تؤكد صحة ما قلناه، ومنهم: العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، وابن شداد (ت٦٣٢هـ)، وجمال الدين الحصري، والخبوشاني (ت٥٨٧)، وشمس الدين الخوبي، وسيف الدين الآمدي (ت٦٣١هـ)، وابن مالك (ت٦٧٢هـ) والشاطبي (ت٥٩٠هـ)، وابن سيد الناس (ت:٧٣٤)، وأبو طاهر السلفي (ت٥٧٦هـ)، وعبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ)...إلخ.

توفير مستلزمات التعليم

لا يمكن لنهضة علمية أن تتم إلا بتوفير مستلزماتها، وهذا ما فعله الأيوبيون، فقد قاموا بإنشاء المدارس، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، واختاروا لها جلة العلماء، وأجروا عليهم وعلى طلبتهم الأرزاق، واهتموا بالطلبة الوافدين، ووفروا لهم كل ما يحتاجون إليه من مساكن وكتب وأموال، وقاموا بتوفير المكتبات الملأى بنفائس كتب العلم والأدب.

كان أفراد الأسرة الحاكمة مثقفين ثقافة عالية، ويحيطون أنفسهم بالعلماء، ويجلونهم، وهذا يعني أن بناء أفراد الأسرة الأيوبية للمدارس لم يكن تقليداً شكلياً، وإنما كان نابعاً من اهتمام حقيقي بالعلم وأهله

ومن مظاهر اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس ما ذكره أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) عن بناء المدرسة العادلية التي أقام فيها مع أسرته مدة طويلة، وألف فيها كتابه «الروضتين» قال: وبناها الملك العادل هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس(٧٥).

وهذا هو رأي ابن جبير أيضاً عندما تحدث عن المدرسة التي أمر صلاح الدين ببنائها عند قبر الإمام الشافعي قال: مدرسة لم يُعمر بهذه البلاد مثلها، ولا أوسع مساحة، ويُخيل لمن يتجول فيها أنها بلد مستقل بذاته، والنفقة عليها لا تحصى(٧٦). ولنا أن نتخيل مساحة هذه المدرسة وعدد الطلبة الذين طلبوا العلم فيها. والدور الذي أدته في ازدهار الحركة الفكرية.

وكانت الأوقاف توقف على المدارس لينفق منها على الأساتذة والمدرسين والمعيدين والطلبة حتى ينصرف الجميع إلى رسالتهم في جو من الاطمئنان وراحة البال. ومن الوقف السلطاني الذي قُرر عند بناء المدرسة الشامية البرانية، قدر ثلاثمئة فدان تمتد من قناة الريحانية إلى أوائل القبيبات إلى قناة حجيرا

ودرب البويضا، ومنه الوادي التحتاني وادي السفرجل، وقدره نحو عشرين فدانًا، ومنه ثلاثة كروم(٧٧).

أما وقف المدرسة الدماغية فكان يتكون من: قصر اللباد شرقي مقرى ثمانية أسهم، من أربعة وعشرين سهمًا، وهي الثلث من المزرعة الدماغية، والحصة من رجم الحيات، والحصة من حمام إسرائيل خارج دمشق، والحصة بدير سليمان من المرج، ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم شرقي قرية عرّاد وقبلي سقحب(٧٨).

أربعين دينارًا في كل شهر عن التدريس، وعشرة دنانير للنظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًا من الخبز في اليوم، وروايتين من ماء النيل في كل يوم، بينما حدد عشرة دنانير شهريًا للشيخ محيي الدين الجبتي عندما بنى المدرسة السيوفية(٧٩) وتوفير هذه الأموال يُهَيِّئ للمدرس سبل التفرغ من أجل العلم وتدريسه.

وما يلفت الانتباه أنه جرت العادة في هذا العصر، إذا مات الفقيه أو المعيد أو المدرس، وكان أبناؤه جديرين بتولي منصبه في المدرسة، كان يُخصص لهم



اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس بعد تحرير القدس

ومن النصين السابقين اتضح لنا أنهم كانوا يقفون الأوقاف الواسعة والكثيرة عند بناء المدرسة، ويهتمون بتحديد حدود الوقف ومقدار مساحته، لأنه المورد الرئيس الذي كان ينفق منه على التعليم، ولا يقل أمر الوقف أهمية عن بناء المدرسة فإذا لم يتوافر للمدرسة الواقف السخي لما استطاعت الاستمرار في أداء رسالتها. ومن الطبيعي أن يخصص جزء من أموال الأوقاف كرواتب للمعلمين الذين كانوا يحصلون على رواتبهم بشكل منتظم، وكان مقدار الراتب يعتمد على شهرة المعلم ومكانته العلمية والمدرسة التي يدرس فيها، وهذا يعني أن الراتب كان يتفاوت من معلم إلى آخر.

وعندما بنى صلاح الدين المدرسة الناصرية بالقاهرة، عيّن بها الشيخ نجم الدين الخبوشاني للتدريس، وشرط له أو لمن يشغل هذا المنصب من بعده

رواتب من مال الأوقاف، يظهر ذلك من خلال قراءتنا للشروط التي وضعها واقفو المدرسة الشامية الجوانية، فهم قد خصصوها من أجل الفقهاء والمتفقهة الشافعية، أما التدريس فيها فقد عهد إلى قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر أحمد ابن محمد بن علي القرشي إن كان حيًا، فإن لم يكن حيًا فعلى ولده، ثم ولد ولده، ثم نسله المنتسبين إليه ممن لهم أهلية التدريس، شرط أن يكونوا من أهل الخير والعفاف والسنة غير منسوبين إلى شر وبدعة(٨٠). فهم حريصون على حسن الخلق والكفاءة العلمية من جهة أخرى.

ولم يقتصر إعطاء الرواتب على المعلمين بل كان كل الموظفين ممن يعملون في المدرسة يأخذون رواتبهم من أموال الأوقاف، ويظهر ذلك من خلال

متابعتنا لما ورد في الأوقاف التي خصصت للمدرسة الشامية الجوانية، والتي شملت الإمام المصلي بالمحراب، والمؤذن بها، والقيّم المعدّ لكنسها ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها، وكل ما تحتاج إليه من بسط وشموع(٨١). أما الراتب الذي خصص للمدرس الذي يعمل في هذه المدرسة فكان غرارة من الحنطة، وغرارة من الشعير، ومن الفضة مئة وثلاثين درهم فضة ناصرية في كل شهر(٨٢).

وحدثنا بدر الدين الكناني المقدسي (ت ٧٣٣هـ) عن توفير الطعام للطلبة، وإقامتهم في المدارس، وعن أوقات الطعام، والاهتمام بأمر الطلبة المتزوجين(٨٣). وهذا يدل على اهتمامهم بأحوال الطلبة من الناحيتين العلمية والخلقية، ونتج من ذلك ازدياد إقبال الطلبة على طلب العلم؛ لأن أبواب المدارس كانت مفتوحة أمام طبقات الشعب يلجها من يشاء بمحض رغبته، ووفق ظروف حياته؛ فالمدارس تستقبل الطلبة بالمجان، وكانت تُخصص لهم الأموال. فعندما بنى صلاح الدين المدرسة الصلاحية «الناصرية» أجرى على الفقراء والقرّاء والفقهاء الجامكيات والجرايات(٨٤).

ولم يكن هذا الاهتمام خاصاً بالطلبة المقيمين، فقد وجد الطلبة الوافدون كل الاهتمام والرعاية من قبل السلاطين، فها هو ذا الملك الأفضل يقف في سنة ٥٨٩هـ أوقافًا على المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكرهم وأنثاهم وحجّاجهم، وفقهائهم وطلابهم الذين أخذوا يتوافدون إلى بلاد الشام - وبخاصة إلى القدس - من مختلف أقطار إفريقية الشمالية (٨٥) فنسب الحي إليهم فقيل: حيّ المغاربة.

من مستلزمات التدريس التي اهتم الأيوبيون بتوفيرها إمداد المدارس بالكتب، ووقف المكتبات على المدارس؛ لأن الركن الأساسي للنشاط العلمي في أي مكان وزمان إنما هو الكتب والمكتبات

وقد حدثنا ابن جبير عما رآه في بلاد الشام ومصر من اهتمام بالطلبة الوافدين من حيث: توفير المساكن لهم، والحمامات للاستحمام بها، والمستشفيات لعلاج المرضى منهم، ووجود الأطباء الذين يتفقدون أحوالهم باستمرار، حتى إنه دعا الطلبة المغاربة إلى القدوم إلى هذه البلاد لطلب العلم عندما قال: فمن شاء الفلاح فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام(٨٦). وعندما تصدر هذه الدعوة عن الرحالة ابن جبير فلها مدلولها فهو قد جاب الديار ونقب فيها، ووجد هذا أمرًا مميزًا لهذه الديار فذكره في رحلته.

ولهذا فليس من المستغرب أن تشيع الرحلة في طلب العلم، وكان من يرحل طلبًا للعلم يلقى رعاية كبيرة، وتوفر له كل المتطلبات اللازمة لطالب العلم؛ ولهذا كثر العلماء الوافدون إلى بلاد الشام ومصر، وقد ساهم هؤلاء مساهمة واضحة في ازدهار الحركة الفكرية في هذه البلاد، بالإضافة إلى العوامل السياسية التي كانت تمر بها البلاد الإسلامية في مشرق البلاد ومغربها من توالي الهجمات المغولية والصليبية، كانت تدفع الناس إلى الهجرة من بلد إلى آخر.

ومن الأمثلة التي تبين أن طالب العلم كان حرًا في اختيار البلد والشيخ والمكان، والعلم الذي سيتخصص فيه رحلة كل من: نجم الدين بن راجح الحنبلي ثم الشافعي (ت ٦٣٨هـ) الذي تولى التدريس بالمدرسة الصلاحية، وكان قد قرأ كتاب «المقنع» على مؤلفه موفق الدين بن عبدالله بن قدامة، واشتغل في مذهب الإمام أحمد، ثم سافر إلى بغداد وله سبع عشرة سنة، فسمع من ابن الجوزي، ورحل إلى همذان فأخذ عن الركن الطاوسي، ولازمه مدة حتى صار معيده، وبرع

في علم الخلاف، وصار له صيت بتلك البلاد ومنزلة رفيعة، ثم اشتغل في مذهب الشافعي، وعاد إلى دمشق، ودرّس بالمدرسة الشامية البرانية، وبالصالحية وبالعذراوية وبالصارمية(٨٧) فهو قد تنقل في عدة بلدان لطلب العلم أولاً، ثم التدريس ثانياً، كما أنه غيّر مذهبه من الحنبلي إلى الشافعي.

أما زين الدين الزواوي (ت ٦٨١هـ) الذي ولد في بجاية، ثم رحل إلى الإسكندرية وقرأ القرآن الكريم على علمائها، ومنها إلى دمشق حيث تلمذ للإمام السخاوي، ولما طاب له المقام في المشرق تولى التدريس في المدرسة الصلاحية في سنة ٦٢٢هـ(٨٨). وهذا دليل آخر على دور العلماء الوافدين في هذا العصر في ازدهار الحركة التعليمية.

ومنهم أبو عمرو بن الصلاح (ت٦٤٣هـ) وهو ممن تولى التدريس في المدرسة الصلاحية، وكان قد قرأ الفقه على والده، ثم درس في الموصل مدة، وسمع الحديث فيها، كما سمع على عدد من العلماء في بغداد، ونيسابور، ومرو، حتى برع في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلومه(٨٩). ومما سبق ذكره يتضح لنا أن المدرس لم يكن يتولى التدريس إلا بعد أن يصل إلى مرتبة عالية في العلم، ويبرع في تخصصه، حتى يكون جديراً بتولي هذا المنصب، وأهلاً له، وكان يشترط فيه أن يكون ذا رياسة وفضل وديانة وعقل ومهابة وجلالة وعدالة ومحبة في الفضلاء، وعطف على الضعفاء، ويقرب المحصلين، ويبعد اللغائين، وينصف البحاثين، حريصاً على النفع، مواظباً على الإفادة(٩٠). وبالإضافة إلى الشروط الخاصة التي كان يشترطها واقفو المدارس في بعض الأحيان، مثل الشروط المتعلقة بالمدرسة الشامية الجوانية، حيث اشترط أن يكون الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة(٩١). ولإدراكهم أهمية دور المعلم فهم يحرصون على تمتع المعلمين بالصفات الخلقية الحسنة، إضافة إلى القدرة العلمية.

ومما يميز هذا العصر أيضاً وجود المعيد إضافة إلى المدرس. وكانت وظيفة المعيد إفهام الطلبة ومناقشتهم واختبار فهمهم، وكان يوصي كل واحد منهم بقراءة الكتب التي تلائم مستواه الفكري ومقدار علمه، كما كان يساعد الطلبة على إعادة ما حفظوه ويراجعهم بالمذكرات، ويعيد لهم شرح ما لم يفهموه من الدروس؛ ولهذا جاءت تسميته بالمعيد. وكان يشترط فيه أن يكون من صلحاء الفضلاء، وفضلاء الصلحاء، صبوراً على أخلاق الطلبة، حريصاً على فائدتهم(٩٢). وقد يشترط بعض الواقفين أن يكون في المدرسة مدرس ومعيد. فقد شرطت زهرة خاتون بنت الملك العادل أن يكون في المدرسة العادلية الصغرى مدرس ومعيد وإمام ومؤذن وبواب وقيّم وعشرون فقيهاً(٩٣). وقد تخلو بعض المدارس من المدرسين، ويُكتفى بالمعيدين، كما حدث عندما خلت المدرسة الصلاحية من المدرسين مدة ثلاثين سنة، ثم جرى تعيين مدرس بعد ذلك(٩٤). ولكن المعيد في المدرسة الصلاحية قد يُعين مدرساً في مدرسة أخرى، وهذا يعني أن الإعادة بها أعلى شأناً من الإعادة في المدارس الأخرى؛ ولهذا وصفت الإعادة بها بالإعادة الكبرى.

وجد الطلبة الوافدون كل الاهتمام والرعاية من قبل السلاطين من حيث: توفير المساكن لهم، والحمامات، والمستشفيات لعلاج المرضى منهم، ووجود الأطباء الذين يتفقدون أحوالهم باستمرار

ومن العلماء الذين قاموا بالإعادة في عدد من المدارس، عبدالكريم الحرستاني أعاد بالأمينية عن أبي عصرون، وأعاد جمال الأئمة بن المانح بالأمينية ودرّس بالمجاهدية؛ ودرّس علاء الدين المقدسي بدار

الحديث الحمصية وأعاد بالبادرائية والأسدية أيضاً. وأعاد تاج الدين بن الحباب في المدرسة الرواحية(٩٥). وهذا يعني أن الإعادة درجة تسبق التدريس.

ومن مستلزمات التدريس الأخرى التي اهتم الأيوبيون بتوفيرها إمداد المدارس بالكتب، ووقف المكتبات على المدارس؛ لأن الركن الأساسي للنشاط العلمي في أي مكان وزمان إنما هو الكتب والمكتبات، فمن دونها لا تستطيع المدارس أداء مهمتها، ولا يستطيع المدرسون ولا الطلبة مواصلة رسالتهم، ولا تكاد تخلو مدرسة من خزائن الكتب، وقد شاعت في عصرهم عادة وقف الكتب على المدارس وطلبة العلم، ومن أمثلة ذلك وقف تاج الدين الكندي كتبه النفيسة وهي سبعمئة وواحد وستون مجلداً على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثم على ولده من بعده، ثم على العلماء في الحديث والفقه، ولما بنى نجم الدين البادرائي (ت ٦٥٥هـ) المدرسة البادرائية وقف عليها أوقافاً حسنة، وكان مما وفره فيها خزانة نافعة(٩٦).

الخاتمة

وبعد هذا التطواف مع الأسباب التي أدت إلى انتشار المدارس في العصر الأيوبي يمكننا القول: إن بلاد الشام ومصر قد عاشت حياة فكرية نشيطة، وقد تعددت روافد تلك الحياة الفكرية، وإن غِنى المكتبة العربية بإنتاجها الضخم في هذا العصر ليدل على ازدهار الحركة الفكرية التي حمل لواءها الحكام والعلماء والأدباء والفقهاء واللغويون والمفكرون، وساعد على ازدهارها انتشار دور العلم في مختلف أنحاء البلاد، وما ألحق بها من خزائن الكتب، وارتفاع مكانة العلم والعلماء، وإجلالهم من قبل أولي الأمر ومن عامة الناس.

وقد أدى ظهور شخصيات مثل نور الدين الزنكي ومن بعده صلاح الدين، والمعظم عيسى إلى ازدهار الحركة العلمية؛ لأنهم آمنوا بأن دولة يوجهها العلم سيكتب لها النجاح، ومن يتصفح سيرة نور الدين - الذي كان المثل الأعلى لصلاح الدين الأيوبي في هذا المجال - يطلع على الكثير مما قدمه هذا القائد إلى العلم والعلماء، فقد بنى الربط والخوانق والمدارس، ووقف

المراجع

١- الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، نشر وتحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، ١٩٨٨م، ص٩١، ٩٢.
٢- السابق ١/٥٧٢ - ٥٧٣.
٣- السابق ٥٠٧، ٥٠٩.
٤- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٢١.
٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، المطبعة البهية، إستانبول، ١٩٤١م، ص٢/١٢٧٥.
٦- دور التعليم في تحرير بيت المقدس إبان العصر الأيوبي، الدكتور إبراهيم ياسين الخطيب، عمان، ١٩٩٣م، ص٥٤.
٧- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لشهاب الدين عبدالرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة، تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٢م، ١/ق٢/٤٨٦.
٨- السابق ١/ق٢/٤٨٧.
٩- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص٤٩.
١٠- الدارس في تاريخ المدارس ص١/٦٤٩.
١١- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٦٦ - ٦٧.
١٢- الدارس في تاريخ المدارس ص ٢/١١٢.
١٣- السابق ١/٢٥٣.
١٤- السابق ١/٢٣٦ ، ٦٠٤ - ٦٠٥.
١٥- السابق ٢/ ٣ - ١٠.
١٦- السابق ٢/٥ - ٦.
١٧- السابق ١/٥٧٩ ، ٥٨٣ - ٥٨٤.
١٨- دور التعليم في تحرير بيت المقدس ٦١.
١٩- السابق ٦١.
٢٠- المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي: دورها في الحركة الفكرية، الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م، ١/١١٠.
٢١- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مطابع دار القلم، القاهرة، ص٢/٢٣٠، ٤٠٧.
٢٢- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين العليمي الحنبلي، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م، ص١/٣٤٠ - ٣٤١.
٢٣- المدارس في بيت المقدس ١/١١٢.
٢٤- الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٣٢ - ٤٣٣.
٢٥- السابق ١/٤٢١ - ٤٢٢.
٢٦- السابق ١/٤٤٨.
٢٧- السابق ١/١٦٩.
٢٨- السابق ١/٣١٦.
٢٩- السابق ١/٣٥٩، ٣٨٢، ٥٤٩.
٣٠- السابق ٢٧٧ - ٢٧٨، ٣٠١.
٣١- السابق ١/٥٠٧.
٣٢- السابق ١/٥٩٢.
٣٣- السابق ١/٣٦٨.
٣٤- السابق ١/٢٧٣ - ٢٧٤، ٥٧٦.
٣٥- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٤٨.
٣٦- الدارس في تاريخ المدارس ١/١٩، ٣٢٦ - ٣٢٧.
٣٧- السابق ١/٥٣٠ - ٥٣٢، ٥٣٧.
٣٨- السابق ١/٥١٩.
٣٩- السابق ١/١٥٩، ٤٧٤.
٤٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المطبعة الأميرية، مصر، ١٩٦٣م، ص ٤/٢٠.
٤١- الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٥١ - ٥٥٥، ٥٥٧.
٤٢- السابق ١/٤٦٨ - ٤٦٩.

عليها الأوقاف الجليلة لتواصل مسيرتها الخيِّرة في إزالة الجهل والخرافات والأباطيل ونشر العلم والمعرفة والنور. وكان من عادته أنه إذا دخل عليه فقيه يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه، ويقبل عليه بحديثه، كأن أقرب الناس له، مما طمأن الفقهاء، وجعلهم ينصرفون إلى العلم، ويقبلون عليه بشغف ونهم(٩٧).

وقد سار الأيوبيون على النهج نفسه، وسار من بعدهم المماليك؛ فهي حلقة متصلة، يجمع بينهم حب العلم وتقدير العلماء. وقد تنافس الأمراء والوزراء وقادة الجيش وكبار رجال الدولة في بناء المدارس، وحضور مجالس العلماء، واستقطاب العلماء، رائدهم في هذا المجال صلاح الدين الذي لم يمنعه واجبه العسكري في مقارعة الأعداء من الاهتمام بالعلم وأهله، فدولة تتسلح بالإيمان والعلم قادرة على مواجهة الأعداء.

وكان للنساء في هذا العصر مكانة سامية، والدليل على ذلك نشاطهن المتميز في بناء المدارس، ووقف الأوقاف عليها، وفي تحرير العبيد الذين ساهموا بدورهم في بناء المدارس.

ومما يُحمد لحكام هذا العصر اهتمامهم بالطلبة المقيمين والوافدين على حد سواء، وتنافسوا فيما بينهم فيما يفعلونه من أجل توفير كل ما يحتاجون إليه.

وقد شاعت الرحلة في طلب العلم، فقد كان الطالب يرحل إلى أي بلد من بلدان العالم الإسلامي، دون أن يجد عائقًا في طريقه، فهو حر في اختيار المكان، والمدارس والعلم الذي يرغب في دراسته، ونتج من ذلك إقبال أعداد ضخمة من الطلبة والعلماء الوافدين إلى هذه البلاد إما طلبًا للعلم، وإما نشرًا للعلم عن طريق تدريسه.

وكان من نتائج هذا الاهتمام بالعلم والعلماء، وإغداق الأرزاق عليهم، أن عاش العلماء عيشة حرة كريمة، أدت إلى تفرغهم للتأليف والتدريس.

ولا يمكننا إغفال الدافع الديني إلى إقامة المدارس، والذي كان في بدايته موجهًا إلى محاربة المنحرفين ودحض أفكارهم، ثم تطور فيما بعد إلى أن أصبح عملاً من أعمال الخير والبر، ينال صاحبه الأجر والثواب.

٤٣ـ الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م، ص ٥٧.
٤٤ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٨٩، ٩٢.
٤٥ـ السابق ١/٢١٥.
٤٦ـ السابق ١/٥٩٤ ـ ٥٩٥، ٥٩٩.
٤٧ـ السابق ١/٤٩٦.
٤٨ـ السابق ١/٦٤، ٦٥، ٦٧، ٥٥٨.
٤٩ـ السابق ١، ٥٢٦ ـ ٥٢٧.
٥٠ـ السابق ١/٤٤١ ـ ٤٤٢.
٥١ـ السابق ١/٩٨، ٤٤٦.
٥٢ـ السابق ١/١٥٨، ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٢٧٦.
٥٣ـ السابق ١/٥٢.
٥٤ـ السابق ١/١٠٨ ـ ١٠٩.
٥٥ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق الدكتور نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٦٨٨.
٥٦ـ النوادر السلطانية ٨٢.
٥٧ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٨٠ ـ ٥٨٥.
٥٨ـ السابق ١/٥٨٦.
٥٩ـ السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، تحقيق الدكتور مصطفى زيادة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ١/ق١/٢٣٢، ٢٥٨، ٢٥٩.
٦٠ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٦٢.
٦١ـ السابق ١/٤٥٩ ـ ٤٦٠.
٦٢ـ السابق ١/٤٧ ـ ٤٨.
٦٣ـ السابق ٢/٧١.
٦٤ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٣/٥٣.
٦٥ـ المدارس العصرونية في بلاد الشام، الدكتور صادق أحمد داود جودة، مؤسسة الرسالة ودار عمار، ١٩٨٦م، ص٩.
٦٦ـ وفيات الأعيان ٣/٥٤.
٦٧ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/١١٨ ـ ١٨٤، ٣٦١.
٦٨ـ السابق ١/١٩١ ـ ١٩٢.
٦٩ـ السابق ١/٢١٦ ـ ٢١٧.
٧٠ـ السابق ١/١٩، ١٨٩، ٢٦٧، ٢٧٧.
٧١ـ السابق ١/٣١٧، ٣٢٢ ـ ٣٢٣.
٧٢ـ السابق ١/٤٨٣، ٤٨٦، ٥٦١ ـ ٥٦٢.
٧٣ـ السابق ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
٧٤ـ السابق ١/٢٠٥، ٢٠٧.
٧٥ـ الروضتين ١/ق٢، ٥٤٥.
٧٦ـ رحلة ابن جبير ٣٠.
٧٧ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩.
٧٨ـ السابق ١/٢٣٧.
٧٩ـ خطط المقريزي ٢/٣١١ و ٣/٣٣٣.
٨٠ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٠٢.
٨١ـ السابق ١/٣٠٢.
٨٢ـ السابق ١/٣٠٢
٨٣ـ تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني، نشر محمد هاشم الندوي، دار الكتب العلمية، ١٣٥٤هـ، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.
٨٤ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٣٢.
٨٥ـ الأنس الجليل ٢/٤٥، ٤٦.
٨٦ـ رحلة ابن جبير ٢٥٨.
٨٧ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣١٨ ـ ٣١٩.
٨٨ـ السابق ١/٣٢٢ ـ ٣٢٣.
٨٩ـ وفيات الأعيان ٣/٢٤٣ ـ ٢٤٤.
٩٠ـ تذكرة السامع ١٩٨ ـ ٢٠١.
٩١ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٠٣.
٩٢ـ تذكرة السامع ٢٠١/٢٠٤.
٩٣ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٦٨.
٩٤ـ مفرج الكروب ١/٩٩.
٩٥ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٦٤، ١٥٧، ٢٠٣، ٢٧٥.
٩٦ـ السابق ١/٢٠٥ ـ ٢٠٧، ٤٨٤ ـ ٤٨٥.
٩٧ ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م، ص١٧ـ ٣٧.

الديكور والمؤثرات البصرية في المسرح

زياد الحكيم
لندن - بريطانيا

نستعمل كلمة (ديكور) للإشارة إلى كل ما يراه الجمهور على الخشبة باستثناء الممثلين. وأعظم تأثير له يكون في بداية المسرحية عندما تخفت أضواء المسرح، ويرتفع الستار، ويدخل الجمهور عالمًا جديدًا كل الجدة. في هذه اللحظة يعدّ الجمهور نفسه بالاعتماد على ما يشاهده على الخشبة من تراجيديا أو كوميديا أو دراما اجتماعية واقعية أو مشاهد خيالية غامضة.

وبتقدم المسرحية يستولي الفعل الدرامي والحوار والحبكة على اهتمام الجمهور، ولكن الديكور - مقترنًا بالإضاءة والملابس - يستمر في التأثير في الجو العام، وفي طبيعة المسرحية.

وهناك ثلاثة أنواع رئيسة للديكور: الواقعي، والتعبيري، والخشبة العارية. ومع أنه ليس هناك خطوط واضحة تفصل بين هذه الأنواع الثلاثة إلا أن لكل منها خصائصه التي لا يشاركه فيها النوعان الآخران. والأهم من ذلك هو أن لكل منها ميزاته ومساوئه. فإذا لم يقرر الكاتب المسرحي بصورة مبكرة: أيّ من هذه الأنواع هو الأكثر ملاءمة لمسرحيته فلن يكون في استطاعته أن يتخيل مشاهده فيما هو يكتب، ولن يكون في استطاعته أن يطور إمكانات أي من هذه الأنواع.


إليوت

الديكور الواقعي

وهو ديكور شائع جدًا اليوم بحيث نظن أنه النوع التقليدي. ولكن لو استطعنا أن نختصر تاريخ الدراما الممتد ٢٥٠٠ سنة إلى أسبوع واحد لوجدنا أن الوقت الذي استخدم فيه المؤلفون المسرحيون الديكور الواقعي لا يتجاوز نصف ساعة. والحقيقة أن كثيرًا من المؤلفين المسرحيين قد أسقطوه لأنه محدود جدًا.

وإذا نظرنا إلى الديكور الواقعي من وجهة نظر تاريخية فإننا نجد أنه قدم للمؤلف المسرحي وسيلة قيمة للتعبير عن أفكاره.

وعندما عرضت مسرحيات إبسن في إنجلترا أول مرة في أواخر القرن التاسع عشر دهش الجمهور لرؤية مشهد غرفة جلوس كامل على الخشبة بما في ذلك خزائن كتب حقيقية، وصور حقيقية على الجدران، وأبواب



خشبة مسرح تحاط بالجمهور من ثلاثة جوانب

تفتح وتغلق. وبعد ذلك بقليل راحت التعليمات في مسرحيات باري وشو تعكس الواقعية الجديدة بإدخال وصف دقيق جداً حتى لعنوان كتاب مهمل على طاولة.

ومن الواضح أنه ليس هناك مصمم ديكور يطمح إلى جعل خشبته تبدو أكثر واقعية من فيلم سينمائي يصور الشيء الحقيقي. ومن السذاجة أن يحاول. ولا يتعين عليه أن ينافس باستعمال الحيل؛ فالأوبرا لا تبدو أكثر واقعية إذا عرضنا فيها الأحصنة والفيلة على الخشبة.

ولكن الديكور الواقعي ظل مستعملاً، وإذا استعمل بمهارة وخيال فمن الممكن أن يحدد الجو العام، وأن يضيف إلى المحتوى الفكري للمسرحية.

وفيما يأتي خمسة أمثلة لمسرحيات استعملت الديكور الواقعي استعمالاً مبتكراً:

مسرحية ت.س. إليوت (حفلة الكوكتيل) تدور أحداثها حول أفراد في المجتمع الراقي البريطاني. يتألف الديكور من غرفة جلوس مصممة تصميماً يفتقر إلى الابتكار، وتحتوي على ما يذكّر بالفخامة والغنى. وفي عرض للمسرحية في نيويورك استأثرت بانتباه الجمهور طاولة صغيرة عليها صينية فضية. ولا نجد في النص الأصلي للمسرحية ما يشير إلى ذلك. وأفاد مصمم الديكور فائدة كاملة من تعليمات المؤلف المسرحي في اختيار مكونات في الديكور تلمع وتشد انتباه الجمهور. وهذا واقعي لأن شيئاً لم يشوّه فيه بحيث يغاير ما نتوقع أن نراه في غرفة جلوس حقيقية من هذا النوع. ولكن استخدام الواقعية فيه إبداع.

ويفيد تنسي وليامز من النوع ذاته من الديكور في مسرحية (فترة تكيف). فالشخصيات هنا تمثل الطبقة المتوسطة تمثيلاً واضحاً. ومركز الانتباه هو جهاز تلفاز، ولأن جهاز التلفاز يعمل طوال فترة العرض فإنه موضوع في منتصف الخشبة

وأعلاها بحيث يرى الجمهور خلفية الجهاز. وبهذا تستطيع الشخصيات أن تشاهد التلفاز، وتعلق عليه، بينما هي تجلس قبالة الجمهور.

بيد أن استخدام الديكور التقليدي استخدامًا مبدعًا ليس مقصوراً على اختيار مركز انتباه مهم. ففي مسرحية روبرت أندرسون (شاي وتعاطف) يتم تصوير جو غرفة الجلوس التابعة لمدير مدرسة داخلية بتفصيلات مهمة. وضمن الكاتب المسرحي على يسار الخشبة سلمًا وظيفته الرئيسة هي السماح للتلاميذ بالصعود والنزول في طريقهم من الصفوف إلى المهاجع وبالعكس. هذا الضجيج الدوري الذي يسببه الصعود والنزول له تأثير كبير في الإيحاء بالطاقة التي يبديها التلاميذ والتي ترتبط ارتباطًا مباشراً بموضوع المسرحية.

وفي عرض مسرحي لرواية جيمس (أوراق أسبيرن) صفق الجمهور للديكور قبل النطق بالسطر الأول. وهذه الاستجابة لم تكن استحساناً لواقعية الديكور، ولكن للدرجة التي استطاع فيها الديكور أن يصور الأناقة المنقرضة لغرفة جلوس فينيسية، وهنا أيضًا تؤدي تفصيلات من النوافذ العالية، والطلاء الأخضر المقشر، والبلاط الشاحب اللون دوراً في تصوير الجو العام.

في مسرحية (مرحبا) يطلق جورج سارويان يد مصمم الديكور فلا يحدد غير المشهد فيقول: «زنزانة سجن في مدينة صغيرة». وواضح من النص أنه يجب أن يكون هناك مساحة مساوية في الغرفة خارج الزنزانة لأن كثيراً من الفعل الدرامي يحدث هناك. وعلى هذا فإن المرء حر في استخدام التفصيلات المألوفة التي ترتبط بمشهد كهذا ـ مكتب الشريف والجدار المتشقق وما إلى ذلك. والقيد الوحيد هو أن الديكور يجب أن يكون بسيطًا إلى حد ما، إن مسرحيات كهذه تقدم عادة مع مسرحيات أخرى في الليلة ذاتها. ويجب ألاّ ينتظر الجمهور ثلاثين دقيقة بين عروض يستغرق الواحد منها خمس عشرة دقيقة.

ويمكن أن تخرج هذه الديكورات الواقعية الخمسة سينمائياً. وفي هذه الحالة تضيف الكاميرا بعداً إضافياً للمكان الخارجي. غير أن عين الكاميرا الجوالة تفقد ميزة واحدة تتمتع بها الخشبة، وهي التركيز في مجموعة واحدة من الأشياء. فالطاولة الصغيرة في مسرحية (حفلة الكوكتيل) تظهر في عرض سينمائي لتلك المسرحية، ولكنها لا ترى إلا قليلاً في زحمة المشاهد. ولأن المسرحية تقتصر عادة على ديكور واحد أو ديكورين فإن كل تفصيل حسي يقرر استعماله الكاتب المسرحي أو مصمم الديكور يغدو مجسمًا في عقول الجمهور. وتركيز الانتباه هذا في الخشبة هو الذي يجعل حتى الديكور الواقعي تحدياً إبداعيًا وفرصة للتعبير.



توظيف الملابس والمكياج في المسرح

الديكور التعبيري

وهو يتمتع بخاصيتين أساسيتين هما: التشويه والإيحاء الرمزي. فبدلاً من أن يحاكي المشهد العالم الذي حولنا يتخذ شكل حلم من الأحلام. وقد يبدو مربكًا في بادئ الأمر. ولكنه يقدم فيما بعد عناصر توحي بجوانب مهمة في حياة البطل أو ترمز إليها:

وأحد الأمثلة المبكرة لهذا النوع من الديكور هو مسرحية إلمر رايس (آلة الجمع) التي كتبت عام ١٩٣٢م. وهي تلقي الضوء على رجل اسمه مستر زيرو يسيطر على عالمه ضجيج الأرقام التي لا تنتهي من جراء عمله محاسبًا. ويمكن تقديم


تقنيات مختلفة يستخدمها المخرج للتعبير عن النص

النوع ذاته من التشويه البصري والإيحاء الرمزي. فجمهور مسرحية «صندوق الرمل» لا يستطيع في البداية أن يخمن كيف سيستخدم صندوق الرمل. ولكن سرعان ما يطلب إليه أن يتخيل شاطئًا. تقول الأم: «يوجد رمل هنا.... وبعده الماء». في وسط المسرحية يبدو واضحًا أن الأب والأم يقضيان حياتهما في الانتظار بالطريقة الفارعة ذاتها التي يجلس فيها الناس على الشاطئ. هنا يغدو الديكور البسيط رمزًا ذا مضمونات كثيرة تتعلق بنوع الحياة التي يعيشها كل من الأب والأم.

ونجد الجدة في «صندوق الرمل»، وصيحتها الأولى يصفها آلبي بأنها «مزيج من ضحكة طفل وصراخه». وتتكرر الصيحة. وترشق الجدة الأم بالرمل فيما بعد. هنا يجب أن يفهم من صندوق الرمل حرفيًا أنه المكان الذي يلعب فيه الأطفال على الشاطئ. لقد انقلبت الجدة إلى طفل بسبب تقدمها في السن، وبسبب الطريقة التي تعامل بها.

فالديكور الذي استخدمه آلبي إذن هو بمنزلة صورة بلاغية تهيمن على قصيدة. وهو استخدم هذا النوع من الديكور بمعنيين مختلفين، ولكن مرتبطين: أحدهما تعليق على حياة الأم والأب، والثاني وصف لجانب من جوانب المشكلة التي تعانيها الجدة.

وبطبيعة الحال بإمكاننا استخدام الديكور التعبيري في عرض مسرحيات لم تكتب لهذا النوع من الديكور. فتراجيديات شكسبير مثلاً تناسب التجريب في تصميم الديكور بصورة خاصة لأن الكاتب المسرحي لم يقيد نفسه بمستلزمات الواقعية البصرية. وفي عام ١٩٥٥م في عرض لمسرحية «الملك لير» بلندن أفاد المخرج نوغوشي دراميًا من الديكور الرمزي. إذ كانت الخشبة خالية إلا من عدد من الأشكال المثلثية والمستطيلة والمتعددة الأضلاع يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدمًا. كل ضلع

المشهد الأول في غرفة النوم بوساطة ديكور واقعي. بيد أن ديكور رايس التعبيري هو غرفة جدرانها مغطاة بمجموعة كبيرة من الأعداد الجاهزة للجمع أو الطرح أو التقسيم أو الضرب. ويحوِّل رايس وسيلة الإدراك الموضوعية التقليدية في الدراما إلى وجهة نظر مستر زيرو. فنرى الغرفة كما يتخيلها هو، ويطرح التشويه الفكاهي الذي يقترحه رايس مقولة رمزية ذات مغزى حتى قبل أن يُنطق بالسطر الأول.

ويستعمل إدوارد آلبي الذي كتب بعد ذلك بثلاثين عامًا

كان ملوناً بلون مختلف. وبإعادة ترتيب الأشكال في كل مشهد أوحت هذه الأشكال بمشهد في القصر وبمشهد في الغابة وبمشهد في ناحية أخرى من الغابة دون أن يستغرق التحول من مشهد إلى مشهد آخر إلا لحظات. وبفضل الألوان المختلفة كان من الممكن تغيير مزاج مشهد من المشاهد بتدوير الأشكال.

وتشبه الأخطار المتعلقة بالديكور التعبيري الأخطار المتأصلة في التعبيرية نفسها. فإذا استخدم هذا النوع من الديكور بمهارة قليلة فإن من الممكن أن يضيف غموضاً إلى مسرحية غامضة أصلاً، وهو من هذه الناحية يشبه الشعر الحر. يضاف إلى ذلك أن التقنية ذاتها يمكن أن تنال كثيراً من الاهتمام إلى درجة أن الجمهور المسرحي لا يقبل العرض على أنه أكثر من عمل تقني بارع.

ويجب أن نذكر التجارب التي قام بها رايس وستراينديبرغ وأونيل وبيكيت ويونسكو وبنتر ونوغوشي. وكلها تستخدم التقنية وسيلة لتطوير العمل الفني كاملاً.

الديكور المركب

وهنا نستعمل كلمة (مركب) للإشارة إلى معنيين: الأول: تعني الكلمة جمع مشهدين أو أكثر على الخشبة في الوقت ذاته. وتجمع عادة غرفتان أو أكثر أو قسم داخلي وخارجي من بيت. الثاني: تعني الكلمة جمع خصائص الديكور الواقعي وخصائص الديكور التعبيري.

في مسرحية «موت بائع» مثلاً نرى غرفة في الطابق العلوي، وغرفتين في الطابق الأول، وجزءاً من الساحة خارج البيت. وهذا واقعي بمعنى أن الغرف نفسها تمثل تمثيلاً دقيقاً إلى حد ما. وهو ما نتوقع أن نراه في الواقع. ومع ذلك فهو تعبيري بمعنى أن الجمهور يجب أن يستخدم خياله في فصل ما هو داخلي وما هو خارجي.

يستطيع ممثل في المطبخ أن يرى ما يفعله ممثل آخر في الخارج، ولكن يتضح في وقت قصير أن شخصية ما يجب أن تقترب من (الباب) لترى. وهذا ليس معقداً كما يبدو عندما يتذكر المرء أن الأطفال على الشاطئ يلعبون في (بيت)



للمؤثرات الضوئية دور في إبراز الديكور والموقف الدرامي

يتألف من خطوط مرسومة على الرمل.

واستخدم مصمم الديكور وليام ريتمان الخشبة المنشقة على نحو أكثر تطرفًا في مسرحية هارولد بنتر «المجموعة». تعاون ريتمان تعاونًا كبيراً مع المخرج آلان شنايدر والمؤلف بنتر ونجح في تقديم وهم لثلاثة مشاهد منفصلة تماماً على خشبة صغيرة نسبياً في مسرح تشيري لين في نيويورك. وعندما يسلط النور على الجانب الأيسر من الخشبة نحن في غرفة جلوس حديثة وفسيحة. وبتغيير الإضاءة ننتقل إلى غرفة جلوس أخرى أنيقة توحي بطريقة مختلفة للحياة بفضل اختلاف أثاثها. ولا يشك الجمهور في أن هذين القسمين من الخشبة يمثلان بيتين مختلفين كل الاختلاف. وخلف هذين القسمين نجد هناك منطقة ثالثة هي مشهد خارجي وفيه كشك هاتف ينفصل في خيالنا بمسافة كبيرة عن كلا البيتين. وعندما يضاء هذا القسم الثالث ينتقل الجمهور إلى مشهد ثالث بالسهولة نفسها كما لو أن ستاراً أسدل وعمل طاقم الخشبة خمس عشرة دقيقة لإنزال ديكور، وبناء ديكور جديد.

وهذا ليس مجرد خدعة وحسب. إنه يمثل الخيال المشترك لكل من المؤلف والمخرج ومصمم الديكور الذين يعملون معاً مستفيدين من خبرتهم المشتركة.



إبسن



شكسبير

الخشبة العارية

عندما عرضت مسرحية ثورنتون وايلدر «بلدتنا» أول مرة كان استخدام الخشبة العارية أسلوباً جديداً نسبياً في المسرح. فاستخدام دعامتين ولوح من الخشب يربط بينهما أوحى بيبت حتى لأولئك النظارة الذين لم يعتادوا هذا اللون من التمثيل الرمزي. كما أنه أبرز مزاج مدينة أمريكية صغيرة وبسيطة على نحو لا يستطيعه ديكور معقد.

ولكن، كما هو الحال في تجارب كثيرة في المسرح، اعتمدت الخشبة العارية على تقليد قديم جداً. فالنظارة في العصر الإليزابيثي كانوا على استعداد للجوء إلى خيالهم لتصور سلسلة سريعة من المشاهد في مسرحيات شكسبير. وما فعله وايلدر هو ببساطة أنه حمل النظارة على استخدام خيالهم بالطريقة نفسها تقريباً التي لجأ إليها كتاب مسرحيات الراديو.

ونجحت مسرحية بكاسو الرائعة «رغبة» التي عرضت على خشبة ليس فيها إلا مقعد طويل. وفي عرض لهذه المسرحية في الولايات المتحدة لم يستخدم المخرج حتى ستارة خلفية مؤثراً الجدار الآجري للمسرح ذاته بدل ذلك.

ومن مزايا الخشبة العارية أنها تركز انتباه الجمهور في الممثلين أنفسهم، وعلى السطور المنطوقة. وهذا أمر مرغوب فيه بشكل خاص في مسرحيات كمسرحيات شكسبير التي تكون فيها اللغة معقدة ومملوءة بفوارق لفظية دقيقة، وبتلاعب لفظي في كوميدياته بخاصة.

ومن المسرحيات الأحدث التي تناسب خشبة عارية مسرحية «بانتظار غودو».

وعلى الرغم من هذه الأمثلة، لم تستخدم تقنية الخشبة العارية إلا قليلاً في القرن العشرين. والسبب في ذلك أن بإمكاننا أن نصنع الكثير بالديكورات الواقعية أو الرمزية بحيث تصبح الخشبة العارية معوقًا للتعبير.

أشكال الخشبة

في الأحوال العادية لا يملك الكاتب المسرحي الخيار في شكل المسرح الذي ستعرض فيه مسرحيته، وأقصى ما يستطيع أن يأمله هو أن تعرض مسرحيته في أي مسرح من المسارح. أما إذا كان الكاتب طالباً في معهد أو جامعة فجدير به أن يدرس الخشبة التي قد تستخدم لعرض مسرحيته. فذلك قد يؤثر في الطريقة التي يبني فيها العناصر البصرية لمسرحيته.

والخشبة التقليدية هي الخشبة التي يكون فيها خط فاصل واضح بين الجمهور والممثلين محدد بإطار الخشبة. وكان هذا الإطار في الماضي مؤلفًا من أعمدة على الجانبين وبعض

الزخارف في أعلاه.

ولكن حتى عندما يختزل هذا الإطار كما يحدث حالياً في أغلب الأحيان؛ فإنه يتحدد بحواف الستارة على الجانبين وفي الأعلى. كما أن حافة الخشبة المرتفعة تكمل الإطار من الأسفل.

وتكمن الفائدة من تصميم كهذا في سهولة إسدال الستارة، ومن ثم سهولة تغيير الديكور. وقد تطور هذا التصميم تطوراً معقداً إلى الخشبة الدوارة التي يمكن تدويرها بمشاهد ثلاثة مختلفة أمام الجمهور واحداً بعد الآخر.

في الطرف المقابل نجد المسرح الدائري حيث يحيط



الديكور الواقعي في إحدى مسرحيات إبسن

الجمهور بالممثلين كما يحدث في خيمة سيرك. وبدلاً من الخشبة المرتفعة هناك مساحة للتمثيل تكون عادة في مستوى الصف الأول من صفوف مقاعد الجمهور.

بهذه الطريقة يجلس معظم النظارة بقرب الفعل المسرحي، والخط الفاصل بينهم وبين الممثلين اختزل اختزالاً كبيراً. وبدلاً من مشاهدة مسرحية من خلال نافذة بعيدة يحصل النظارة على الإحساس بأنهم جزء من الفعل الدرامي تقريباً.

وهناك مشكلتان في المسرح الدائري: الأولى: يتعين فيها على الممثلين أن يدخلوا ويخرجوا من الممرات؛ وذلك يقلل من الوهم إلى حد ما. والأسوأ من ذلك هو أن على الممثلين دائماً أن يلقوا سطورهم فيما يكون نصف النظارة خلف ظهورهم. غير أن مناصري المسرح الدائري يحاجّون بأن الإحساس بالقرب من الفعل يفوق في أهميته أي نقاط سلبية.

وقد لجأ كثير من المسارح الجامعية والمسارح الأهلية إلى حلول وسط بين هذين الشكلين من المسرح تتمثل في أن الخشبة تكون عادة بارزة في الصالة إلى حد كبير بحيث يجلس الجمهور على ثلاثة جوانب منها. وهذا التصميم يشبه المسرح الدائري في أنه يعطي الجمهور الإحساس بأنه جزء من الفعل المسرحي ويبقيه قريباً من الممثلين. ولكنه في الوقت نفسه يسمح للممثلين بأن يدخلوا بصورة واقعية من خلال الأبواب إلى الخشبة، ويقضي على مشكلة تحدث الممثلين عندما يكون نصف الجمهور خلف ظهورهم.

وعندما يكتب المؤلف المسرحي، وفي ذهنه هذا النوع من المسرح، فإنه يكون أقل اعتماداً على تأثير (الصورة في الإطار) كما هو الحال في الخشبة التقليدية، وأكثر اعتماداً على الإحساس بالحضور الذي يرجى أن يشعر به الجمهور طوال العرض.

الملابس

في الأحوال العادية يترك المؤلف المسرحي تفصيلات الملابس لمخرج العرض. ولكن هناك ثلاثة اتجاهات مختلفة يجب أن يعيها المؤلف قبل أن يكتب السطر الأول من الحوار. هل يجب أن تكون الملابس ذات طابع رمزي أو مجرد ملابس عادية؟ هذان الخياران يقابلان بصورة تقريبية تقسيمات التعبيرية والواقعية والخشبة العارية التي أتينا على دراستها.

وتحدد أغلبية المسرحيات في المقدمة أن الملابس تناسب العصر الذي تصوره المسرحية وكذلك الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية. ويمكن طبعاً اقتراح فروق معينة على أساس الفروق الشخصية. ولكن القاعدة تبقى وهي أن معظم المسرحيات الواقعية تستخدم ملابس واقعية.

والملابس الواقعية تستخدم أيضاً في المسرحيات التعبيرية. فمسرحية يونسكو «سوبرانو الأصلع» سلسلة من الحوادث الخيالية ذات الأسلوب التعبيري بصورة كاملة. ومع ذلك فإن البطل مستر سميث يوصف بتفصيلات واقعية هزلية فهو رجل إنجليزي؛ جالس في كرسيه الإنجليزي ذي الذراعين،

ومرتد خفين انجليزيين، ويدخن غليونه الإنجليزي، ويقرأ صحيفته الإنجليزية قرب نار إنجليزية. ومستر زيرو في مسرحية إلمر رايس «آلة الجمع» يرتدي ملابس تقليدية على الرغم من الديكور التعبيري. وكذلك حال شخصيات «صندوق الرمل».

واستخدام الملابس الرمزية أو ما يمكن أن يسمى بالتعبيرية أحياناً امتداد طبيعي للتشويه الذي نراه في الفعل وفي المكان الذي يدور فيه الفعل في المسرحية التعبيرية. ففي مسرحية إدريان كنيدي «قداس فأرة» يوصف المشهد ببساطة بأنه (بيت فأرة). أما بالنسبة إلى الملابس فتفصل الكاتبة فتقول:

«الفأرة الأخ لها رأس فأرة وجسم إنسان وذيل. الفأرة الأخت لها بطن فأرة ورأس إنسان وذيل. تلبس روزميري ثوباً قداسياً وفي شعرها ديدان».

وتستخدم المؤلفة الأسلوب نفسه تقريباً في مسرحية «درس بلغة منقرضة». وهي مسرحية قصيرة متشائمة تدور أحداثها في أحد صفوف مدرسة. يلبس التلاميذ جميعاً أثواباً بيضاء شفافة ترمز إلى انقيادهم وبراءتهم. ونجد التشويه الحقيقي في المدرس الذي يرتدي زياً بشكل كلب أبيض عملاق. إن كندي كاتبة جادة في معالجتها للأفكار الدينية والعرقية في المسرحية. والنتيجة هي خيال غريب عنيد.

ويمكن استعمال الملابس التعبيرية في مسرحيات واقعية أيضاً، كما كان الأمر في عرض نوغوشي لمسرحية «الملك لير» عام ١٩٥٥م.

يظهر لير أول ما يظهر بثوب فضفاض. ومع أن الثوب لا يوحي بأي عصر ولا بأي بلد معين إلا أنه فخم بصورة جلية، وهو مزين بأشكال تشبه إلى حد كبير ذيل طاووس بما في ذلك البقع التي تشبه العيون، والملونة بألوان قوس قزح. والرابطة الرمزية بين الملك لير المتشامخ والطاووس هي رابطة رائعة وواضحة، وهي بداية فقط. في المشهد التالي نجد أن الزي مشابه إلى درجة أن الجمهور لا يكاد يلاحظ أن القسم المركزي للتصميم (العيون) لم يعد جزءاً من القماش. بل غدا ثقوباً صغيرة. تلك هي النقطة في المسرحية عندما يبدأ كبرياء لير بتدمير مركزه.

وفي المشهد التالي تكبر هذه الثقوب إلى درجة يلاحظها الجمهور. وبتقدم المشاهد يبدو أن الثوب يهترئ شيئاً فشيئاً وكأن مادة حمضية كيماوية تسبب تأكّله. وعندما ينهار لير بصورة كاملة، ويتعرى من كل كبريائه يتحول ثوبه إلى أسمال بالية بلون الروث. عند هذه النقطة من المسرحية يتذكر الواحد منا لير في الفصل الأول ويستحوذ عليه انطباع قوي بأنه رأى رجلاً عاش حياة كاملة. نادرة هي العروض التي تركت فيها الملابس تأثيراً كهذا في الجمهور.

وترتبط الملابس العادية عادة بالمسرحيات المقروءة أكثر



الملابس العادية أقل كلفة وأكثر يسراً

مما ترتبط بالمسرحيات المعروضة. وكما هو الحال في الخشبة العارية فإن الملابس العادية أقل كلفة وأكثر يسراً. ومهما يكن فإن واحداً من العروض الشهيرة هو عرض (جوليوس قيصر) الذي أخرجه أورسون ويلز عام ١٩٣٧م، وفي هذا العرض أفادت الملابس الحديثة في عقد موازنة بين قيصر وموسوليني.

الإضاءة

وهي أحدث التقنيات الدرامية جميعاً. اعتمد الإغريق والإليزابيثيون على الشمس مصدراً للإضاءة، ومنذ أن وجدت المسارح المغلقة في أواخر القرن السادس عشر حتى عام ١٩١٤م، كانت الإضاءة تتم بأضواء مبهرة في مقدمة الخشبة مسلطة على الممثلين.

في عام ١٩١٤م علقت الأضواء الكشافة الأولى على حواف الشرفات في مسرح والاك في نيويورك، ومن المؤسف أن عدداً من مسارح برودواي لم تدخل تحسينات تذكر في مجال الإضاءة منذ ذلك الحين.

ومهما يكن فقد لجأ عدد متزايد من الكليات والجامعات إلى استخدام أنظمة معقدة للإضاءة المسرحية، وتجيز هذه الأنظمة لمهندس الإضاءة تسليط مجموعة من الأضواء على بقعة مامن الخشبة، ثم يدع تلك المجموعة تعمل آلياً، بينما هو يرتب المشهد التالي. فهذه الأنظمة بالإضافة إلى أنها تسهل عملية السيطرة على الأضواء فإنها توفر أوسع نطاق من الألوان والتركيز والزوايا.

لنعد الآن إلى الكاتب المسرحي؛ ليس هناك ضرورة لأن يدرج تعليمات تتعلق بالمؤثرات الضوئية إذا كان يكتب المسرحية من دون التفكير في أي نوع معين من أنواع الخشبة، غير أن عدد المسرحيات التي تكتب في المسابقات الجامعية على أمل عرضها في مسرح حديث يزداد عاماً بعد عام، وجدير بهذه المسرحيات أن تدرس الإضاءة من حيث هي مؤثر بصري مثل الملابس، ويجب أن يكون هناك تعليمات تتعلق بالإضاءة.


رسم تخيلي «للملك لير» إحدى أبرز مسرحيات شكسبير

ونذكر ثلاثة عوامل تتعلق بالإضاءة، هي: اللون، والكثافة، والزاوية، وليس باستطاعتنا أن نقول إلا القليل عن أي من هذه العوامل من دون أخذ العاملين الآخرين في الحسبان. الضوء البرتقالي - مثلاً - ضوء رقيق ومثالي لمشهد لطيف، ولكننا إذا سلطناه على الممثل من فوق رأسه فإن ذلك يعطيه شكلاً شيطانياً، والكثافة القليلة «أي الخشبة المعتمة» تناسب مشهد حب إذا كانت الزاوية طبيعية والتلوين على الجانب الساخن، ولكن الكثافة القليلة ذاتها يمكن أن تعطي شعوراً بالخوف إذا كان الضوء أبيض مسطحاً ومسلطاً من فوق.

تترك التفصيلات المحددة للمخرج، ولكن الكاتب المسرحي غالباً ما يورد في مقدمة النص توجيهاً عاماً يتعلق بالإضاءة. في «صندوق الرمل» - مثلاً - يحدد آلبي في البداية أن «الخلفية هي السماء التي تتغير من سماء يوم مشرق جداً إلى سماء في ظلمة الليل الحالكة». تبدأ المسرحية عندما يكون النهار مشرقاً ويتحول النهار إلى ليل دامس عندما تموت الجدة، ثم يتحول الليل إلى نهار.

كما يمكن للنص المسرحي أن يشير إلى كيفية استخدام الإضاءة في إبراز ناحية معينة على الخشبة، وهذا على جانب من الأهمية بوجه خاص في الديكور كما هو الحال في مسرحيتي (موت بائع) و(المجموعة).

وبالطريقة نفسها يمكن تحويل التركيز من شخصية إلى أخرى. مسرحية ميللر «بعد السقوط» مثلاً تعطي الانطباع بسلسلة من الذكريات والتأملات. يقول الكاتب في النص: إن على الشخصيات «أن تظهر وتختفي آنياً، كما يحدث في الذهن، ولكن ليس من الضروري أن تخرج هذه الشخصيات إلى خارج الخشبة». ومع أن استخدام الإضاءة هنا ليس محدداً إلا أنه ضروري بصورة واضحة.

وكما هو الحال في عناصر الدراما الأخرى فإن للإضاءة جملة من القواعد التي يجب التزامها، فعندما تنخفض الإضاءة قليلاً في أثناء أحد المشاهد فإن النظارة يستجيبون كما يستجيبون إلى الموسيقى التصويرية، ويتوقعون لحظة جادة،

ولكن إذا انخفضت الإضاءة إلى درجة أن الخشبة غدت مظلمة تماماً فإن النظارة يعرفون أن ذلك إشارة إلى أن فترة زمنية قد مرت أو أن تغيراً قد حدث في المكان. كيف يعرفون ذلك؟ من مشاهدة مسرحيات كثيرة أخرى. إنها لغة يفهمها معظم المترددين على المسارح، ولكن إذا كان الكاتب المسرحي يريد أن يستخدم هذه اللغة استخداماً كاملاً فإن عليه أن يدرسها دراسة واعية.

التقنيات المختلطة

ونقصد بذلك الأسلوب الذي يخلط فيه المسرح بعدد من المؤثرات السمعية والبصرية الأخرى - كالسينما والسلايدات والمواد المسجلة، وما إلى ذلك. وأحد الأمثلة المبكرة المعقدة لهذا الأسلوب هو عرض تشيكوسلوفاكي يدعى (المصباح السحري) أقيم في نيويورك عام ١٩٦٦م وفي مونتريال بكندا عام ١٩٦٧م.

طريقة العرض الرئيسة هي مزج للسينما والمسرح الحي بنسب متساوية تقريباً. ومن أجل تنفيذ ذلك كان على الخشبة شاشتان ومشاهد فيلمية كثيرة تصور الممثلين الذين كانوا يظهرون شخصياً أيضاً. ويظهر الممثلون على الخشبة ثم يقفون خلف الشاشة التي تبدأ في تلك اللحظة بعرض صورهم في مشاهد فيلمية بالحجم الطبيعي. الوتيرة سريعة جداً، والتوقيت دقيق بحيث من الصعب التمييز بين الممثلين على الخشبة وصورهم السينمائية.

وفي أحد مشاهد المطاردة الهزلية تركض مجموعة من الممثلين عبر الخشبة وتندفع كالسهم وراء عمود حقيقي، فتظهر على الشاشة في ملابس مختلفة لتختبىء من جديد ولتظهر بصورة حقيقية هذه المرة شخصيات مختلفة تماماً. وفي مسرحية قصيرة هزلية أخرى ينطلق ممثل على زلاجتين عبر الخشبة حياً، وفجأة يجد نفسه يندفع بقوة في أحد شوارع سان فرانسيسكو مصوراً، ثم يخرج إلى حيث النظارة الحقيقيين.

وكما هو الحال في الأفلام السينمائية الأولى، ركز هذا العرض في استخدام إنجاز فني جديد. لم يكن هناك حبكة حقيقية أو موضوع، ولم يحاول إلا أن يقدم تسلية خفيفة. ويجرب الكتّاب المسرحيون أيضاً استخدام المشاهد الفيلمية


تمازج الإضاءة والملابس والديكور

والسلايدات والمواد المسجلة، ولكن يجب ألاّ تستحوذ هذه التقنيات على العرض. وفي الوقت الحاضر هناك ميل إلى استخدام التقنيات المختلطة بشيء من الانضباط. وأحد الأمثلة الجيدة على ذلك هو مسرحية لي كالشيم «من يريد أن يكون حارساً متوحداً؟» التي تدور قصتها حول زواج في طريقه إلى الانهيار. استطاع الكاتب المسرحي بوساطة عرض مشاهد فيلمية أن يقدم عرضاً للسنة الأولى السعيدة من الزواج، كما يفعل الروائي عندما يستخدم الارتجاع الفني (الفلاشباك). بالإضافة إلى ذلك استخدم عدداً من السلايدات الملونة كما في ألبوم صور لتقديم الشبان الكثيرين الذين صادقتهم الزوجة قبل زواجها.

تأخذ الحبكة منحى سعيداً مرتين. ويعود الزوجان الواحد إلى الآخر في سعادة غامرة. ولكن ما إن يتنفس النظارة الصعداء حتى تضيء شارتان كهربائيتان على جانبي الخشبة باللون الأحمر: (وهم! وهم!)

عندما نقرأ عن هذه التقنيات المسرحية نشعر بالإغراء باستحداث مزيد منها. ولكن قبل أن نطلق على الجمهور روائح مصطنعة، وقبل أن نغمرهم بأمطار كاذبة (وقد حدث ذلك بالفعل) جدير بنا أن نتذكر أن المغالاة في استخدام هذه التقنيات تصرف الانتباه عما هو أساسي. فلا شك أن الدراما الجادة قد تنهار إذا سيطر عليها عنصر الخدعة.

ـ مصادر الصور: الإنترنت.

كيف تهدد الحرب الجرثومية المدنيين؟

ماهر البسيوني حسين
الرياض ـ السعودية

حمل الأوربيون الذين استقروا مبكراً في القارة الأمريكية مفاجأة، تسببت في معاناة الأمريكيين. وكانت هذه المفاجأة تشبه مرض الجدري Smallpox الذي أحدث أوبئة قاتلة ومدمرة في مصر القديمة، حتى إنه كان سبباً في وفاة الملك رمسيس الثاني ـ أعظم ملوك مصر ـ. كما أحدث في أوربا وفي العالم أوبئة قاتلة تسببت في وفاة أكثر من نصف تعداد القبائل الأمريكية الأصلية «الهنود الحمر»!!

ولأن المرض كان قاتلاً بشكل مرعب وبكفاءة عالية، فقد استخدمه الأمريكيون البيض سلاحاً فعّالاً في القضاء على السكان الأمريكيين الأصليين من الهنود الحمر حتى تخلو الأرض الجديدة لهم، وقد تبنّوا في هذا الأمر سياسة سوداء وشرسة. ففي عام ١٧٦٣م، كتب السير جيفرس أمهرست قائد القوات البريطانية في أمريكا الشمالية: «هل يمكننا أن نخطط لإرسال الجدري إلى قبائل الهنود الحمر الذين لم يتأثروا بالحرب؟ إننا يجب أن نستخدم في هذا الشأن كل وسيلة وسياسة في مقدورنا من أجل تقليل أعدادهم أو إبادتهم».

وقد رد الكولونيل الذي أُرسلت إليه الرسالة : «سوف أحاول أن ألقحهم Inoculate ببعض البطاطين الملوثة بالجدري، والتي سوف تسقط في أيديهم، وسوف أكون حريصاً على ألاّ يصاب أحد منا بالمرض نفسه».

ولم يكن القائد أمهرست قد سمع مطلقاً عن الفيروسات Viruses التي ينتمي إليها ميكروب الجدري، كما لم يسمع شيئاً عن المناعة Immunity أو عن التلقيح Vaccination. وكان لا بد أن ينقضي قرن آخر كي يتقبل العلماء فكرة أن الميكروبات Microbes يمكن أن تسبب أمراضاً! لكن القائد الأمريكي أمهرست كان يعرف أن السكان الأصليين من الهنود الحمر كانوا أكثر عرضة للمرض والتشوه Disfiguring والقتل بمرض الجدري، ولهذا فإنه رأى أن يصيبهم بالعدوى به عن عمد، كما عرف أمهرست أيضاً أنه يمكن أن يفعل ذلك من دون استخدام البنادق أو الأدلاء. وباختصار، فقد كان ذكياً بدرجة تكفي أنه عرف ما توصل إليه علماء الحرب الجرثومية المعاصرون عام ١٩٩٨م، من حقائق حول الأسلحة الجرثومية، والحيوية (البيولوجية).

قوة الدمار البشري والمعنوي للطواعين

منذ أزمان بعيدة حتى الآن تعني كلمة طاعون Plague ظهور مرض وبائي غامض ومفاجئ Epidemic شديد العدوى Highly infectious والإمراضية Morbidity

والإماتة Mortality. ويعزى لهذه الطواعين الوبائية أنها كانت سبباً مباشراً في تدمير عدة حضارات في الأزمنة الغابرة أو أنها مهدت للتغيير السكاني والجغرافي للبشر وللدول!!.

وإذا كانت الأمريكا وأوربا ودول كثيرة من العالم قد أصبحت تخاف من الحرب الجرثومية، وخصوصاً بعد أحداث نيويورك وواشنطن ١١سبتمبر/ايلول ٢٠٠١م، وماتلاها من ظهور الفزع بسبب انتشار حالات متفرقة من مرض الجمرة الخبيثة وخاصة في أمريكا؛ فإن أمريكا أظهرت كثيراً من القلق والاهتمام بالحرب الجرثومية فقط بسبب تملك العراق أنواعًا من هذه الأسلحة الجرثومية التي حصلت عليها من أمريكا وبريطانيا في وقت كان القصد منها أن يدمر بها العراق إيران في حرب الخليج الأولى. وتبيِّن قصة أمهرست أن للحرب الجرثومية تاريخاً طويلاً؛ ففي اليونان القديمة كانت توضع جثث الحيوانات المتعفنة Rotting Corpses في آبار مياه الأعداء، فكانت تمنعهم من الشرب أو استخدام المياه، وتصيب حيواناتهم بالمرض نفسه، وربما يكون المرض مشتركًا بين الحيوان والإنسان Zocnotic فيلحق الضرر أو الموت بهما !!. وفي القرون الوسطى تضمنت الحرب الجرثومية استخدام الطاعون Plague، وهو المرض البكتيري الممثل للطاعون الحقيقي، والذي كان مسؤولاً عن حدوث أوبئة كثيرة طبيعية اجتاحت العالم في وقت واحد، وهي الظاهرة المعروفة بالوباء العالمي Pandemic.

ففي القرن الرابع عشر ظهر وباء عالمي سمي الموت الأسود The Black Death أو الطاعون الوبائي الأعظم The Great Pestilence الذي قتل من ٢٠ مليونًا إلى ٣٠ في أوروبا فقط، أي نحو ثلث تعداد السكان تقريبًا آنذاك، كما قتل أيضاً ما يقدر بنحو ١٣ مليونًا في الصين.

ولم تفقد القوة القاتلة للطاعون، إذ سرعان ما استخدمها أيضاً جيش التتار في القرن الرابع لمهاجمة مدينة كافا Kaf-fa - في أوكرانيا حاليًا - المسورة بأسوار عالية. وقد أدى قذفهم بالجثث والحيوانات المصابة بالطاعون من خلف الأسوار إلى تكبدهم خسائر فادحة في الأرواح نتيجة للانتشار الوبائي للطاعون بين قواتهم، وقد أدى مرض الطاعون وكثرة الوفيات منه إلى عجز البقية عن التصدي لهم، فاستسلموا للتتار ... وهكذا كان الطاعون سلاحاً جرثومياً فعّالاً مؤدياً إلى النصر الحاسم والسهل على الأوكرانيين!.

وإذا كانت قد انقضت بضعة قرون من غير أن يتم تطوير الأسلحة الجرثومية فإن تأسيس علم الأحياء الدقيقة Microbiology على يد كل من لويس باستور Louis Pas-teur بفرنسا، وروبرت كوخ Robert koch بألمانيا قد مكن الأجيال القادمة في قرون لاحقة من أن تستخدم الميكروبات


أحداث ١١ سبتمبر سببت فزعاً وأحدثت اهتماماً كبيراً بالحرب الجرثومية

في الحرب الجرثومية وتطورها على أسس علمية، وبتقنيات متطورة ومدروسة.

وقد أعقب الحرب العالمية الأولى نشاط في كل من اليابان وبريطانيا وأمريكا وروسيا في مجال الحرب الجرثومية، إلا أن فترة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م - ١٩٤٥م، شملت نقلة هائلة في أبحاث وتجارب الأسلحة النووية والأسلحة الجرثومية؛ أي أسلحة الدمار الشامل، وقد ساعد على ذلك الاكتشافات والاختراعات العلمية على مستوى عدد من العلوم، ولا سيما علوم الأحياء الدقيقة، مما فتح آفاقًا جديدة في مجالات العلاج الكيماوي Chemat He-rapy بالمضادات الحيوية Antibiotics وتطوير صناعات اللقاحات Vaccines والوقاية Protection ضد الأمراض

المعدية الطبيعية، أو التي تسببها الحرب الجرثومية، لكن من أهم التطورات هو دخول الأحياء الدقيقة في علم جديد هو علم الأحياء الدقيقة الحربية Military Microbiology أو علم الأحياء الدقيقة في الحرب الجرثومية، وهو ما يعني تطويع الأحياء الدقيقة للحرب الجرثومية Germ Warfare أو ما يعني Germ Weaponization.

فاذا كانت الحرب العالمية الثانية تمثل بداية الحقبة الحديثة للحرب البيولوجية، فإن من بدأها هم اليابانيون. وقد اشتمل البرنامج الياباني على إنشاء وحدة خاصة في الجيش الياباني سميت الوحدة ٧٣١، ضمت آلافًا من العلماء في شتى المجالات الحربية والهندسية والكيماوية والفيزيائية، علاوة على علماء الأحياء والأحياء الدقيقة الذين شكلوا غالبية هذه الوحدة وأهدافها. وكان من أهم الأمراض الجرثومية التي ركزوا فيها: الجمرة الخبيثة (أنثراكس Anthrax) وأمراض الالتهاب السحائي Menengitis، والكوليرا Cholera، والطاعون Plague. وقد مات ما لا يقل عن ١٠٠٠٠ شخص بالسجون اليابانية نتيجة للتجارب الجرثومية في سنوات أعقبت الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية. وشنت اليابان غارات جرثومية على ١١مدينة صينية في أثناء الحرب العالمية الثانية، ومع أن هذه الغارات الجرثومية قد أصابت الصينيين بالفزع والهلع، وأحدثت وبائيات واضحة، إلا أن معدلات الوفيات، ولو أنها كانت واضحة لم تصل إلى ما وصلت إليه التقنيات الحالية في الحرب الجرثومية، فقد قامت اليابان عام ١٩٤٠م، بإطلاق ملايين البراغيث المحملة بالطاعون الدبلي من الطائرات على المدن الصينية الإحدى عشرة فنتج من ذلك وبائيات محدودة قتلت نحو ٧٠٠ من الصينيين، وأدخلت آلافًا آخرين المستشفيات!.

في اليونان القديمة كانت توضع جثث الحيوانات المتعفنة في آبار مياه الأعداء، فكانت تمنعهم من الشرب أو استخدام المياه، وتصيب حيواناتهم بالمرض نفسه، وربما يكون المرض مشتركًا بين الحيوان والإنسان

الأنثراكس أقدم الأوبئة القاتلة

تتميز بكتيريا الأنثراكس المسببة للجمرة الخبيثة «الحمى الفحمية» بأنها أقدم الأوبئة القاتلة. وبكتيريا الجمرة الخبيثة من النوع العضوي الهوائي تتميز بطورين، فعندما تحدث إصابة تتكاثر خضرياً Vegetatively في الحيوانات «الأغنام، والماعز والماشية، وفي الإنسان» ولكن عند نهاية المرض أو عندما تنقص المواد الغذائية «عند زراعتها في المعمل» فإنها تتحول إلى جراثيم داخلية Endosperes قادرة على مقاومة الظروف الصعبة من حرارة أو برودة أو حموضة، ويمكن أن تظل حية في التربة والمواد والأدوات الملوثة من ٢٠ عامًا إلى ١٠٠ أو تزيد. وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية في الاتحاد السوفييتي أن قرية تعرضت في القرن السابع الميلادي «أي منذ نحو ١٤ قرنًا مضت» لوباء قاتل من الأنثراكس، وأن القرية قد تم إحراقها وهدمها فوق جثث ضحايا المرض حتى لا ينتشر المرض إلى قرى أو أماكن أخرى.

وقد اكتشف في هذه القرية الروسية جراثيم من الأنثراكس بعد مضي قرن على الوباء الذي أحدثه. والغريب في الأمر أن هذا الكشف تم على عينات من الأواني الفخارية والسيراميك المتبقية من المدينة المدفونة!!

البريطانيون يلوثون جزيرة أسكتلندية

حدث في أثناء الحرب العالمية الثانية وتحديداً في عام ١٩٤١م أن قررت بريطانيا تطوير الأسلحة الجرثومية الخاصة بها استعداداً لمواجهة القوات النازية الهتلرية التي باتت تهدد العمق البريطاني، ووقع الاختيار على بكتيريا الأنثراكس المسببة للجمرة الخبيثة بسبب أنها تتجرثم، وهذه الجراثيم تسبب العدوى مثل خلاياها الخضرية، والأهم من ذلك أن هذه الجراثيم تتحمل درجات الحرارة العالية، والضغط الشديد، وخلخلة الهواء، ليس هذا فحسب، بل يمكن الحصول عليها أو صنعها على هيئة مسحوق Powder ناعم جداً. كل هذه المزايا كانت وراء ما خطط له البريطانيون. فقد صنعوا مسحوقًا من جراثيم الأنثراكس. وقذفوا به من على بعد على هيئة قنابل على جزيرة جرينارد Gruinard الأسكتلندية بعد إخلائها

من سكانها، وترك ٦٠ رأساً من الغنم لتسقط عليهم قنابل الأنثراكس. لقد كانت النتيجة مذهلة ومدهشة إذ أدى مسحوق الأنثراكس الذي تناثر في الهواء إلى قتل كل الأغنام!! وبقدر ما كانت النتيجة انتصاراً عسكرياً غير مسبوق للبريطانيين، إلا أن جراثيم الأنثراكس التي تساقطت على الجزر لوثت تربتها ومياهها مما قضى على كل الحياة فيها. وعلى الرغم من استخدام كميات كبيرة من المواد المطهرة كالفورمالين وغيره رفض سكان الجزيرة أو أي شخص أن يعود للعيش في جزيرة جرينارد خوفاً من شبح الإصابة القاتلة بجراثيم الأنثراكس العنيدة المثابرة.

بداية الإرهاب بالأنثراكس

لقد ثارت جماعات بريطانية مناهضة لما أحدثته السلطات البريطانية من تلويث جزيرة جرينارد الأسكتلندية؛ لأن جراثيم الأنثراكس تظل حيَّة وكامنة في التربة. ومع أنها لا تسبب أي ضرر ما لم يتم نقلها أو تحريكها أو ملامستها، إلا أنه لا يمكن الاقتراب منها أو العيش فيها. وقد تلقت السلطات البريطانية صدمة عام ١٩٨١م، عندما تلقت أنباءً مضمونها أن جراثيم الأنثراكس الملوثة لتربة جزيرة جرينارد قد تم تحويلها بفعل متعمد، فقد عثروا على عُبُوَّة تزن ١٠ كغ من تربة الجزيرة بجوار المعامل البريطانية التي طورت هذا السلاح الجرثومي، ثم جمعها بواسطة أفراد عملية الحصاد الأسود Operation Dark Harvest وهي مجموعة تشن حملة معادية للحكومة، وقد جمعت من التربة الملوثة بالأنثراكس ٣٠٠ كغ لنشرها في كل أنحاء بريطانيا!! فهل يشبه هذا الإرهاب آنذاك الإرهاب بالجمرة الخبيثة المتفشي الآن في شهري أكتوبر ونوفمبر/تشرين الأول والثاني عام ٢٠٠١م، ضد رجال الإعلام والحكومة الأمريكيين؟ ما أشبه اليوم بالبارحة مع الفارق في المعاني والأهداف والوسائل والإمكانات !!

أمريكا تضع برنامجًا للحرب الجرثومية

في عام ١٩٤٢م، وضعت الولايات المتحدة الأمريكية برنامجها للحرب البيولوجية Biological Warfare (بي . دبليو B.W) موضع التنفيذ في فورت ديتريك وكانت وقتئذ تسمى كامب ديتريك، في مدينة فريدريك بولاية ميريلاند. زادت دوافع الأمريكيين بعد مشاهدة التجربة البريطانية المذهلة لاستخدام الأنثراكس في قاذفات القنابل. وقاموا بإنتاج الجمرة الخبيثة على شكل بخار، وصنعوا منها نحو ٥٠٠٠ قنبلة، لكن أكثرها نجاحاً لم تخرج أكثر من ٣٪ من مخزون جراثيمها، أما الباقي فقد تبخر من جراء حرارة الانفجار أو داخل الأرض. وقد أدت هذه التجارب إلى أن يغيِّر الجيش الأمريكي من سياساته بين سبتمبر/ أيلول ١٩٥٠م، وفبراير/ شباط ١٩٥١م، إذ قام بتوزيع جرثومة مناظرة للجمرة الخبيثة عن طريق الرش على مدينة سان فرانسيسكو بواسطة الطائرات، وكانت هذه الجرثومة غير معدية، وتسمى باسيلاس جلوبيجي، وقد نجحت هذه الطريقة في نشر الجرثومة الخبيثة على كامل المساحة المستهدفة.


نجح العالم في القضاء على مرض الجدري

وفي عام ١٩٧٩مات ما لا يقل عن ٦٨ شخصاً في مدينة سفيردلوفسك بالاتحاد السوفييتي من وباء غير مسبوق بالجمرة الخبيثة، وقد علل السوفييت هذا بأن الضحايا تناولوا لحوم ماشية مصابة بالجمرة الخبيثة دون أن يعلموا بذلك.

فثمة حادث مناظر لم يكن مسبوقًا أيضاً عندما أعلن المحققون في أمريكا أنه قد حدث تسرب غير مقصود للجمرة الخبيثة عندما تناثرت في الهواء من قاعدة حربية متخصصة في الحرب الجرثومية، و قدروا أن الجرام الواحد (= ٢٨/١ من الأوقية) من مسحوق الأنثراكس كان مسؤولاً عن تلك الوفيات!!

ومنذ ذلك الحين حتى الآن نمت بشكل مطرد وتتقدم

التقنيات الحيوية والسوق العالمي للسباق على التسلح البيولوجي، مما جعل هذه الأسلحة البيولوجية ليست تهديداً حربيًا فحسب، بل يمكن أيضًا استخدامها في الهجمات الإرهابية على السكان المدنيين الآمنين!!

الأسلحة الكيماوية بوصفها عنصراً مساعداً

لا شك أن معظم جيوش العالم الآن تضم قسمًا متخصصًا في الحرب الجرثومية والكيماوية معاً، أو أن لديها قسمين منفصلين، لكن مع التنسيق المتآزر؛ لأن كلا منهما يعمل على حدة، أو متشاركين في وقت الحرب، وهذا ما جعل الرئيس بوش يوكل إلى أحد أساتذة الجامعة الإشراف على الحرب الجرثومية والكيماوية مع وزير جديد عين خصيصى لهذا المنصب عقب أحداث ١١سبتمبر عام٢٠٠١م الإرهابية !!

وقد استخدم الإرهابيون السلاح الكيماوي عدة مرات، منها - على سبيل المثال - حادث عام ١٩٩٥م، في مترو الأنفاق بطوكيو في اليابان، حيث أطلقوا غاز الأعصاب: سارين Sarin. وتضم أخطر الأسلحة الجرثومية أنواعًا تؤثر في الأعصاب، أو تتسبب في تكوين طفح مثاني أو حروق جلدية، ومواد سامة للرئات والسيانيدات. وكلها سريعة التأثير عند التعرض المباشر، ولكنها ليست معدية مثل المواد الجرثومية. وتضم المواد المؤثرة في الأعصاب غير سارين سومان Soman وفي إكس vx وكلها تثبط الأنزيمات المسؤولة عن عمل الأعصاب والعضلات وفشل التنفس والموت. أما المواد السامة للرئات مثل فوسجين Phosgene الغني بالكلور فإنها تدمر الرئات مسببة الانهيار الفوري للتنفس والموت خلال ٤ ساعات، ويسبب السيانيد فشلاً في التنفس، وفي القلب مؤدياً إلى الموت خلال بضع دقائق. وعند حدوث هذه التجارب الكيماوية يجب على السلطات المحلية والطبية أن تزيل هذا التلوث Deontaminate بإزالة المادة الكيماوية أو إبطال مفعولها.

وبالمقابل فإن الأسلحة الجرثومية تسبب مرضاً قد يظهر خلال عدة ساعات أو أيام أو أسابيع. لكن من الجدير بالذكر أن هناك أسلحة جرثومية يظهر أثرها خلال فترة قد تطول من بضعة أشهر إلى سنتين، حسب الخطط الإستراتيجية السرية الموضوعة للنيل من الأعداء، وربما بواسطة المخابرات من غير الحاجة إلى الدخول في حرب معلنة أو باردة! وإذا كان من السهل الكشف عن موعد إطلاق السلاح الكيماوي والمكان المستهدف فإنه من الصعب العسير معرفة ذلك تماماً بالنسبة إلى السلاح الجرثومي.

وما يلفت النظر في أحاديث الرئيس الأمريكي بوش مبكراً عقب الأحداث الإرهابية على مباني نيويورك وواشنطن إصداره قراراً يمنع استخدام طائرات رش المبيدات التي تكافَح بها الآفات الزراعية خوفًا من استخدامها لرش عوامل الحرب الجرثومية مثل مسحوق أنثراكس. أما الملحوظة الثانية التي أبداها الرئيس بوش أيضًا في هذا السياق فهي أنه يستهدف بحملته التحالفية لمحاربة الإرهاب الدولي بعد شن الهجمات العسكرية على أفغانستان وحصر قيادة طالبان وتنظيم القاعدة الذي يرأسه أسامة بن لادن في المخابئ والكهوف، ثم اصطيادهم كالفئران في الكهوف، وربما كان يعني بذلك استخدام الغازات الحربية لتقتلهم أو تخرجهم من الكهوف، ثم يستنشقون من الهواء والغبار جراثيم الأنثراكس لتطيح بحياتهم خلال ساعات قلائل.


روبرت كوخ

ومن الجدير بالذكر أن إزالة التلوث أو عمل حجر صحي Quarantining لا يكون مجدياً في معظم حالات الهجوم الجرثومي؛ إذ إن الأشخاص الذين تعرضوا للميكروب وأصيبوا به، هم بطبيعة الحال في حركة وتنقل دائمين، وسوف يكون لديهم الفرصة والوقت الكافي للسفر إلى عدة أماكن من قبل أن يعرف أحد بأنهم مرضى!

الرذاذ أفضل الوسائل في الحرب الجرثومية

يتوقف نجاح السلاح الجرثومي على عدة عوامل متكاملة معًا، أولها الميكروب نفسه ومدى قدرته على إصابة الإنسان. ومنها أن يكون له فترة حضانة قصيرة،

وأن يصل بسرعة إلى أقرب خلايا في الجسم ليحدث إصابة مبدائية، وأن يقاوم آليات المناعة الطبيعية والابتلاع الخلوي بواسطة خلايا الجسم التي تصطاد الميكروب حال دخولها وتبتلعها وتدمرها من قبل أن تصل إلى الخلايا المستهدفة، أو من قبل أن يتزايد تكاثرها. علاوة على ذلك فإن الميكروب الذي يستطيع أن يتكاثر في أكثر من نوع من الخلايا أو الأنسجة أو الأعضاء تكون له فرصة أكبر لمرض جهازي ينتشر في الجسم، وليس موضعياً. ومن أهم أسباب المرض الجهازي المنتشر وصول الميكروب إلى الدم، عندئذ يكون مؤكداً انتشاره إلى كامل أعضاء الجسم وفي أسرع وقت. كما أن الميكروبات الفعالة هي تلك التي تدمر خلايا أو وظائف مهمة في الجسم، أو تعطبها، وربما تتمكن من إحداث الموت في فترة وجيزة، أو تسبب العجز أو الفشل في وظيفة ما بالجسم أو أكثر، وربما يتحول المرض الحاد إلى مرض مزمن! إن كثيراً من ميكروبات الحرب الجرثومية، قد تستهدف التنفس أو الكبد أو الكلى أو القلب، وربما خلايا الدم أو الخلايا الليمفاوية، وبالذات خلايا المناعة، أوربما الخلايا العصبية والمخ والأغشية السحائية، وربما تستهدف أكثر من نوع من هذه الخلايا تتابعياً أو تزامنياً.

ولكن من أجل ضمان حدوث الإصابة والمرض يجب، أن تتوافر وسائل فعالة لوصول الميكروب إلى الأشخاص المستهدفين، وتوجد طرائق رئيسة لنشر الأسلحة الجرثومية:كتلوث الطعام أو الماء أو باستنشاق الجزيئات والأجسام الدقيقة المعلقة في الرذاذ. وإن كانت الطرائق الثلاث السابقة هي الأهم في نشر أوبئة الأسلحة الجرثومية إلا أن وسائل أخرى يمكن أن تحقق هذا الهدف عن طريق الملامسة أو تلوث الأدوات والأشياء، أو عن طريق الدم ومنتجاته ، وكذلك عن طريق العمليات الجراحية وزراعة الأعضاء، أو الحقن المتعمد، أو بمحاقن ملوثة، كما تؤدي الممارسات الجنسية دوراً أساسيًا بالنسبة إلى بعض الجراثيم المرضة، وقد يكون من مميزات بعض الأسلحة الجرثومية في سرعة انتشارها وفعاليتها أنها تنتقل بأكثر من وسيلة وقد تكون وسيلة، واحدة تكفي للانتشار الوبائي كلدغات البعوض وغيره من الحشرات ذات الفم الثاقب الماص، والتي تتغذى من الدماء!!

ومن الشروط الجوهرية لإحداث العدوى بأي من الوسائل السابقة: الحفاظ على حيوية الميكروب وقدرته على إحداث الإصابة في أثناء هذا النقل، وأن يكون بكمية أو جرعة تكفي لإحداث الإصابة. فعندما تكون كمية الميكروب التي تصل إلى الشخص المستهدف دون الجرعة الكافية لإحداث المرض فإنها قد تؤدي إلى تطوير مناعة تبطل فعالية هذا الميكروب. علاوة على ذلك فإن حموضة المعدة وأنزيمات الهضم تقوم بتدمير عدد من الميكروبات، ولهذا السبب، ولغيره من الأسباب التقنية، فإن هذه الطريقة من النقل ليست في كفاءة النقل بالرذاذ، كما قد يكون النقل الرذاذ على هيئة مسحوق دقيق جداً من أنواع معينة من الجراثيم تتحمل الجفاف، ومن ثم فإن نشرها من الطائرات - أو وسائل أخرى يجعلها غير مرئية على الإطلاق إذ تكون في كثافتها أقل من الغبار والعوالق الموجودة طبيعياً بالهواء، ولذا يفضل في نشرها استخدام الطائرات من علو شاهق، أوبطائرات تنطلق ليلاً عن قرب، لكن ثمة وسائل أخرى عن طريق الصواريخ وقاذفات القنابل في أثناء استخدام الأسلحة الحربية الأخرى في معركة صريحة المواجهة. وانفجار مثل هذه القنابل المدوية قد يصاحبها أيضاً سحابات دخانية وغازات وروائح مما لا يلفت النظر إلى وجود جراثيم بهذه الأدخنة !! ولا تقتصر ميزة وسيلة الرذاذ الجرثومي في سهولة تحضيره وإطلاقه ونشره على مساحات كبيرة ولمسافات بعيدة، ولكن يكون في العادة عديم الرائحة، ولايُرى، ويمكن أن يتحرك بسهولة بين المباني والمنشآت وعنابر الجيوش، بل ربما يصل إلى الخنادق والكهوف!

أثبتت الاكتشافات الأثرية في الاتحاد السوفييتي أن قرية تعرضت في القرن السابع الميلادي لوباء قاتل من الأنثراكس، وأن القرية قد تم إحراقها وهدمها فوق جثث ضحايا المرض حتى لا ينتشر المرض إلى قرى أو أماكن أخرى

إن أولى الملاحظات التجريبية والفعلية عن فعل الرذاذ الذي يحمل سلاحًا بيولوجيًا اتت من مشاهدة سقوط

الضحايا خلال ساعات أو أيام، أو ربما بضعة أسابيع بعد تعرضهم للرذاذ الميكروبي. والثانية أن المرض قد ينتقل أيضاً من شخص إلى آخر إذا كان السلاح البيولوجي شديد العدوى Highly Contagious.

إن عدداً من الأحياء الدقيقة (الميكروبات والجراثيم) يمكن استخدامها كسلاح جرثومي، ولكن يتفق خبراء الحرب الجرثومية على وجود عدد محدود فقط من هذه العوامل البيولوجية التي يمكن أن تسبب مرضاً واسع المدى مع نسبة عالية من الوفيات، ومن بين هذه العوامل الممرضة القاتلة الجدري Smallpox، والأنثراكس anthrax (الجمرة الخبيثة) والطاعون Plague، والتسمم البوتشيولي Potulism وكثير من الحميات النزفية الفيروسية Viral haemorrhagic fevers.

وتوجد أدلة علمية تؤكد أن كل هذه العوامل يمكنها أن تنتشر بالرذاذ مسببة سلسلة من الأوبئة القتالة، والتي تكون مرشحة للدمار الشامل. وفيما يأتي وصف موجز لهذه الأسلحة الجرثومية:

- **الجدري** Smallpox:

يسبب مرض الجدري فيروس الجدري من نوع ڤاريولا Variola، وهو أكثر الأسلحة البيولوجية خطراً وفتكاً وأبشعها على الإطلاق. وينتشر المرض الذي يحدث طبيعياً من شخص إلى شخص بالقطيرات التنفسية أو بالرذاذ Aerosols عن طريق السعال والعطاس. ومن المفارقات العجيبة أن الأشخاص لا تظهر عليهم الأعراض مدة قد تصل إلى ١٢ يوماً، ولكنهم ينشرون العدوى بين الأصحاء في فترة تسبق ظهور الأعراض، وتتكشف الأعراض مبدئياً عن حمى وتعب وصداع، وهي أعراض عامة وشائعة بشكل عادي، ولا تلفت النظر بين الناس.

وبعدئذ يظهر طفح أحمر أولاً في الفم والزور والوجه، ثم بعد ذلك على الأذرع والسيقان وباقي الجسم، ويمتلئ الطفح بقيح PUS مملوء بالمثانات على شكل تجديرات Pocks اشتق منها اسم الجدري POX يحدث ذلك خلال يوم أو يومين، بينما تتدهور حالة المريض بشدة.

ويقدر المصابين من الناس وغير المحصنين الذين يُتَوفون من هذه الإصابة عادة خلال ١٤ يوماً من بدء ظهور الطفح بنحو ٣٠٪. أما الذين ينجون من الموت فإنهم يبدؤون في المعاناة بعد ثمانية أيام إلى تسعة من بدء الطفح.

ومن الملاحظات الجديرة بأن توضع في الحسبان هو أن المرضى المصابين بالجدري يكونون قادرين على نشر العدوى مدة ٧ - ١٠ أيام عقب بدء الطفح، كما أن جلد الذين نجوا من المرض تظهر عليه حفر غائرة تختلف في اللون عن البشرة العادية، وقد تكون هذه التجديرات والحفر والندبات كثيفة بشكل مرعب جداً جداً.

تأسيس علم الأحياء الدقيقة على يد كل من لويس باستور بفرنسا، وروبرت كوخ بألمانيا قد مكن الأجيال القادمة في قرون لاحقة من أن تستخدم الميكروبات في الحرب الجرثومية وتطورها على أسس علمية، وبتقنيات متطورة ومدروسة

وياللأسف الشديد لا يوجد أي دواء طبي لعلاج مرض الجدري أو التخفيف من آثاره القاتلة أو المشوهة. إلا أنه يوجد لقاح Vaccine مشتق من سلالة غير شرسة من جدري البقر يحدث مناعة فعالة في الجسم عند إدخاله بالتشريط في الجزء الأعلى للذراع. وعلى الرغم من الكفاءة العالية لهذا اللقاح في إعطاء حماية مدى الحياة للمطعَّمين Vaccinees إلا أنه - ياللأسف - أوقف إنتاجه في العالم كله بعد أن تم استئصاله من كل الدول بجهود مكثفة لحملة تطعيم دولية قادتها منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٦م، وأعلن العالم عام ١٩٨٠م، أنه خال تماماً من مرض الجدري، وقد نتج من ذلك:

- أن فيروس الجدري هو أول مرض معدٍ أمكن القضاء عليه عالمياً.
- أنه لم تعد هناك حاجة إلى عمل لقاحات ضد الجدري أو تطعيم أي من الأجيال التالية بسبب عدم وجود الميكروب أصلاً؛
- أن جميع المعامل والمصانع في العالم تخلصت من هذا الفيروس تماماً لعدم الحاجة إليها بعد الآن .
- أن معامل معينة في بريطانية وبعض الدول الأوربية وروسيا وأمريكا احتفظت بالفيروس لديها، وخاصة معامل

الحرب الجرثومية، مماجعل، بمضيّ أكثر من ١٠ سنوات، استخدام فيروس الجدري للحرب الجرثومية يقفز إلى المرتبة الأولى من حيث إنه سوف يحدث إصابة في جميع الأعمار السنّيّة بلا استثناء، وأن الدول التي تشن هذه الحرب تضمن أيضاً فعالية الدمار الشامل المرعب للجدري بحيث قد يقضي على أكثر من ٩٥٪ من العدد الذي يتعرض له، كما أن إحدى الميزات الأخرى للجدري أنه لا يعالج ولا يوجد ضده أي عقار أو مضاد حيوي مثلما هو الحال بالنسبة إلى الجمرة الخبيثة؟!

ـ الجمرة الخبيثة «الأنثراكس»:

هي مرض بكتيري تسببه بكتيريا باسيلاس أنثراسيز Bacillus anthracis، ويعد من أخطر الأسلحة البيولوجية على الإطلاق، وهو في الوقت الراهن يعدّ السلاح الجرثومي الأول؛ وذلك لأن فيروس الجدري لا يزال أكثر من نصف سكان المعمورة محصنين ضده بالحملة الدولية للتطعيم السابق ذكرها. ولهذا السبب ظهرت الجمرة الخبيثة «الأنثراكس» كأول سلاح جرثومي يبث الرعب بين مختلف الولايات المتحدة الأمريكية، وفي دول كثيرة في العالم، وبوسائل بسيطة جداً هي رسائل بريدية عادية تحمل مظاريفها مسحوق الأنثراكس.

ومرض الجمرة الخبيثة ليس جديداً كما ظهر بعد أحداث ١١ سبتمبر/ ايلول ٢٠٠١م الإرهابية بأمريكا، إذ إنه يصيب طبيعياً الحيوانات الآكلة للعشب، كالأغنام والماعز والماشية والخيول. أما بالنسبة إلى البشر فإن مرض الجمرة الخبيثة الذي يحدث طبيعياً عقب التعرض لمنتجات حيوان مصاب بالمرض مثل اللحوم الملوثة أو منتجات الحيوانات المصابة بالأنثراكس، كالجلد والصوف والحوافر وفرش الحلاقة المصنوعة من شعر خيول مصابة!! ويلاحظ أيضاً أن البكتيريا بعد نفوق الحيوان أو جفاف منتجاته أو عندما تتغير الظروف الملائمة لنموها وتكاثرها، تدخل في طور سكون حماية لنفسها بتكوين جراثيم ذات تراكيب ومواد كيماوية واقية ضد الظروف البيئة الصعبة، كالحرارة والجفاف ونضوب الغذاء، إلى أن يحين لها مرة أخرى اختراق جسم الإنسان أو الحيوان عن طريق الجروح أو الخدوش أو التنفس أو من خلال الطعام والشراب.

وتسبب العدوى الطبيعية بالأنثراكس «الجمرة الخبيثة» بثوراً منتفخة محمرة لا تلبث أن يتحول مركزها إلى اللون الأحمر المسود مما يعطيها مظهر قطعة الفحم أو مظهر الجرح الناتج من الحرق بالنار، ومن هنا جاءت تسميتها أيضاً بالحمى الفحمية، هذا إذا كانت الإصابة جلدية Cutaneous عن طريق الجروح أو الخدوش، وإذا أُعطي المريض العلاج المناسب بالمضاد الحيوي بمجرد التعرض أو ظهور الأعراض، فإن الغالبية يُشفون من المرض، ولا تتعدى نسبة الوفيات ١٪، لكنها قد ترتفع إلى ٢٠٪ عندما لا تكتشف الإصابة، أو لا يتم تشخيصها إلا بعد أن تكون البكتيريا قد وصلت إلى الدم وسببت تسمماً قاتلاً!!



لويس باستور

إن أخطر طريقة في الحرب الجرثومية هو نشره على شكل رذاذ أو مسحوق ناعم جداً، وبذا فإنه يحدث إصابة تنفسية مثلما تحدث إصابة تنفسية أيضاً بالطرق الطبيعية خاصة بين العاملين في صوف الأغنام المصابة أو التراب الملوث .. إلخ. وهنا يحتاج الفرد إلى استنشاق من ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ من جراثيم الأنثراكس. وقد يحدث المرض خلال ١٢ يوماً بعد التعرض، لكن فترة حضانته هنا قد تكون ساعات قليلة أو يومين على حسب كثافة الجرعة، ولكن هناك بعض المصابين الذين لا يتكشف لديهم المرض إلا بعد ٦ ـ ٨ أسابيع.

وتظهر الأعراض سريعًا بعد أن تنبت الجراثيم الكامنة لتتكاثر وتصنع سموماً Toxins تسبب الأنتفاخ Swelling: Odema والإدماء «النزيف» Bleeding أولا في الصدر والعقد الليمفاوية الصدرية، ولا يتسبب عن المرض التهاب رئوي، ولكن تؤدي الإصابة الكاسحة والصدمة إلى انهيار التنفس والموت.

كما يلاحظ أن نصف الضحايا يصابون بالتهاب سحائي Meningitis أي اصابة الأغشية المحيطة بالمخ والحبل الشوكي. ومعظم هؤلاء يموتون خلال ٢٤ إلى ٧٢ ساعة بعد تكشف الأعراض. وتسبب العدوى التنفسية وفيات قد تصل إلى ٩٥ ٪ أو ١٠٠٪ وخصوصاً في حالة الحرب الجرثومية ذات الكثافة العالية من جراثيم الأنثراكس. ويعدّ استنشاق الأنثراكس خطيراً جداً بشكل غير عادي؛ لأنه حالما تظهر أعراض الجمرة الخبيثة، فإن المرض يتقدم بشكل سريع جداً، وعند هذه النقطة، فإن المضادات الحيوية، والعناية الطبية الفائقة والمكثفة تكون غير قادرة على إعطاء أي مساعدة؛ لأن الموت محتوم، ويبلغ ١٠٠٪ من الإصابات، لأنه ثبت تاريخياً أن هذا التعرض التنفسي للأنثراكس أدى إلى موت ٨٠ ـ ٩٠٪ من المرضى بعد استنشاقهم لجراثيم الأنثراكس. وثمة ملحوظة أخرى هي أن الجمرة الخبيثة التي يوزعها الإرهابيون الآن في أمريكا أوبعض دول العالم إنما هي من النوع العادي الذي لايعد خطيراً جداً موازنة مع ما هو موجود في مخازن الحرب الأمريكية والبريطانية وبعض دول أوروبا وروسيا وربما اليابان؛ لأنها مهندسة وراثياً، ويؤدي التعديل الوراثي لميكروبات الحرب الجرثومية إلى:

ـ زيادة الشراسة المرضية، وتغيير نمط الأعراض ومظاهرها، كما هو معروف طبياً «إكلينيكياً».

ـ تغيير التركيب الأنتيجيني، وهذا يؤدي إلى عدم الدقة في تعرف الميكروب المسبب للمرض.

ـ الأنتيجينات الجديدة تعوق عمل اللقاح، إن كان هناك لقاح أصلاً ليعطي مناعة سابقة للتعرض.

ـ إدخال جينات تحمل أنواعًا غير مسبوقة من التوكسينات القاتلة.

ـ تزويد الجرثومة بجينات للمقاومة ضد المضادات الحيوية مما يجعلها لا تستجيب للعلاج بالمضادات الحيوية بما في ذلك البنسيلين والنتراسايكلين والإينثرومايسين والكلورامفينيكول، ولا حتى سيبروفلوكساسين Ciprofluxacin المعروف اختصاراً باسم «سيبرو» الذي احتكرت إنتاجه شركة باير الألمانية، وقد قامت الدولة التي طورت سلاح الأنثراكس بمعرفة المضاد الحيوي الفعّال في علاجه، وكذلك صنعت له طعمًا «لقاحًا Vaccine» ليعطى للجنود إجبارياً، كما يمكن إعطاؤه للمواطنين عند تعرضهم لهجوم بالأنثراكس.


الحرب العالمية الثانية بداية الحقبة الحديثة للحرب البيولوجية

وعلى ذكر لقاح الأنثراكس تقوم دول كثيرة بتصنيف سلالات الأنثراكس «سلالة ستيرن Sterne» التي استنبطها باستور عام ١٨٨٦م، وقد صمم هذا اللقاح لإعطائه في جرعات على مدى ١٨شهراً بدءاً من اليوم الأول للتعرض للميكروب، ثم بعد أسبوع وأسبوعين وثلاثة أسابيع وثلاثة أشهر و١٢شهراً و١٨شهراً، وهوغير متاح للمدنيين، إنما يعطى للجنود والأطباء والبيطريين عند تعرضهم للإصابة من حيوانات مريضة ويوجد دليل يؤكدأن اللقاح يعطي حماية ضد استنشاق الأنثراكس، حتى ولو أعطي بعد التعرض.

ـ الطاعون :

يسبب الطاعون بكتيريا يرسينيا بيستيز Versinia pestis وهو يعدّ من الأسلحة البيولوجية الخطيرة والمهمة. وعلى الرغم من أن انتشار الطاعون يسبب مخاوف مرعبة؛ لأنه يسبب الموت الأسود Black Death إلا أن المعايير والإجراءات الحديثة للصحة العامة والرعاية الطبية قادرة على منع معاودة

حدوث مثل هذه المأساة Recurrence (على عكس الجدري والأنثراكس!) ومع هذا ، فإنه بطرائق أخرى، يمكن استخدام الطاعون كسلاح جرثومي مسبب لعواقب خطيرة.

وقد حدث ما يقرب من ٤٠٠ حالة من الطاعون طبيعياً في أمريكا في الخمسين سنة الماضية ويحدث المرض في الطبيعة نتيجة لعضة من البراغيث المصابة بالطاعون مما ينتج منه ما يعرف بالطاعون الدبلي Bubonic Plague وما يحدثه من انتفاخ ضخم مؤلم في العقد الليمفاوية، خاصة الإبطية والفخذية، كما قد يسبب التهاباً رئوياً بشكل نادر.

ومن حسن الحظ فإن هذه العقد الليمفاوية المنتفخة غالباً ما ترشد الطبيب إلى تشخيصه الناجح، ومن ثم يبدأ العلاج الفعال بالمضادات الحيوية. ولهذا السبب فإن نتائج العلاج تكون جيدة، ويشفى المصابون مع قلة الوفيات إلى أدنى حد.

وقد بدأت في عام ١٩٤٠م، دراسات لاستخدام الطاعون في الحرب الجرثومية ويسبب نوعُ الميكروب الذي تكتسب الإصابة به بالاستنشاق، ما يسمى الطاعون الرئوي Pneumonic Plague فتحدث إصابة قاسية في الجيوب الهوائية للرئات ومما يميزها مثالياً هو حدوث بصاق دموي Bloody Sputum وتدهور سريع في صحة المريض، ويموت المصابون نتيجة لعدم القدرة على التنفس ووجود الإصابة الميكروبية الكاسحة في الدم، ويمكن أن يعالج المرض بالمضادات الحيوية مبكراً.

وكسلاح جرثومي فإنه من الأفضل أن يتم نشره على هيئة رذاذ، وعقب يوم إلى ٦ أيام من التعرض للميكروب المستنشق، تسبب البكتيريا الطاعون الرئوي، ويشبه الطاعون الرئوي غيره من المتلازمات الرئوية الأخرى التي تسببها أنواع كثيرة من البكتيريا والفيروسات مع ظهور حمى وسعال وبصاق دموي، وغالباً لا يحدث انتفاخ للعقد الليمفاوية مما يجعل تشخيصه صعباً موازنة بالطاعون الدبلي.

وإن لم يعالج الطاعون الرئوي سريعاً فإنه يحدث فشلاً وصدمة في التنفس وفي الكلى.

ومن غير العلاج الفوري بالمضادات الحيوية، فإن الطاعون الرئوي يكون قاتلاً لا محالة خلال يوم واحد إلى ثلاثة أيام من بدء ظهور الأعراض القاسية.

ومع العلاج السريع بالمضادات الحيوية فإنه يمكن تقليل نسبة الوفيات بين المصابين، لكن ثمة مخاطر ترجح استخدام الطاعون الرئوي في الحرب الجرثومية الحديثة بسبب:

- الانتشار الكفء والسريع بالرذاذ.
- الانتشار المباشر من فرد إلى آخر، والعدوى الجماعية عن طريق السعال.
- عدم وجود لقاح أو تطعيم ضده.
- إمكانية تطوير بكتيريا مقاومة للمضادات الحيوية بالهندسة الوراثية!!

بقي من أسلحة الحرب الجرثومية التي يمكن استخدامها للدمار الشامل السم البوتشيولي Botulism الذي تفرزه بكتيريا كلوستريديام بوتشيو لينام Clostridium Botulinum، وهو من أخطر السموم الميكروبية، وأفتكها في القتل، كما تبقى الفيروسات التي تسبب الحميات النزفية Viral haem-orrhagic Fevers مثل إيبولا وماريورج وجنين وهانتاآن، وحمى غرب النيل، وحمى الوادي المتصدع ... إلخ. وكلها تسبب الموت المرعب الدموي.

المراجع

١- شارون بيجلي وكارين سبرنجز: تعقب الجمرة الخبيثة، مجلة نيوزويك الأمريكية المترجمة للعربية العدد ٧٣ في ٢٠أكتوبر ٢٠٠١م.
٢- ماهر البسيوني حسين: الأنثراكس والجمرة الخبيثة، مجلة اليمامة عدد ١٦٧٨ في ٢٠ أكتوبر٢٠٠١م.
٣- ماهر البسيوني حسين: الأنثراكس ، فزع في العالم ورعب في العالم، رسالة الجامعة عدد ٧٤٩ في ٢٠ أكتوبر ٢٠٠١م، وعدد ٧٥٠ في ٢٧أكتوبر ٢٠٠١م.
٤- ماهر البسيوني حسين: الحرب الجرثومية القادمة ... دمار يفوق الأساطير مجلة اليمامة عدد ١٦٧٧في ١٣أكتوبر ٢٠٠١م.
٥- ماهر البسيوني حسين: الفيروسات الممرضة، الفيروسات والإنسان ١٩٩٩م، جامعة الملك سعود الرياض.
٦- ماهر البسيوني حسين: علم المناعة «مترجم»، تأليف دوز الدوير وجونستيوارت ١٩٩٧م، جامعة الملك سعود، الرياض.
٧- ماهر البسيوني حسين: ونرمين ماهر البسيوني: الوجيز في الفيروسات الطبية «مترجم» تأليف مواراج ثمبري ١٩٩٧م، جامعة الملك سعود، الرياض.

8 - Alcame, I.E. Furdamentals of Microbiology .2001. John and Bart Ielt Publishers, London
9 - Mackett, M and J.D. Williamson: Human Vaccines and Vaccination 1995, Bios Scientific Publishers, Oxford.
10 - Mirns etal: Medical Microbiology, 2nd. Ed. 1998, Mosby London.
11 - Murray, P.R. etal, Medical Microbiology.3d Ed.1998. Masby, London.
12 - Sleigh.D and M.C. Timbury Noteson Medical Bacteriology Fifth Ed.1998. Churchill Livingstone, New york.
13 - Zuckerman, A.J. etal: Principles and Practice of Clinical Virology.3d Ed. 1994. John wiley & Sons, New york.

أغنية لفوّاز

محمد جبر الحربي
الرياض ـ السعودية



إلى روح الشاعر العربي الفلسطيني الكبير، شاعر الظل فواز عيد. لجرح فلسطين.

« رأيتك أمسِ والدنيا بدون غطاءْ
فلما عدتَ ردّت روعةَ الأشياءْ
وجاد حقولي المطرُ ..»

فيا فوّاز لو تدري
بأنّ صبيّةً سمراء كنتَ رأيتها يومًا ..
أضاءت ليلة القدْر
تدقّ الصخر بالصخرِ
وأطفالاً، وإن كانوا بذي مَرَخ
وهم زغبُ الحواصلِ، ديمة الدهْرِ
أبابيل الجوانح
والحجارة كالندى تَسري
بأيديهم
ومن سجيل ..
تمحوهم ، أعاديهم.

وتدري ، كيف يافواز لو تدري
بأن صبيّةً عربيّةً حُرّه
أضاءتْ ليلةً مُرّهْ
كليلِ مرَّ بابن القيس مامرّه
وما الجلمود ؟!
ما سرّ الجلاميدِ التي في كفّها كِسرَه؟!
وماكسرى سوى ملكِ
أباحتْ عرشه عُذره
وماعُذره
سوى العشاق والأحلام والفكره
وإن حكموا، وإن ناموا
أقاموا الدولة الكبرى

لو قُلْتُ

علي حسن الشيخ ديب
طرطوس - سورية

لَوْ قُلْتُ سأغزلُ يا حُلْواً … أثوابًا مِنْ ضَوءِ الشمسِ
والشمسُ لِمَخْدَعِهَا تسعى … بحَيَاءِ عَرُوسٍ في عُرْسِ
لألاءُ الثوبِ بِهِ دِفْءٌ … وَرَهَافَةُ وَقْعٍ كالهمسِ
لا تَهْزَأْ مِنْ قَولِ مُحِبٍ … قَدْ بَاحَ بأحلامِ النَّفْسِ
لو قُلْتُ: أزَيِّنُ أثوابَكْ … بِجَواهِرَ مِنْ عِطْرِ اللَّيْلَكْ
وَرَجَوْتُ النَّسْمَةَ أن تَهْدا … إنْ مَرَّتْ أوْ طافتْ حَولَكْ
أوْ قُلْتُ سأرسمُ أحلامَكْ … لِتُجَمِّلَ نَشْوَتُها لَيْلَكْ
صَدِّقْ، واسْتَخْبِرْ أحلامي … تُنْبِئْكَ بأنّي كُلّي لَكْ
لو قُلْتُ: سأبْدِعُ ألوانًا … مِنْ بوحٍ وَرُوْدٍ مِنْ سُكَّرْ
وأوَشِّي مِنْ تَرَفِ الدُّنْيَا … مَا كَانَ لديكِ بِكِ يَسْكَرْ
لا يَخْطُرُ أنّي مِهْذَارٌ … فأنَا أتمنى، أتَصَوَّرْ
أنَا أعلمُ أنّي كالنَّاسِ … لكنْ أهواكِ أنا أكْثَرْ
لو قُلتُ: أخَبِّئُ مَبْسَمَهَا بي … أحلاهُ وأوْدِعُهُ النجمةْ
وأرتِّلُ للحُبِّ صَلاةً … مِمَّا يُسْتَعْذَبُ في البسمةْ
لِتَكُوني يا حُلْمَ خَيَالِيْ … في فَرَحِ الحُبِّ وَمَا ضَمَّهْ
يا أحلى حُلْوَاتِ الدُّنْيَا … لِمَ يَنْسَى مَنْ يَعْشَقُ إسْمَهْ؟
لَوْ قُلْتُ: تَوالَدَ في صدري … شَيْءٌ يجعلني.. لا أدري
هل يَرْقُصُ بي فَرَحُ الدُّنْيَا … أم ذاكَ سَنَا النُّورِ الدُّرِّي؟
أم زاغَ شُعَاعٌ مِنْ وَجْدٍ … فأثارَ مَزَامِيرَ السِّحْرِ؟
واجْتَاحَ كَيَاني رَوْحٌ مِنْ … آيَاتِ السُّكْرِ بلا خَمْرِ
لَوْ قُلْتُ حَلُمْتُ بِكِ طَيْفًا … يَتَرَسَّلُ في بُرْدٍ وَرْدِيْ
وتَجَلَّى أسطورةَ حُبٍّ … يُبْدِي مَا يَجْمُلُ أن يُبْدِيْ
وَدَنَا يَتَنَشَّقُ أنفاسي … وَتَوَسَّدَ في الرؤيا زَنْدِيْ
هل تعني رُؤيَايَ شَيْئًا؟ … يا مَنْ ألقاكِ على البُعْدِ!

طيب العيش

أبو الطيب الرُّندي*

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ
فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدْتُها دُوَلٌ
من سَرَّهُ زمنٌ ساءَتْهُ أزمانُ

وهذهِ الدّارُ لا تُبقي على أحدٍ
ولا يَدومُ على حالٍ لها شانُ

يُمزِّقُ الدَّهرُ حتْماً كلَّ سابغةٍ
إذا نَبَتْ مَشْرَفيّاتٌ وخِرْصانُ

ويَنْتَضي كلَّ سيفٍ للفَناءِ ولَوْ
كانَ ابنَ ذي يَزَنٍ والغِمْدَ غُمْدانُ

أين الملوكُ ذوو التِّيجانِ من يَمَنٍ
وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأيْنَ ما شادَهُ شَدّادُ في إرَمٍ
وأينَ ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانُ

وأينَ ما حازَه قارونُ من ذَهَبٍ
وأينَ عادٌ وشَدّادٌ وقَحْطانُ

أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ لهُ
حتى قضَوْا فكأنَّ القَومَ ما كانوا

وصارَ ما كانَ من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ
كما حَكَى عن خَيالِ الطَّيفِ وَسْنانُ

دار الزمانُ على دارا وقاتِلِه
وأمَّ كِسرى فما آواهُ إيوانُ

كأنَّما الصَّعْبُ لم يَسْهُل له سَبَبٌ
يوماً ولا مَلَكَ الدُّنيا سُليمانُ

فجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنَوَّعَةٌ
وللزَّمانِ مَسَرّاتٌ وأحزانُ

وللحوادثِ سُلوانٌ يُهوِّنُها
وما لِما حلَّ بالإسلامِ سُلوانُ

دَهى الجزيرةَ أمْرٌ لا عَزاءَ لَهُ
هَوى لَهُ أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ

أصابَها العَيْنُ في الإسلامِ فارتُزِئَتْ
حتى خَلَتْ منه أقْطارٌ وبُلْدانُ

فاسألْ بَلَنْسِيَةً ما شأنُ مُرْسِيَةٍ
وأينَ شاطِبَةٌ أمْ أينَ جَيّانُ

وأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العُلومِ فكمْ
من عالمٍ قد سَما فيها له شانُ

وأينَ حِمصٌ وما تَحْويهِ من نُزَهٍ
ونَهْرُها العَذْبُ فيّاضٌ ومَلآنُ

قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما
عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركانُ

تبكي الحَنيفيَّةُ البيضاءُ من أسَفٍ
كما بكى لِفراقِ الإلفِ هَيْمانُ

على ديارٍ منَ الإسلامِ خاليةٍ
قدْ أسْلَمَتْ ولها بالكُفرِ عُمْرانُ

كذا طُلَيْطلةُ دارُ العلومِ فكم
مِنْ فاضلٍ قد سَما فيها لَهُ شانُ

وأين غِرناطةٌ دارُ الجهادِ وكَمْ
أُسْدٍ بها وَهُمُ في الحَرْبِ عِقْبانُ

وأين حمراؤُها العُليا وزُخْرُفُها
كأنَّها في جِنانِ الخُلدِ عَدْنانُ

والماءُ يجري بساحاتِ القُصورِ بها
قد حَفَّ جَدْوَلَها زَهْرٌ ورَيْحانُ

ونَهْرُها العَذْبُ يحكي في تَسَلْسُلِه
سُيوفَ هِنْدٍ لها في الجَوِّ لَمَعانُ

وأين جامِعُها المَشْهورُ قد تُلِيَتْ
في كُلِّ وَقْتٍ بهِ آيٌ وفُرقانُ

وعالمٌ كان فيه للجهول هُدًى
مدرّسٌ وله في العِلمِ تِبيانُ

وعابدٌ خاضعٌ للَّهِ مبتهلٌ
والدَّمعُ منهُ على الخدَّين طوْفانُ

وأين مالَقَةٌ مَرْسى المراكب كم
أرْسَت بساحتِها فُلكٌ وغِربانُ

وكَمْ بداخلِها من شاعرٍ فطِنٍ
وذي فُنونٍ له حِذْقٌ وتبيانُ

وكم بخارِجِها من منْزَهٍ فرجٍ
وجَنَّةٍ حَوْلَهَا نَهرٌ وبسْتانُ

وأين جارتُها الزَّهرا وقُبَّتُها
وأين ياقُوْمُ أبطالٌ وفُرسانُ

وأين بَسْطةُ دارُ الزَّعفرانِ فهل
رأى شبيهًا لها في الحُسْنِ إنسانُ

وكم شجاعٍ زعيمٍ في الوَغى بطلٍ
بَدا لهُ في العِدا فتْكٌ وإمعانُ

كم جَنْدلَتْ يَدُهُ من كافرٍ فغدا
تبكيه مِنْ أرْضِهِ أهلٌ وولدانُ

حيثُ المساجِدُ قد صارتْ كنائسَ ما
فيهنَّ إلاَّ نواقيسٌ وصُلْبانُ

حتى المحاريبُ تَبكي وهي جامدَةٌ
حتى المنابِرُ تَرْثي وهيَ عِيدانُ

ياغافِلاً ولَهُ في الدّهرِ مَوعظةٌ
إنْ كُنتَ في سِنةٍ فالدّهرُ يَقْظانُ

وماشِيًا مَرِحًا يُلْهيهِ مَوْطِنُهُ
أبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرءَ أوطانُ

تلكَ المُصيبَةُ أنسَتْ ما تَقدَّمَها
وما لها معَ طُولِ الدَّهرِ نِسْيانُ

يا أيُّها المَلِكُ البَيْضاءُ رايَتُهُ
أدرِكْ بسَيْفِكَ أهلَ الكُفْرِ لا كانوا

ياراكِبينَ عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرةً
كأنَّها في مَجالِ السَّبقِ عُقْبانُ

وحامِلينَ سيوفَ الهِنْدِ مُرهَفَةً
كأنَّها في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ

وراتعينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ
لهم بأوطانِهِمْ عِزٌّ وسُلطانُ

أعِندَكُمْ نبأٌ من أهلِ أندَلُسٍ
فقد سَرى بحديثِ القَومِ رُكْبانُ

كَمْ يسْتَغيثُ بنو المُسْتَضْعَفينَ وهمْ
أسرى وقتلى، فما يَهْتَزُّ إنسانُ

ماذا التَّقاطعُ في الإسلامِ بينَكُمْ
وأنْتُمْ ياعِبادَ اللّهِ إخوانُ

ألا نُفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ
أما على الخَيْرِ أنصارٌ وأعْوانُ

يا مَنْ لِذِلَّةِ قومٍ بعدَ عِزِّهِمُ
أحالَ حالَهُمُ كُفْرٌ وطُغْيانُ

بالأمسِ كانوا ملوكًا في منازِلِهِمْ
واليومَ هُمْ في بلادِ الكُفْرِ عُبْدانُ

فلو تَراهُم حَيارى لا دليلَ لَهُمْ
عليهِمُ من ثِيابِ الذُّلِ ألوانُ

ولو رأيتَ بُكاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمُ
لَهالَكَ الأمْرُ واسْتَهْوَتكَ أحْزانُ

يارُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بيْنَهُما
كما تُفَرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ

وطَفْلَةٍ مارأتْها الشَّمسُ إذ بَرَزَتْ
كأنَّما هيَ ياقُوتٌ ومَرجانُ

يقُودُها العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً
والعَيْنُ باكِيَةٌ، والقَلْبُ حَيرانُ

لِمِثْلِ هذا يَذُوبُ القلبُ من كَمَدٍ
إنْ كانَ في القَلْبِ إسْلامٌ وإيمانُ

الهوامش

* الرُّنْدي: هوصالح بن يزيد بن صالح ...بن شريف الرُّنْدي، ويكنى بأبي البقاء وأبي الطيب وشهرته بأبي البقاء أكثر.
وهو أديب وشاعر وناقد، قضى معظم أيامه في مدينة رُندة، واتصل ببني الأحمر بغرناطة، ومدحهم ونال جوائزهم. وكان خاتمة الأدباء في الأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره، فقيهًا حافظًا فرضيًا. توفي في أواخر القرن السابع الهجري، وكان يميل إلى مجاراة الفحول في شعره كالمتنبي، ويعارض قصائدهم.
والقصيدة صرخة أطلقها الرندي لاستنهاض الهمم للدفاع عن الأندلس ومدنها التي كانت تتساقط واحدة إثر الأخرى.
[مختارات من الشعر الأندلسي، د.محمد رضوان الداية، المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـ،١٩٦٩م].

خمس قصص قصيرة جدًا

فريد محمد معوض
المحلة الكبرى - مصر

رجوع

كانوا مجتمعين على حافة الترعة حين مر عليهم صبيّ، قال أحدهم وهو يشد لباس الصبي إلى ركبتيه:

- تعال ياشكري .. غنّ .. أضحكنا يارجل.

غنّى شكري:

- «وعايزنا» نرجع «زي»زمان!

صوته جميل حين ينسى «العبط»، وحين رجع الزمان رأوا أباه قادماً وقد فاح العطر من بذلته، كان الوحيد في القرية الذى يرتدي بذلة، كان ضمن الذين عادوا سالمين من الجبهة، يكتب العقود، ويورد البنود، ويقضي بين الناس بالقسطاس، وكانت زوجته التي تزوجت الآن بغيره بعد أن أصابه الشلل في ركبتيه، تمسك بذراعه وفي يدها وردة، وعلى شفتيها بسمة، وعلى «ميدالية» فوق صدرها كان اسمه.

- «قووول» للزمان ارجع يازمان

استمر الولد شكري في الغناء، وفي هذه المرة لم يضحك أحد، ولم يقذفهم شكري بالتراب.

طابع

كان صوت «الختم» وهو يدق فوق الخطابات مسموعاً، وكان ايقاعاً اعتاده موظفو حركة البريد، ثم توقف هذا الايقاع فجأة فقد لمح «نجيب» رسالة غريبة على غلافها «طابع تمغة» بدلاً من طابع بريد، الفرق لاشك كبير بين التمغة والبريد، أمسك الرسالة، تأملها كانت وجهتها السعودية، وعلى الناحية الأخرى «أمك صابرين عبدالملك» والخط المكتوب خمّن نجيب أنه لطفل صغير، تجسد الوجهان أمام عينيه - وجه العجوز ووجه الطفل، ارتسمت على كل وجه منهما ابتسامة تليق بطبيعة المرحلة، وتجلت أمامه الورقتان، طابع التمغة وطابع البريد، كلاهما يلتصق ..وهذا وذاك بخمسين وثمنهما تأخذه الحكومة، والسيدة لم تضرب اللائحة، ترى هل يترك الرسالة تطير نحو وجهتها، وهل تخسر الحكومة إن طارت، ترى هل يلقى بها في المهملات، ولم يطل تفكير نجيب كثيراً، رفع يده بالخاتم ونزل فوق طابع التمغة فطمسه واختلطت المواد بالأحبار، وظل الختم هو الواضح الجلي، واطمأن نجيب أن المدير مهما اجتهد فلن تظهر له الموارد من خلف الأحبار، واستمر إيقاع نجيب في صوت دقات الخاتم الذي اعتاده موظفو الحركة.

عفريت

في مدخل مقابر قريتنا عفريت، طوله بارتفاع النخلة، ورأسه رأس العجل، وعينه مثل قلب «راكية» النار، شافه ابن حسّان وابن بيومي، وابن المُفْتري وآخرون ، والجميع يؤكدون أنه يردد كلمة واحدة.



ابن حسان الذي أكل منه الشقاء يقول إنه يقول: مَرار .. مَرار.. مَرار

وابن بيومي الذي جف عوده وماتت يده من قبضة الفأس يقول: إنه يقول: حرام ..حرام.. حرام

أما ابن المفترى الذي وصل مؤخراً من البلاد البعيدة فيضحك ويقول: إنه يقول: دولار .. دولار.. دولار.

أولاد بلدنا يوافقون ابن حسان وابن بيومي، والكثيرون يصدقون ابن المفترى إذا أقبل ويكذبونه إذا أدبر أوغاب، ولكن الجميع يؤكدون أن في مدخل مقابر قريتنا عفريتاً طوله بارتفاع النخلة، ورأسه رأس العجل، وعينه هي قلب راكية النار.

دينار

في قلب جواز السفر عثرت جدتي على ورقة خضراء وصاحت: دُرَر دُرَر، كانت الورقة الخضراء ديناراً عراقياً، وكانت الدرر التي تعنيها جدتي هي الدولار، وكان للدينار وجهان ـ وجه لنخل العراق الذي كان يملأ أرضها خضرة وارتفاعاً، ووجه ابن الهيثم الذي امتد شروقه في بلاد الرافدين وماحولها علماً، لاحظت جدتي شرودي فكفت عن صياحها وقالت: يعني «مش» دُرر؟!

أومأت موافقاً ...

كنتُ هناك لكنني أتيت قبل الحصار، ترى أما زال النخل واقفاً، وحدائق بغداد وأشجار النارنج، والشوارع التي تضحك بالفوسفور، والأغاني البغدادية التي تزفك في الطريق، انقطعت السبل إليك ياعراق ..آه

أفقت على صوت جدتي، كانت مازالت واقفة شاخصة كنخلة عجوز قالت !

يعني ينفع؟

ولا أدري بماذا أجيبها.

قصة قصيرة

قرأ منها قليلاً، تأملني، ابتسَم، ابتسمتُ، ثم عاد يقرأ، فرح أستشعره تتمدد القاهرة في قلبي، أقرأ وجهه، أول مرة أراه أمامي، فرغ منها، ابتسَم، ابتسمتُ، نزع نظارة وارتدى أخرى، ودخلت موجة هواء باردة أرسلها «عبدالخالق ثروت*» ضربت على المكتب قصصاً وأشعاراً، للمها الساعي ..

انتبهت للجالسة ورائي، كيف لم أرها، كانت تقلب أوراقاً ..

حين ابتسم لم أبتسم لكني رأيتها تبتسم بدلاً عني.

* عبدالخالق ثروت ... اسم شارع بالقاهرة.

مدير الكرملين

إيفيلين وُو

ترجمة: **معروف سلامة**

إربد - الأردن

هذه القصة رواها لي في وقت مبكر من صباح أحد الأيام مدير أحد المطاعم الشهيرة في باريس، والحقيقة أنه بدا لي صادقًا بكل ما قال.

ولن أخبركم عن اسم الرجل واسم مطعمه، ولكنني سأدعو الرجل ببوريس ومطعمه بالكرملين.

فالكرملين هذا له مكانته، فعندما تدخل إلى هناك يأخذ العامل القوقازي الأصيل ذو الملامح الصارمة قبعتك ومعطفك، ويذكرك بهيئته وحذاء الركوب ذي المهماز، وتلك الأجزاء التي لم تخفها اللحية والندوب بوجه طالب ألماني في فترة ما قبل الحرب.

المدخل مُزين بستائر حمراء، وهناك أقمشة حيكت على شكل خيمة. في الداخل توجد فرقتان موسيقيتان: الأولى تعزف موسيقى الغجر والثانية تعزف حسب طلب الحضور، وكلما أراد أحد أن يرقص.

النادلون من ذوي القامات الطويلة يرتدون بزات روسية مزركشة، وعندما تراهم يتنقلون بين الموائد يحملون أسياخ الشواء وقد شكت فيها قطع اللحم ودوائر البصل، توقن أنهم ضباط سابقون من الحرس الإمبراطوري.

بوريس هذا شاب طويل القامة يتجاوز طوله ست أقدام ويرتدي بلوزة وبنطلونًا واسعًا وحذاء عاليًا، يتنقل بين الموائد ليتأكد أن كل شيء يسير بشكل جيد، العمل يبلغ ذروته هنا من الثانية بعد منتصف الليل حتى طلوع الفجر، خلال ذلك يظل الكرملين مكتظًا بالزبائن. في تلك اللحظة كان الرواد الأمريكيون يبدون منزعجين وغير راضين وهم ينظرون إلى فواتيرهم، ويتمتمون بينهم وبين أنفسهم، ويبدو أنهم يقصدون بوريس «بأنه لا بد أن يصبح ثريًا من وراء هذه الفواتير». وهذا شيء حقيقي، فلقد قال لي مرة: إن الأذواق تتغير سريعًا في «مونتمارت» ولكن إذا بقيت شعبية الكرملين هذا إلى موسم آخر فسأتقاعد في فيلا على الريفيرا.

لقد حظاني بوريس بالجلوس معي، ودعاني لتناول كأس، وبدأ يسرد لي قصته...

أبوه كان جنرالاً عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وبعثرت بقايا القوات الملكية التي كانت تتلقى بعض الإسناد على استحياء من الحلفاء السابقين في حربها ضد البلاشفة. كان بوريس في الثامنة عشرة من عمره عندما قتل والده، أما والدته فكانت قد هربت إلى أمريكا، وأما الكلية العسكرية فقد تم إغلاقها.

قرر بوريس مع عدة أشخاص من زملائه الانضمام إلى آخر فرقة ملكية تقاتل ضد البلاشفة تحت قيادة «كولتشاك» قرب خليج سيبيريا.

لقد كانت هذه القوة أغرب ما تكون، خليطًا شاذًا من الفرسان السابقين والبحارة الذين تركوا سفنهم، وضباطًا تمردت وحداتهم، وجنود حاميات، وضباطًا معاونين ومحاربين قدامى من أيام الحرب الروسية اليابانية، وبجانب كل هؤلاء كان هناك وحدات من قوات الحلفاء الذين يبدو أنهم قد أرسلوا بناء على قرارات عشوائية، وتم نسيانهم هنا.

كانت هناك مجموعة من البريطانيين، وبعض جنود المدفعية الفرنسيين، وضباط ارتباط عسكري، وملحقون عسكريون للقيادة العامة، ومن بين هؤلاء كان هناك ضابط خيالة فرنسي يكبُر بوريس ببضع سنوات، وبما أن الفرنسية كانت لغة مفضلة لدى الطبقة الروسية في فترة ما قبل الحرب صار بوريس وهذا الضابط صديقين مقربين يدخنان ويثرثران معًا عن باريس وعن موسكو في فترة ما قبل الحرب.

بعد انقضاء بضعة أسابيع على بقاء بوريس في معسكر

كولتشاك أصبح من الواضح أن الأمور ستؤول إلى كارثة، ونتيجة ذلك فقد اجتمعت مجموعة من الضباط، وقرروا أن الخيار الوحيد أمامهم هو الوصول إلى الساحل الشرقي، ومحاولة الهرب إلى أوروبا. كان من اللازم ترك بعض القوات لتأمين هذا الأمر، ووجد بوريس ورفيقه الفرنسي نفسيهما ضمن القوة التي أمرت بالبقاء لتغطية هروب أولئك الضباط ومن معهم. بعد أن انتهت المهمة وجدت هذه القوة الصغيرة نفسها بلا كيان أو تنظيم، لذلك قرر بوريس ورفيقه الفرنسي أن يفرا بحياتهما، كانا في حالة اليأس المطبق، فقد



فقدا أمتعتهما، ووجدا نفسيهما في أرض قاحلة تحت سيطرة قوات عدوة، وتسكنها جماعات بدائية من أصول آسيوية.

كان الضابط الفرنسي يرى أن مسألة هروبه في هذا الوقت قد تجلب له المتاعب، إذ كان لا يزال للزي العسكري الروسي بعض احترام في قرى الريف الروسي النائية، لذلك فقد أعاره بوريس معطفه ليلبسه فوق زيه العسكري، وسارا يخوضان في الثلج يلتمسان طريقهما باتجاه الخطوط الأمامية.

وصلا في نهاية الأمر إلى مقاطعة تحت سيطرة اليابان، وكان الروس هناك محط اتهام. لقد كان هدف الفرنسي هو الوصول إلى أقرب قنصلية، أما بوريس فكان هدفه اللحاق بوالدته في أمريكا.

أخبره رفيقه الفرنسي أنه عليه العودة إلى باريس لتسليم نفسه، كان من اللازم أن يفترقا. كان موقف وداعهما مؤثراً وافترقا على وعد أن يرى أحدهما الآخر عندما تستقر الأمور، كان كل منهما يسأل في قرارة نفسه عن إمكانية تحقيق هذا الأمل.

انقضت سنتان، وفي يوم من أيام الربيع وجد شاب روسي رثّ الثياب نفسه في باريس، وفي جيبه ثلاثمئة فرنك فقط. كان كل متاعه في الدنيا هو ما يحمله في حقيبته الصغيرة. لقد كان شخصاً لا يمت بصلة إلى بوريس ذاك الشاب المهذب الذي كان قد تخرج في الكلية العسكرية، وانضم إلى معسكر «كولتشاك». لقد جرب أمريكا وشاهدها على حقيقتها مناقضة لما كان يتخيله على أنها أرض الفُرص وتحقيق الأحلام.

لقد باعت والدته مجوهراتها ومعظم ما أحضرته معها إلى باريس، وبدأت في الحال مشروعاً صغيراً لخياطة الثياب.

لم يكن هناك أي بادرة عن إمكانية الحصول على أي فرصة عمل حقيقي يستقر بوريس من خلالها، لقد تقلب في عدة وظائف ولمدى ثلاثة أشهر. قرر بوريس بعد ذلك أن يذهب إلى إنجلترا. في إنجلترا عمل بوريس مؤقتاً نادلاً، وسائقاً، وراقصاً، ثم عاملاً على سطح سفينة، كان على وشك أن يموت جوعاً، أخيراً توصل إلى صديق قديم لوالده، سكرتير أول سابق في السلك الدبلوماسي، ثم استقر به المقام حلاقاً. لقد نصحه هذا الصديق أن يجرب حظه في باريس فهناك جالية روسية كبيرة قد استقرت هناك، وتمنى له التوفيق.

لقد كان صباحاً ربيعياً من صباحات باريس، وكان شارع الشانزليزيه يعج بآخر ما أنتجته محلات مصممي الأزياء وجد بوريس نفسه غريباً بلباسه الرخيص، ولا يتوافق مع هذه المدينة الجديدة عليه. كان كل ما يحمله هو ما يعادل ثلاثمئة فرنك.

لقد كان بوريس جائعاً، ولم يكن يدري إلى ماذا سيؤول إليه حاله. قرر في تلك اللحظة أن يتناول طعام الغداء، إن أي رجل إنجليزي قد يجد نفسه في ورطة كهذه سيحسب حسابه جيداً قبل الإقدام على أي خطوة، فمن البديهي أن

يحسب كم باستطاعته أن يتدبر أموره بمثل هذا المبلغ حتى إيجاد عمل.

كان بوريس يقلّب الأمور في رأسه، إن أقصى ما يستطيع عمله هو الصمود لأسبوعين أو ثلاثة وبعد ذلك سيجد نفسه بلا مال أو عمل وقد كبر أسبوعين أو ثلاثة.

لماذا لا يبدأ الآن. هو في باريس، وكثيراً ما قرأ وسمع عنها، وقرر ما نواه أن يتناول وجبة طعام جيدة، وليترك الأمور للظروف.

لقد سمع والده مرة يتحدث عن مطعم يدعى «لارن». لا يعرف عنوان ذلك المطعم لذلك فقد استقل سيارة.

دخل المطعم، وجلس على أحد المقاعد الحمراء، رمقت النادلات ملابسه بنظرة عدم ارتياح، نظر إليهن ولم يبد أنه أحس بالحرج فإحساسه هنا بالراحة أكبر مما كان يحسه في مطاعم نيويورك ولندن.

وبنظرة إلى قائمة الطعام عرف أن هذا المكان لا يرتاده الفقراء عندما شرع بطلب طعامه كانت ردة فعل النادل قد تغيرت تجاهه، فقد لاحظ النادل أنه من الناس الذين اعتادوا هذه الأطعمة.

أمر النادل أن يحضر له كافياراً طازجاً، وكعكة محلاة، وشرب زجاجة نبيذ «كلاريه»، وكأساً من شامبانيا معتقة، وأخيراً انتقى علبة سيجار بعد أن تفحص مجموعة منها.

بعد أن انتهى من طعامه طلب قائمة الحساب،ودفع ٢٦٠ فرنكاً، وللنادل ٢٦ فرنكاً كبقشيش، ودفع ٤ فرنكات للبواب الذي احتفظ له بقبعته وحقيبته، وكان قد دفع ٧ فرنكات للسيارة.

بعد نصف دقيقة كان بوريس يقف على زاوية الشارع، لقد كان غداءً رائعاً وهو غير نادم على ما فعل.

وبينما هو يقف في مكانه يُفكر في ما عليه عمله شعر أن هناك من يُمسك ذراعه من الخلف، عندما التفت رأى رجلاً فرنسياً في كامل أناقته، كان الرجل قد خرج الآن من مطعم لارن.

تمعّن بوريس في الرجل وعرفه، كان صديقه الفرنسي.

لقد كنت أجلس على الطاولة المجاورة لك، قال الرجل لبوريس وسكت ثم تابع: لقد كنت منهمكاً على طعامك.

قال بوريس: يبدو أنها ستكون وجبتي الأخيرة فترة من الزمن.

ضحك الفرنسي وعدّ ما قاله بوريس دعابة.

وبينما كانا يتمشيان ويثرثران، أخبر الفرنسي بوريس أنه انتهى من خدمته في الجيش، وهو الآن يعمل مديراً كبيراً في شركة للسيارات.

وأنت قال الفرنسي لبوريس: إنني مسرور أنك في وضع جيد.

جيد، قال بوريس، في هذه اللحظة إن كل ما أملكه هو ثلاثة فرنكات.

قال الفرنسي: ياصاحبي إن من يملك ثلاثة فرنكات لا يأكل الكافيار. وكأنه قد لاحظ ملابس بوريس الرثة، لقد خبره بالزي العسكري. الآن عرف أن مثل هذه الملابس لا تليق بالأشخاص المرموقين.

ياصديقي العزيز .. أرجو أن تسامحني على ضحكي، لم أكن أعرف، تعال وتعشَ عندي الليلة في شقتي، وسنرى ما يمكن أن نفعل.

ولذلك ... تابع بوريس سرد قصته لي: هأنذا قد أصبحت مديراً للكرملين لو لم أكن قد ذهبت إلى مطعم «لارن» في ذلك اليوم لكان من المؤكد أننا ما كنا التقينا أنا وأنت هنا.

لقد أخبرني ذلك الفرنسي أنه بإمكاني أن أعمل معه في شركة السيارات، ولكنه قال بعد ذلك: إن من يصرف معظم الثلاثمئة فرنك التي يمتلكها على وجبة طعام مقدر له أن يدير مطعماً.

لذلك فقد زودني بالمال، ولجأت إلى بعض أصدقائي القدامى، وعملنا معاً، والآن أنت ترى، «قال ذلك وهو يلتفت حواليه»، إنني رجل ميسور إلى حد ما.

توقف بوريس عن الكلام ونظر باتجاه آخر الزبائن، كانوا قد دفعوا حسابهم وهمّوا بالمغادرة، قام بوريس من مكانه على مضض تجاههم وحياهم بانحناءة خفيفة وهم يغادرون.

كان ضوء النهار قد أضاء الغرفة حيث كنا نجلس عندما أُزيحت الستائر عن النوافذ، وفجأة بدت كل قطع الأثاث على حقيقتها، متنافرة تبعث على السأم.

كانت النادلات يهرعن إلى المكان إلى حيث يبدلن ملابسهن المزركشة.

لم يكن بوريس يفهم ما يدور في رأسي لحظتها ...

قال: أنا أعرف أن تكون روسياً أو غيره، ذلك لا يهم. إن أي شيء لا يساوي أن يفقد الإنسان وطنه حتى امتلاك مطعم شهير في باريس.

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣١٤)

شعبان ١٤٢٣هـ / أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٢م.

الفائز الأول: **هبة غازي الكيلاني ـ عمان ـ الأردن**

الفائز الثاني: **عادل حمدي سليمان ـ العريش ـ مصر.**

الفائز الثالث: **غيثاء قصاب ـ حلب ـ سورية.**

الفائز الرابع: **سعيد ناصر عبدالله ـ صنعاء ـ اليمن.**

الفائز الخامس: **محمد الحبيب سنان ـ المهدية ـ تونس.**

الفائز السادس: **كمال سويلمي ـ نانسي ـ فرنسا.**

الفائز السابع: **عبدالحميد محمد عبدالحميد الشافعي ـ ميت غمر ـ مصر.**

الفائز الثامن: **شادية عبدالله عوض ـ عمان ـ الأردن.**

حل مسابقة العدد (٣١٤)

(١) هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزّزٍ وتمنّعِ

قائل البيت هو: ابن سينا.

(٢) ذهب الراين: أوبرا من شعر وموسيقى ريتشارد فاجنر .

(٣) ستراتيغرافيا: علم يدرس الصخور الرسوبية.

(٤) بجاية: مدينة جزائرية على البحر المتوسط.

(٥) السميدع: من أسماء السيف، والرجل الشجاع.

أسئلة مسابقة العدد (٣١٧)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

من قائل هذا البيت: مساكينُ أهلُ العِشْقِ ما كنت أشتري جميعَ نفوسِ العاشقين بدرهم؟!

☐ نُصيب بن رباح ☐ أبوصخرِ الهذلي.

بنديتوكروتشي:

☐ رسام إيطالي عني بتصوير الموضوعات الأسطورية

☐ فيلسوف ومؤرخ وسياسي إيطالي. قاوم الفاشية، وعمل على تحرير إيطاليا منها.

الأنيمولوجيا:

☐ علم يعنى بدراسة نقص الدم لدى الإنسان ☐ علم الرياح وظواهرها.

الكوْريليون:

☐ رقم مؤلف من واحد وإلى يمينه ١٥صفرًا في (أمريكا وفرنسا) أو ٢٤ صفرًا في (بريطانيا وألمانيا)

☐ رقم مؤلف من واحد وإلى يمينه ٥٠ صفرًا. استخدم هذا الرقم في تطبيقات الحاسب الآلي.

المِشنا:

☐ مجموعة القوانين غير المكتوبة التي جمعت نحو عام ٢٠٠ ب.م والتي تشكل أساس التلمود

☐ إله الخصب والزراعة في الديانة الهندوسية.

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....

■ نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى:	١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية:	٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة:	٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة:	٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة:	٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة:	١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة:	(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة:	مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١



اللغة العربية وأسباب ضعفها



فرسالتي هذه المرة إلى محبوبتي الفيصل الغراء تأتي تعقيباً على مقال «اللغة العربية والمسيرة التعليمية في الوطن العربي» للأخ الكريم خاشع بن شيخ إبراهيم علي من القامشلي بسورية الشقيقة. وهذا المقال الذي نشر في العدد الصادر في جمادى الآخره ١٤٢٣هـ/ يوليو أغسطس ٢٠٠٢م، له صلة وثيقة بمقال نشر في العدد السابق له مباشرة بعنوان «تحفيظ القرآن ومستقبل الفصحى» للأخ الدكتورظهور أحمد أظهر من لاهور بباكستان الإسلامية، وتأتي هذه الصلة من وجهة نظري من أن الكاتبين نحوا منحى يكاد يكون واحداً؛ إذ ركزا في قضية اللغة العربية وما آلت إليه الحال والضعف اللذان نخرا في جسمها كالسوس الذي أخذ ينخر في الخشب حتى أحاله إلى هشاشة.

وبادئ ذي بدء أقول:إن القرآن الكريم، وهو كتاب الله الخالد، والمحفوظ إلى نهاية الدنيا، نزل بلسان عربي مبين، وما دام قد نزل القرآن باللغة العربية فهي محفوظة - إن شاء الله - بحفظ هذا الكتاب الخالد، مهما حاول المغرضون والمتشدقون الذين يحاولون الاعتداء عليها بمحاولة الاستعانة بلغات أجنبية في معاملتهم وتعليمهم، ومهما افتخر هؤلاء بتحدثهم بهذه اللغات البعيدة عن هويتنا العربية الإسلامية الأصيلة.

وأقول:إن أسباب الضعف الذي يهدد مستقبل اللغة العربية كثيرة جداً، ومنها:

أن تعليم اللغة العربية في مدارسنا أصبح على درجة كبيرة من الضعف بحيث تؤدى حصة اللغة العربية بطريقة معقدة بعيدة عن التبسيط والتسهيل على التلاميذ، فالنحو معقد ودائم التعقيد، فينقله المدرس إلى تلاميذه من الكتب القديمة الصفراء البعيدة كل البعد عن أذهان الصغار في عصرنا الحاضر إلى غير ذلك من طرائق التدريس التي عفا عليها الزمان. وأصبح التلميذ يعاني في حصة اللغة العربية. وتنتهي المرحلتان الإعدادية والثانوية دون أن يلم بأي شيء من قواعد اللغة العربية، ثم ينتهي به المطاف إلى الجامعة، وليس هناك دراسة للغة العربية على الإطلاق، إلا في بعض الكليات التي لا تستطيع أن تصحح ما أفسده مدرسو اللغة العربية في المراحل التعليمية الأولى. ويتخرج بعد ذلك الطالب في الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب باللغة العربية الفصحى جملة أو عبارة واحدة صحيحة!!.

بالإضافة إلى أن حصة التربية الدينية اليتيمة، وأنا أقول اليتيمة؛ لأنها لاتسمن ولا تغني من ظمأ الطلاب إلى معرفة أمور دينهم، حصة واحدة في الأسبوع لا تكاد تطفئ ظمأ الطلاب إلى معرفة الفرائض الدينية، وأركان الدين الإسلامي من صلاة وزكاة وصوم وحج إلى بيت الله من استطاع إلى ذلك سبيلا، بالإضافة إلى أن هذه المادة ليست إجبارية بمعنى أنها ليست مادة نجاح ورسوب حتى يهتم بها التلاميذ كبقية مواد المنهج، بالإضافة إلى ذلك أن الذين يقومون على تدريسها للتلاميذ ليسوا من المتخصصين من المدرسين والذين تلقوا تعليماً مهماً في معاهد العلم المتخصصة كالأزهر الشريف أو كلية دار العلوم أو غيرهما من المعاهد التي تعنى بأمور الدين الحنيف ..!! فضلاً عن أن مقرر هذه المادة فرض على بعض الدول العربية

والإسلامية من الخارج، ومن دول لا تعرف عن الدين الإسلامي أي شيء، ولا صلة لها بالثقافة الدينية والإسلامية، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م، في أمريكا. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التردي والضعف اللذين سقطنا فيهما، أي سقطت فيهما بعض الدول، وهذا سيؤدي إلى الكثير من ضعف الأبناء وبعدهم عن دينهم الحنيف.

وهذه هي الكارثة التي أصبحت تهدد بعض الناس ولا أغالي إذا قلت: تهدد الجميع، والقرآن الكريم هو المنقذ من هذا التيه والغي اللذين أصبحا يصيبان منا مقتلاً، ويفضيان بل يجهزان على لغتنا العربية الجميلة، فاني أسأل. أين القرآن والبرامج التي تعمل على تحفيظه وتدريسه وتدريس علومه المتعددة ؟ لا بد من صحوة عميقة من السبات والرقاد اللذين جثما على صدورنا وقلوبنا، والعمل بجد على إيجاد برامج طموحة نحو تحفيظ القرآن بهمة ونشاط، وأن ننشئ الكثير من الكتاتيب ومدارس التحفيظ في كل بقعة من البقاع. ونعود إلى أقسام التحفيظ التي كانت موجودة في مدارس التعليم الأولى، والتي كان التلميذ يقوم فيها بحفظ القرآن في نهاية المرحلة الأولية على مدى أربع سنوات، ويدخل المرحلة الثانوية أو الأزهرية وهو حافظ للقرآن كله حفظاً جيداً وتجويداً. لقد مضى الزمن الجميل الذي كانت الأسر تحتفل فيه عندما كان ينهي وينتهي ابن من أبنائها من حفظ القرآن الكريم، إذ كانت تقام الأفراح والولائم بهذه المناسبة الكريمة والميمونة. ليت أيام هذا الزمن الجميل تعود، وتفرح الأسر والعائلات بمناسبة انتهاء الأبناء من حفظ القرآن كله، ويعم جو من البهجة والسرور في هذه المناسبات الكريمة والجميلة!!

ومن أسباب ضعف العربية في بلادنا أن العامية والدارجة أصبحت هي أساس الحوار في كل منتدى وندوة، ولغة الحوار والتحدث في وسائل الإعلام المعاصرة من إذاعة وتلفاز، فضلا عن الهبوط الحاد في مستوى المذيعين والمذيعات ومقدمي البرامج حتى أصبحت العربية وكأنها غريبة في بيئتها وموطنها، اضف إلى ذلك قلة البرامج التي تهتم باللغة العربية، والبرامج الدينية أيضًا التي تعالج باللغة العربية، وهذه هي الطامة الكبرى، إذ أصبحت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة تدخل كل بيت، بل كل حجرة، وتؤثر تأثيراً بالغًا في عقول الشباب وأفكارهم. وعن القنوات الفضائية ومايسمى «بالدش»، حدث عنه ولا حرج إذ الفساد قد طمَّ وعَمَّ وأصبحت كل المشاهدات تأتي من الخارج. وأستطيع أن أقول:إن هناك تلوثًا في السماع وفي المشاهد من البرامج التي تبثها هذه الفضائيات التي تأتي من خارج المنطقة العربية. وإذ أقول تلوث في السماع والمشاهدة فهذه في اعتقادي عبارة مهذبة إلى حد بعيد، ولكني أقصد غير ذلك !! والمعنى في قلب الشاعر، كما يقولون، وهنا نقطة جديرة بالتنويه ساقها الأخ خاشع بن شيخ إبراهيم، وهو سوري الجنسية، وعربي الهوية والانتماء، أختلف معه فيها: وهي أن الإسلام أصبح محاطاً بأسلاك أوربية؛ ذلك من بعض الناس الذين درسوا في الخارج، وفي أوربا بالذات، وأخص منهم رواداً مصريين، وعلى سبيل المثال الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وحفني بك ناصف، وسلامة موسى، وعبدالعزيز فهمي باشا..إلخ، ونسي الأخ أن هذه الموجة أو تلك الظاهرة موجودة في وطننا العربي من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه ليست في مصر وحدها، وإنما في سائر بلاد العروبة من المحيط إلى الخليج.

وأستطيع القول بكل جرأة:إن الاستعمار لم يفعل بمصر كبلد من بلاد العروبة مثلما صنع في بلاد غيرها كبلاد المغرب العربي (الذين يتحدثون الفرنسية بطلاقة وتعدّ لغتهم الأولى حتى الآن)، مكث الاستعمار البريطاني في مصر نحو ٧٥ عاماً، ولم يستطع طمس اللغة العربية على الإطلاق على الرغم من تدريس الإنجليزية في مراحل التعليم الأولى إلا أنه لم يفلح في القضاء على العربية مثلما فعل الاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي والذي حول البلاد إلى قطعة وجزء لا يتجزأ من فرنسا المستعمرة،

فاللغة المستعملة في التحدث والكتابة هي الفرنسية، أما اللغة العربية فهي في المرتبة الثانية في هذه البلاد التي تنتمي إلى العروبة والإسلام، ولماذا نذهب بعيداً ففي سوريَة ولبنان، وهما من البلاد التي كانت تستعمرها فرنسا فاللغة الفرنسية سرت هناك مسرى النار في الهشيم!!

وذهب علماء وأدباء إلى فرنسا، وتأثروا تأثراً بالغًا بلغة هذه البلاد!! والذي أود أن أصل إليه أن مصر ليست وحدها التي حذت هذا الحذو. وأستطيع أن أقول: إن مصر من بلاد العروبة بذلت ومازالت تبذل جهوداً حثيثة في مجال النهوض بالعربية، واعتقد أن مجمع الخالدين بالقاهرة - بما يشكل تكوين هذه الكوكبة الرائدة من علماء وأدباء يشار إليهم بالبنان - بذل ومازال يبذل جهوداً مضنية ورائدة في مجال النهوض بالعربية. ولا ننسى بعد ذلك دور الأزهر الشريف، هذه المنارة العالية والسامقة التي تبعث بنورها في جميع الأرجاء والأصقاع على مستوى العالم الإسلامي، فهذا الدور الذي يحمله الأزهر، وهذا هو قدره الذي آلى على نفسه أن يقوم به في سبيل النهوض بالعربية، لغة القرآن الكريم، الجميع يحيّي هذا الدور.

ولا ننسى الدور الذي قامت به «جماعة حماة اللغة العربية» التي كانت مهتمة ببعث اللغة العربية وإحيائها، وكان على رأس هذه الجماعة الإذاعي الرائد الأستاذ طاهر أبوزيد - هذا المذيع ذو التاريخ الناصع اللامع في إذاعة القاهرة، هذه الجماعة التي تم إشهارها، وضمت فحول الأساتذة من حماة العربية في القاهرة وغيرها من بلدان العربية.

ومما يدعو إلى التفاؤل والبشر والسعادة أيضًا اشتراط بعض المؤسسات المالية والبنكية في مصر في إجراء المناقصات الخاصة بها استخدام العربية للاشتراك في هذه المناقصات. وهذا دعاني إلى التفاؤل بحق، إذ وجدت إعلانًا لمناقصة أجراها البنك الأهلي المصري، ونشرت بصحيفة الأهرام يشترط للاشتراك فيها استخدام اللغة العربية في كتابة العروض. وهذه نقطة تدعو إلى السعادة والبشر كما ذكرت آنفًا ..

الحقيقة التي لا تغيب عن الأذهان هي أن اللغة العربية باقية ومحفوظة بحفظ القرآن كتاب الله الخالد، وإن كان الناطقون بها أقل من الناطقين بالعامية.

وصدق الشاعر حافظ إبراهيم، شاعر النيل الذي يتكلم على لسان العربية في القصيدة التي هي بعنوان «اللغة العربية تتحدث عن نفسها»:

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
أنا البحر في أحشائه الدُر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

وإني في النهاية أتطرق إلى نقطة في غاية الأهمية وهي النقطة الخاصة بالشريعة الإسلامية التي وضعت في جميع الدساتير العربية والإسلامية كمصدر رئيس للتشريع في هذه البلاد وإني أعجب كل العجب إذا كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع، وفي صلب الدساتير، فمن أين استقت هذه الشريعة مصادرها ؟ أقول: إن المصادر هي القرآن والسنة وهما المصدران الرئيسان لهذه الشريعة الغراء، والقرآن نزل باللغة العربية، وكذا السنة النبوية الشريفة. واذا كان هذا يتعلق باللغة العربية فكان جديراً بأبناء هذه البلاد، بل والحكام والمسؤولين عنها أن يشعروا بقيمة هذه اللغة، والعمل على نهضتها وبعثها من مرقدها، وتخليصها من الوهن والضعف اللذين أصاباها حتى يمكن في النهاية أن نشعر بالهوية العربية وبالشخصية العربية التي تعبر عنها لغتنا العربية الجميلة !!

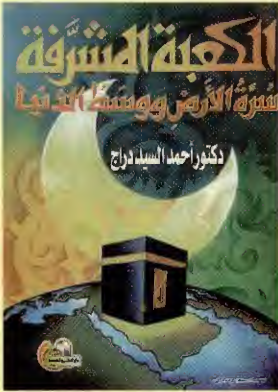
وفي النهاية فاني أتفق مع كاتبي المقالين تمام الاتفاق، إذ هما وضعا أيديهما على الجرح الذي لم يندمل بعد، الجرح الغائر الذي أصاب لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم، والمحفوظة بعناية الله وتوفيقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إبراهيم عبدالوهاب شرف
كلية الزراعة - جامعة المنصورة
مصر

الكعبة المشرّفة سُرَّة الأرض ووسط الدنيا

مراجعة: أحمد كمال زكي
القاهرة - مصر

هذا الكتاب ليس كسائر الكتب التي تتناول مكة المكرمة بوصفها أقدس مكان على الأرض فحسب، ولكنه - وهذا هو الأهم - يتناول الموضوع بأسلوب علمي أكاديمي للتدليل على أن الكعبة المشرّفة هي سُرَّة الأرض ووسط الدنيا، فهو يؤكد - بالدليل العلمي التجريبي الذي لا يفهم الغربيون غيره - أن هذا أليس مجرد أحاديث تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه حقيقة علمية أسهم في إثباتها العلم الحديث!



الكعبة المشرّفة
سرّة الأرض ووسط الدنيا
د. أحمد السيد درّاج
القاهرة: دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م

يقول المفسرون في قوله تبارك وتعالى في الآية (٧) من سورة هود: *وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ*: إن أول ما خلق الله من الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها فهي سُرَّة الأرض ووسط الدنيا، وفي قول آخر إن قواعد البيت خُلقت قبل الأرض بألفي سنة، ثم بُسطت الأرض من تحتها.

ويُذكر أن عالمًا أمريكيًا أثبت - باستخدام أجهزة علمية حديثة في دراسة له عن المواقع الطبوغرافية عن الكوكب الأرضي - أن الإشعاعات الكونية تتلاقى عند مكّة المكرّمة أي إن مكة نقطة الالتقاء الباطنية في الأرض للإشعاعات الكونية.

ومنذ نحو عشرين عامًا قام الدكتور حسين كمال الدين أحمد أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكُروي في جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية - وقتذاك - بإجراء بحوث بقصد تعيين مواقيت الصلاة في أي زمان وأي مكان في الأرض يوجد فيه مسلمون، وقد خلص من هذه البحوث إلى إثبات أن مكة المكرمة هي مركز الأرض اليابسة، ووضع في ذلك نظرية هندسية سمّاها: «الإسقاط المساحي المكّي للعالم».

على الوتيرة نفسها، وبالمنهج ذاته يسير المؤلف الدكتور أحمد السيد درّاج - أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة في كتابه: «الكعبة المشرّفة سُرَّة الأرض ووسط الدنيا» .. فهو لا يكتفي بالروايات التاريخية المعروفة - أو حتى غير المعروفة - ولكنه يُردف هذه الروايات بالأدلة والبراهين العلمية التي أضافها العلم الحديث، والكتاب يتكون من قسمين: الأول اعتمد فيه المؤلف - كما يقول - على ماجاء في كتاب الله والسُنّة، وكتب التفسير، والمصادر التاريخية، وكتب الرحالين عن بدء الكون وخلق السماوات والأرض،



توسعة خادم الحرمين الشريفين أكبر توسعة شهدها الحرم المكي

والكعبة المشرّفة، والبدعتين ... أما القسم الثاني، فهو دراسة علمية لإثبات هذه الحقائق ... وبيان أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فيما يختص بالنظرية النسبية لآينشتاين التي تُعدّ أهم حدث علمي في عصرنا الحاضر والتي أدت إلى انطلاق رحلات غزو الفضاء، وما تمخضت عنه من أبحاث عن نظرية «الانفجار العظيم» التي تتطابق مع ما جاء في القرآن الكريم عن بدء الكون وخلق السماوات والأرض. ولا يكتفي المؤلف بهذا، ولكنه يضيف أيضاً ملحقات توضيحية في نهاية الكتاب توضح الخرائط الجغرافية العربية للعالم ولدوائر دلائل القبلة التي وضعها علماء المسلمين، وفلكيون وجغرافيون، والتي أوضحوا فيها أن مكة المكرمة هي مركز الأرض، وحددوا فيها اتجاهات القبلة للمسلمين، في البلدان الإسلامية في العالم القديم .. وكذلك الخرائط الجغرافية للعالم التي رسمها غير العلماء المسلمين كتلك التي رسمها البندقي مارينو سنودو Marino Sanodu - أحد كبار الدعاة الصليبيين (١)، وهي خريطة توضيحية مرفقة بكتاب «الأرض المقدسة» الذي قدمه للبابا عام ١٣٢١م، عن مشروعه الصليبي الجديد لاسترجاع الأرض المسيحية المقدسة بعد أن أجلاهم عنها المسلمون نهائياً عام ١٢٩١م.

بدء الكون وخلق السماوات والأرض

في الفصل الأول من الكتاب يتحدث المؤلف عن بدء الخلق مشيراً إلى الآيات الكثيرة التي وردت في كتاب الله تعالى بهذا الشأن، فيقول: إن القرآن الكريم أنزل في ٦٢٣٦ آية، منها ٧٥٠ آية كونية تتحدث ٤٦١ آية منها عن الأرض والسماوات. ويستشهد المؤلف بعدد من هذه الآيات، ومنها - على سبيل المثال - الآية(٧٣) من **سورة الأنعام:** *وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَيَوم يَقولُ كُن فَيَكُونُ قَولُهُ الحَقّ وَلَهُ المُلْكُ يَوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبيرُ.*

وبعد أن يذكر المؤلف الآيات القرآنية لا يلبث أن يعود إلى منهجه العلمي مستشهداً بما قاله الدكتور عبدالحليم منتصر - أحد أبرز علماء الطبيعة العرب في عصرنا، وأحد روّاد

تاريخ العلوم عند العرب ـ الذي قال: «إنَّ هذا الكون الذي يمتد ـ فيما يقول العلماء ـ عشرات البلايين من السنين الضوئية التي تقدر فيها الثانية بثلاثمئة ألف كيلو متر، فما بالك بالدقيقة والساعة والشهر والسنة، وتسبح فيه بلايين الأجرام السماوية وملايين السُدُم، وفي كل سديم ملايين النجوم والكواكب والأقمار، وما المجموعات الشمسية التي تدور في فلك الشمس إلا واحدة من ملايين المجموعات، فهل يستطيع إنسان مهما أوتي من علم أن يحيط علمه بهذا الكون!».. وعن تدبير هذا الكون يقول، سبحانه وتعالى، في الآية (٥) من **سورة السَّجدة**: *يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ*، ويقول سبحانه وتعالى في الآية (٤٧) من **سورة الحج**: *وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ*. والمعنى في هاتين الآيتين أن مسيرة ألف سنة قمرية من سنوات الدنيا تُقطع في يوم من أيامنا .. وقد توصل أحد الباحثين المحدثين في علوم الفضاء إلى أن السرعة القصوى في الفضاء مقدارها نحو ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية.

وسرعان مايعود المؤلف إلى الأحاديث والروايات التاريخية فيقول: ويُروى عن ابن عباس قوله: لما كان العرشُ على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بَعَثَ ريحًا فصفَّقت الماءَ فأبرزت عن خَشَفَة واحدة في موضع البيت كأنها قبة فدحا الأرض من تحتها فأوتدها بالجبال، والخَشَفَةُ واحدة الخَشَف تُنْبتُ في البحر نباتًا. وقد جاء في الأخبر : أنَّ أولَ ماخَلَقَ اللَّهَ في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سُرَّة الأرض ووسط الدنيا، وأم القرى أولها الكعبة.

الكعبة المشرّفة ومكة المكرمة

خصص المؤلف الفصل الثاني للحديث عن الكعبة المشرّفة ومكة المكرمة، خاصة ما ورد في كتاب الأزرقيّ «أخبار مكة» (٢) عن الكعبة المشرّفة وما كانت عليه فوق الماء قبل أن يخلق اللَّه السماوات والأرض، فيروي في ذلك عدة أقوال عن الصحابة كقوله : حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنا جدي عن سعيد بن سلام عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس أنه قال: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق اللَّه السماوات والأرض بعث اللَّه تعالى ريحا هفَّافة فصفَّقت الماء فأبرزت عن خَشَفَة في موضع هذا البيت كأنها قبَّة فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت، ثم مادت، فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وُضِعَ فيها أبوقُبَيْس، فلذلك سُمِّيت مكة أمَّ القرى.

أما عن بناء الكعبة ففيه خلاف، فقيل: إنه أول بيت بنته الملائكة، وفي هذا قيل إن الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا على أربع أساطين من زبرجد وغشَّاهُن بياقوتة حمراء، ويسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش .. والقول الثاني: إنَّ أول من أسس البيت وصلَّى فيه وطاف به هو آدم عليه السلام، حتى بعث اللَّه الطوفان ... ثم درس موضع البيت حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعده ... وقال مجاهد: خلق اللَّه موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفى سنة، وإنَّ قواعده لفي الأرض السابعة السفلى، وعنه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أن أول لُمْعَة وضعت على الأرض موضع البيت، ثم حدث منها الأرض، وأن أول جبل وضعه على الأرض هو أبوقبيس، ثم حدث منه الجبال ويُروى عن أبي ذر رضي الله عنه قوله: «قلتُ يارسولَ اللَّه: أيُّ مسجد وُضعَ في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون عاماً».

عندما تم توزيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط وجد أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة

ولمكة عدة أسماء يذكرها المؤلف مشيرًا إلى أن المؤرخين أوردوا لها ثلاثين اسمًا، ومنها ثمانية ذكرها اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. وكثرة الأسماء تدلُّ على شرف المُسمى، فمكة المكرمة أفضل بقع الأرض، وخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض اللَّه إلى اللَّه ورسوله، وهي البلد الحرام الذي اختاره سبحانه وتعالى لنبيه، وجعله مناسك لعباده، وهي التي أقسم بها اللَّه تعالى في كتابه العزيز في موضعين

منه، فقال تعالى في الآية (٣) من سورة التين: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾، وفي الآية الأولى من سورة البلد قال جلّ شأنه: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

وأما أسماؤها التي وردت في القرآن الكريم فهي: مَكَّةَ، وبَكَّة، وأم القرى، والقرية، والبلدة، والبلد الأمين، والبلد، ومعاد. ويضيف ابن ظهيرة إلى الأسماء الثمانية لمكة التي وردت في القرآن الكريم اسمين آخرين هما: الوادي، والبيت العتيق ... وقد اختلف في مكة بالميم وبكة بالباء، هل هما بمعنى واحد، أو بمعنيين؟ فقيل: بكة بالباء موضع البيت، ومكة بالميم الحرم كله. وقيل: بكة البيت، وما حواليه مكة.

وعن فضلها ورد في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ... ومكة هي قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها، وهي أم القرى، والقرى كلها تبعٌ لها.

ويروي ابن حميد عن جرير، عن عطاء، عن ابن سابط، أن النبي، صلى الله عليه وسلم قال: «دُحيت الأرضُ من مكة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت، وهي أول منْ طاف به، وهي الأرض التي قال الله عنها للائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. **البقرة**: ٣٠، وكان النبيُّ إذا هلك قومه، ونجا هو والصالحون، أتى هو ومن معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا، فحَوْلَ الكعبة قبر ثلاثمئة نبيٍّ، وبين الركن اليماني والركن الأسود قبر سبعين نبيًا، وقبر إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام في الحجر تحت الميزاب، وقبر نوح وهود وصالح وشُعيب، عليهم السلام، بين زمزم والركن والمقام».

مصلى النبي وتغييرات الكعبة

في الفصلين الثالث والرابع يتحدث المؤلف عن مُصلى النبي، صلى الله عليه وسلم، في الكعبة المشرّفة والتغييرات التي تمت في جوفها بعد بناء عبدالله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي لها .. يقول: كانت الكعبة يوم دخلها الرسول صلى الله عليه وسلم، يوم الفتح على بناء قريش، وهو البناء الذي شارك فيه صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته، وكان مع الرسول، عليه السلام، لما دخل الكعبة يوم الفتح أسامة بن زيد، و بلال وعثمان بن أبي طلحة الحَجَّي. وعن صلاة النبي، صلى الله عليه وسلم، في الكعبة يروي الأزرقي خمس روايات مرفوعة كلها عن عبدالله بن عمر قوله: إن النبي ، عليه الصلاة والسلام، بعد أن جاءه عثمان بن أبي طلحة الحجي بمفتاح البيت فتح البيت، ودخله النبي، وأسامة بن زيد، وبلال ، وعثمان بن أبي طلحة، فأجافوا عليهم الباب مليًا ثم فتح الباب، وكنت قويًا فبدرت فزحمت الناس، فكنت أول من دخل الكعبة، فرأيت بلالا عند الباب فقلت له: أي بلال، أين صلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: بين العمودين المقدَّمين، وكانت الكعبة على ستة أعمدة. قال ابن عمر: فنسيت أسأله كم صلى النبي صلى الله عليه وسلم. ويواصل المؤلف عرض سائر روايات صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، في الكعبة المشرّفة، حيث تؤكد بعض الروايات الصلاة بينما تنفيها روايات أخرى، ويستشهد المؤلف بالأزرقي والفاكهي والطبري والفاسي ومحيي الدين النووي. فيروي الأزرقي عن أحمد بن ميسرةً، عن عبدالمجيد بن عبدالعزيز، عن أبيه قال: بلغني أن الفضل بن العباس، رضوان الله عليهما، دخل مع النبي ، صلى الله عليه وسلم، يومئذ فقال : لم أره صلى فيها فقال أبي: ذلك فيما بلغني أن النبي، صلى الله عليه وسلم استعانه لحاجة فجاء بذَنُوب (٣) من ماء زمزم، وقد صلى ولم يره. قال عبد المجيد، قال أبي: وذلك أنه بعثه فجاء بذنوب من ماء زمزم ليطمس به الصور التي في الكعبة فصلّى خلافه، فلذلك لم يره يصلي.

خلص المؤلف من هذه البحوث إلى إثبات أن مكة المكرمة هي مركز الأرض اليابسة، ووضع في ذلك نظرية هندسية سمّاها: «الإسقاط المساحي المكّي للعالم»

بعد ذلك يقدم المؤلف وصفًا للكعبة، ففي بناء إبرهيم خليل الرحمن للكعبة كان طولها في السماء تسع أذرع، وعرضها في الأرض اثنتين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامي (العراقي) الذي عنده الحجْر، وطول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني إحدى وثلاثين ذراعاً،

وعرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً. وكانت الكعبة في بناء إبراهيم خليل الرحمن غير مسقفة، وكان لها ركنان هما اليمانيان، أما عرضها من جهة الحجر فقد كان على شكل نصف دائرة بما يشبه الحجر في حالته الحاضرة، ولما بنتها قريش جعلت لها أربعة أركان، وكان الحجر في بناء إبرهيم خليل الرحمن للكعبة إلى جنبها عريشاً من أراك، وفيه قبر إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر. وجعل إبراهيم خليل الرحمن للكعبة بابين ملاصقين للأرض أحدهما: من الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود، والثاني: من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سمت الباب الشرقي، وكانا غير مبوبين. ولما أعاد عبداللَّه بن الزبير، رضي اللَّه عنهما، بناء الكعبة، بناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، فأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحِجْر، وكان ست أذرع وشبراً، كما زاد في ارتفاعها على بناء قريش نظير ما زادته من ارتفاعها، وذلك تسع أذرع فصار ارتفاعها سبعًا وعشرين ذراعًا، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض أحدهما بابها الموجود في الجدار الشرقي، وباب آخر في الجدار الغربي، أولهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه. واعتمد ابن الزبير في ذلك على حديث النبي، صلى اللَّه عليه وسلم، للسيدة عائشة، رضي اللَّه عنها، الذي يقول فيه: أشهد لسمعت عائشة، رضي اللَّه عنها، تقول: «قال رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم: إن قومك استقصروا في بناء البيت، وعجزت بهم النفقة، فتركوا في الحجْر منها أذرعًا، ولولا حداثة قومك بالكفر لهدمتُ الكعبة وأعدتُ ما تركوا منها، ولجعلت لها بابين موضوعين بالأرض، باباً شرقياً يدخل منه الناس وباباً غربياً يخرج منه الناس، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت : قلت: لا، قال: تعززاً ألاّ يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها يدعونه أن يرتقي حتى إذا كاد يدخل دفعوه فسقط، فإذا بدا لقومك هدمها فهلمي لأريك ما تركوا في الحجْر منها، فأراها قريباً من سبع أذرع» . فلما هدم عبداللَّه بن الزبير، رضي الله عنهما، الكعبة وسوّاها بالأرض كشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجدوه داخلا في الحِجْر نحواً من ست أذرع وشبر.

في سنة ٦٦٩هـ، أتى سيل لم يسمع بمثله، دخل البيت الحرام كالبحر، وبقي الحرم يموج منبره فيه ولم تصل الناس تلك الليلة، ولم ير طائف إلا رجل طاف سحراً يعوم!

الطواف بالكعبة .. سباحة

بعد مقتل عبداللَّه بن الزبير، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يستأذنه في رد البيت إلى ما كان عليه في الجاهلية، فكتب إليه عبدالملك أن سدَّ بابها الغربي الذي كان فتح ابن الزبير، واهدم ما كان زاد فيها من الحِجْر، واكبسها به على ما كانت عليه. فهدم الحجاج منها ست أذرع وشبرا مما يلي الحِجْر، وبناها على أساس قريش الذي كانت استقصرت عليه وكبسها بما هدم منها، وسد الباب الذي في ظهرها، وترك سائرها لم يحرك منها شيئًا .. أما التغييرات التي حدثت في الكعبة المشرّفة، وكذلك العمارات والترميمات داخلها منذ بداية القرن الثالث الهجري، حتى نهاية القرن السابع الهجري، فيتحدث عنها المؤلف في الفصل الخامس، موضحاً أن الكعبة أحدثت فيها بعد المئتين من الهجرة عمارات وترميمات متعددة بسبب ما كانت تتعرض له من أخطار. فقد نزلت بمكة المكرمة خلال الفترة المشار إليها عدة سيول غزيرة جارفة ترتبت عليها أخطار كثيرة تمثلت في هدم بعض البيوت وفي موت أعداد كبيرة من أهلها، ومن هذه السيول الغزيرة الجافة ما دخل الكعبة. ففي بعضها كانت مياه السيول تصل إلى قفل باب الكعبة، وفي بعضها الآخر كانت تدخل الكعبة ويجاوز ارتفاعها المترين لدرجة أن من فيها كان لا يستطيع أن يخرج منها ومن المسجد الحرام إلا سباحة!.

ففي سنة٢٥٣هـ، دخل السيل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة إلى قريب من الحجر الأسود، وهدم دوراً كثيرة بمكة.

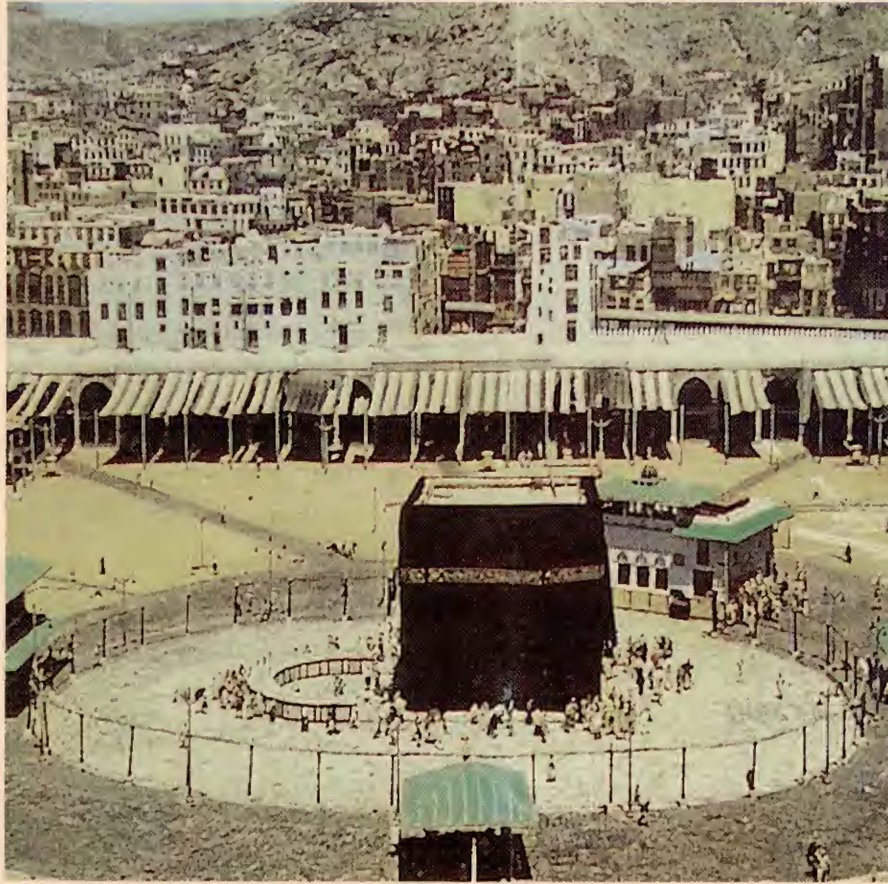
وفي سنة ٢٩٧هـ، أغرق السيل أركان البيت الحرام الأربعة حين جرى الغرق في الطواف، وفاضت بئر زمزم ولم يعهد ذلك فيما سلف من الزمن.

وفي سنة ٥٩٣هـ، جاء سيل عظيم، ودخل المسجد الحرام، وعلا على الحجر الأسود ذراعين، ودخل الكعبة

فبلغ قريبًا من الذراع، وأخذ فرضتي باب مقام إبراهيم وحمل منابر الخطبة ودرج الكعبة، ووصل الماء إلى فوق القناديل التي في وسط الحرم بكثير، وطاف الناس، وهم يعومون !.

وفي سنة ٦٦٩هـ، أتى سيل لم يسمع بمثله، دخل البيت الحرام كالبحر، وبقي الحرم يموج منبره فيه ولم تصل الناس تلك الليلة، ولم ير طائف إلا رجل طاف سحراً يعوم!.

ولم تقتصر الأخطار على السيول فحسب، بل تعرضت مكة المكرمة في هذه الفترة المشار إليها آنفًا لأربعة زلازل في سنوات: ٤١٧، و٤٣٣،و ٥١٥، و٥٩٢هـ، وقد حمى اللّه الكعبة المشرّفة من آثار هذه الزلازل التدميرية فظلت قائمة، وهذا من آيات اللّه تعالى، وإن كان قد أصابها بسبب هذه الزلازل تشعث أو تحرك جدرانها، أو تجرد كسوتها، أو تضعضع الركن اليماني و انكسار فلقة منه قدر إصبع .



صورة قديمة للكعبة المشرفة

وبسبب ما كانت تتعرض له الكعبة المشرّفة من أخطار السيول والزلازل فقد توالت العمارات والترميمات لها، وبخاصة ترميم سقفها الأعلى وترميم ما يتصدع من جدرانها وإعادة ترميم ما يسقط من رخام جدرانها من الداخل، وإعادة فرش أرضها بالرخام.

وفي العهد السعودي تمت للكعبة المشرّفة عمارتان، الأولى سنة ١٣٧٧هـ، في عهد المغفور له الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود بعد ما ظهر من خلل في سقفها وتصدع وشقوق وبروز في جداريها الشمالي والغربي. وقد شملت هذه العمارة عمل سقف أعلى جديد بدلاً من القديم، مع إبقاء السقف الأسفل على وضعه السابق وترميم الأعواد والأخشب التالفة فيه وتغييرها، وعمل ميدة بين السقفين تحيط بالجدران جميعها، وترميم الجدران المتصدعة الترميم اللازم، وما قد يظهر بالجدران عند مباشرة العمل، والعمارة الثانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، و هي بمنزلة تجديد وترميم شامل للكعبة المشرّفة. ففي رخامة مثبتة على أحد جدران الكعبة المشرّفة من الداخل نقش تذكاري لهذه العمارة مؤرخ في شهر رجب سنة ١٤١٧هـ، ونصه : «تم التجديد والترميم الشامل للكعبة المشرّفة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، حيث جدد سقفا الكعبة والأعمدة الثلاثة(٤) وحوائط الكعبة من الداخل والخارج، والأرضيات، ورخام السطح والحوائط، والسلم الداخلي والشاذروان، وجدران حجر سيدنا إسماعيل، وميزاب الكعبة المشرّفة».

أما البدعتان فيتحدث عنهما المؤلف في الفصل السادس،

وهو آخر فصول القسم الأول، وهما بدعتان أحدثتا في الكعبة بعد الستمئة من الهجرة دون تحديد سنة معينة، وتم إلغاؤهما سنتي ٧٠١ و٧٠٢هـ، ويورد المؤلف الروايات التاريخية عن البدعتين وسببهما والتي أوردها الطبري والسبتي والمقريزي والعيني وابن فهد والجزيري وابن ظهيرة .. فقد ذكر ابن الصلاح، رحمه الله: « أنه مما أحدثه بعض الفجرة في جوف الكعبة بعد الستمئة بدعتان، إحداهما: العروة الوثقى، وذلك أنهم عمدوا إلى موضع عال داخل الكعبة مقابل الداخل من بابها فسمَّوه بالعروة الوثقى واوقعوا في العقول الضعيفة أنه من ناله بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى فألجأهم ذلك إلى أن يقاسوا في الوصول إلى ذلك المحل عناءً وشدَّةً بحيث يركب بعضهم بعضاً، وربما صعدت الأنثى فوق الذكر ولامَسَت الرجال ولامسوها، فيلحقهم بذلك أنواع الضرر ديناً ودنيا.. والثانية : أنه في وسط البيت مسمار سمَّوه سُرَّة الدنيا، وحملوا العامة على أن يكشف أحدهم سُرَّته، وينبطح على ذلك المسمار، فلا قوة إلا بالله.

لمكة عدة أسماء يذكرها المؤلف مشيراً إلى أن المؤرخين أوردوا لها ثلاثين اسمًا، منها ثمانية ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. وكثرة الأسماء تدلُّ على شرف المُسمى

آينشتاين والانفجار العظيم

النظرية النسبية لآينشتاين تتكون من جزأين أساسيين: الأول هو النظرية النسبية الخاصة وهي تتعامل مع الحركة الميكانيكية للأجسام التي تتباعد أو تتقارب بالنسبة إلى بعضها بسرعة ثابتة لاتتغير مع الزمن. ولوصف هذه الحركة فإن الفراغ الذي تتحرك فيه هذه الأجسام هو من الناحية الرياضية فراغ مستو Flat Space ليس فيه انحناء. وهذه النظرية توصل إليها علماء كثيرون قبل آينشتاين .. أما الجزء الثاني، فهو النظرية النسبية العامة، وهي ابتكار آينشتاين. وهذه النظرية تصف الحركة الطبيعية للأجسام بالنسبة إلى بعضها عندما تتحرك بسرعة متغيرة من الزمن «أي إن السرعة قد تتزايد أو تتناقص مع الزمن»، وفي هذه الحالة فإن الفراغ الذي تتحرك فيه هذه الأجسام هو من الناحية الرياضية فراغ منحن. هذا الانحناء طبقًا لتفسير النظرية النسبية هو السبب الرئيس في أن مجال الجاذبية في الفراغ الكوني هو مجال تجاذب مسؤول عن ربط وإحكام الكواكب والأجرام السماوية بعضها ببعض.

وقد أدت النظرية النسبية العامة إلى تغيير التفكير العلمي عن حركة الكواكب وتركيب الفراغ الكوني، وذلك لاهتداء آينشتاين إلى فكرة أن الزمان والمكان هما صورتان مختلفتان للشيء نفسه، وهو ما يسمى بمقياس الفراغ، وأن الكمية المطلقة في الطبيعة والتي لا تعتمد على حركة الأجسام بالنسبة إلى بعضها هي سرعة الضوء، وذلك على عكس الاعتقاد الشائع طبقًا لقوانين نيوتن للحركة من أن الزمن هو العنصر المطلق في الطبيعة.

يتناول المؤلف في الفصل الأول من القسم الثاني النظرية بالتفصيل، والهدف- كما يقول المؤلف - إثبات أن ما توصل إليه آينشتاين في نظريته النسبية عن تركيب الفراغ الكوني بعد أن توصل إلى البعد الرابع من هذا الفراغ الذي عرف بالمكان الزماني، قد ورد ذكره في كتاب الله تعالى، وفي حديث رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك في دراسات العلماء المسلمين .. وأيضا لإثبات أن ما تمخضت عنه أبحاث الفضاء التي انطلقت بعد التحقق من صحة النظرية النسبية من حقائق علمية عن بدء الكون وهو ما عرف «بالانفجار العظيم» ليس إلا تطابقاً لما جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ عن بدء الكون وخلق السماوات والأرض في قوله تعالى في الآية (٣٠) من **سورة الأنبياء**: *أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموات وَالأرضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهما وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ* . وقد سبق المسعودي آينشتاين في القول بأن الكون له بدء وله انتهاء، وأن الأرض كروية وأن السماء مكورة فوقه، أي القول بالفراغ المنحني للكون، وهو ما توصل إليه آينشتاين في نظريته النسبية.

وفي الفصل الثاني من القسم الثاني من الكتاب يتحدث المؤلف عن نظرية الخلق المعروفة باسم «الانفجار العظيم» موضحاً أن النظرية النسبية أدت إلى انطلاق رحلات أبحاث الفضاء لاكتشاف تركيب الكون وحركة الكواكب والمجرات، وقد أثبتت هذه الأبحاث أن الكون كان في الأصل سديماً

واحداً متصلا، أي كتلة واحدة، أو جَرْماً واحداً، ثم انفجر بكيفية مالا نعلم عنها شيئاً، في لحظة معينة، وكان ذلك بداية لخلق الكون، وهذا هو مايصفه علماء الفضاء بالانفجار العظيم.

منطق العلم الحديث

ويوضح المؤلف الغرض من الاستشهاد بهذه النظرية قائلا: نحن المسلمين نؤمن بما في كتاب الله تعالى عن بدء الكون وخلق السماوات والأرض، وعن نهايته، ولكن حديثنا هذا عن «الانفجار العظيم» إنما لنستشهد بما تمخضت عنه أبحاث الفضاء عن بدء الكون، لنخاطب غير المسلمين بمنطق العلم الحديث الذي لا يؤمنون إلا به.

ثم يعود بعد ذلك ـ في الفصل الثالث ـ للحديث، مرة أخرى، عن مكة المكرمة والكعبة المشرّفة في الخرائط الجغرافية العربية وفي دوائر دلائل القبلة، مُشيراً إلى جهود العلماء المسلمين في وضع الخرائط الجغرافية التي تظهر فيها مكة المكرمة وسط العالم ومركز الأرض اليابسة، وفي وضع دوائر دلائل القبلة لتحديد اتجاه القبلة لجميع المسلمين في جميع أرجاء العالم.

ويستعرض المؤلف عدداً كبيراً من علماء المسلمين، والفلكيين والجغرافيين، الذين أسهموا، بجهودهم العلمية، وبالخرائط التي رسموها للعالم، ولدوائر دلائل القبلة في إثبات أن الكعبة المشرّفة ومكة المكرمة هما سُرَّة الأرض ووسط الدنيا، ومن العلماء الذين يستعرض المؤلف جهودهم الجغرافية: ثابت بن قرَّة الحرَّاني، والخوارزمي، والبتَّاني، والجيهاني، والإصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، والمسعودي، وابن يونس المصري، والبيروني، والإدريسي، ونجم الدين أبو عبداللّه المصري، والقزويني، وابن خلدون، ويختتم حديثه بعالم معاصر هو الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكُروي في جامعات القاهرة وأسيوط والملك سعود، فقد قصر جهوده في أثناء عمله بجامعة الملك سعود منذ نحو عشرين عاماً على هذا العمل العلمي، وأثمرت هذه الجهود خمسة أبحاث مهمة بدأها بتعيين مواقيت الصلاة في أي زمان ومكان على سطح الأرض، واختتمها بالإسقاط المساحي المكي للعالم، والذي يوضح فيه أن الذي دفعه إلى القيام بالإسقاط المكي للعالم، هو البحث عن خرائط مرسومة بطريقة خاصة تساعد على معرفة اتجاه القبلة للصلاة في أي مكان على سطح الكرة الأرضية، وأنه عندما تم توزيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط وجد أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي أن مكة المكرمة تعد مركزاً وسطاً للأرض اليابسة، على سطح الكرة الأرضية، وكذلك إذا أخذنا في الحسبان قارات أوربا وآسيا وإفريقية التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية نجدها تحيط بمدينة مكة المكرمة. أي أن هذا الإسقاط المساحي يعطي لمكة المكرمة مركزاً خاصاً بين جميع أماكن العالم، وأنه يعني أن موقع مدينة مكة المكرمة هو مركز الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية. ويختتم المؤلف القسم الثاني من كتابه بفصل صغير بعنوان: أورشليم في خريطة مارينو سنودو، يرد فيه على اعتقاد المسيحيين الذي أخذوه عن اليهود أن أورشليم المقدسة هي سُرَّة الأرض، وقد ألحق المؤلف بالكتاب عدداً من المرتسمات عن مُصلَّى النبي صلى الله عليه وسلم، في الكعبة المشرّفة، وعدداً من الخرائط التي وضعها د. حسين كمال الدين أحمد إبراهيم عن الإسقاط المساحي المكي للعالم، وعن مركزية مكة المكرمة للأرض اليابسة، وتقريرين من الدكتور مسلَّم شلتوت عن صحة مركزية مكة المكرمة للأرض اليابسة، وعن صحة دوائر دلائل القبلة، وبعض الصور المتعلقة بموضوع الدراسة. واختتم الدراسة بما يُروى عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: أصل طينة النبي صلى الله عليه وسلم، من سُرَّة الأرض بمكة، وقد قال بعض العلماء أنه في هذا إيذان بأنها التي أجابت من الأرض.

الهوامش

١ـ من كبار الدعاة الصليبيين، رسم خريطة جغرافية تظهر مدينة أورشليم مركزاً للعالم القديم، وفي أعلاها الجنة، ونشرها في كتابه «الأرض المقدسة» الذي قدمه إلى البابا شارحاً فيه مشروعه للقيام بحملة صليبية لاسترجاع الأرض المسيحية المقدسة من المسلمين.

٢ـ يعتمد المؤلف في كل ما يخص مكة والكعبة المشرّفة على كتاب «أخبار مكة» للأزرقي (ت: ٢٤٤هـ) حيث يعد الأزرقي المصدر الأول عن بناء إبراهيم للكعبة نقلا عن جده أبي الوليد.

٣ـ الذنوب: الدلو العظيمة.

٤ـ هذه الأعمدة الثلاثة هي التي وضعها عبدالله بن الزبير، رضي الله عنهما، في منتصف الكعبة بين جدارها اليماني وجدارها الشامي لرفع سقفها.

ـ مصادر الصور: أرشيف «الفيصل».

بحوث وتنبيهات

مراجعة: **محمد أنور حفيظ الندوي**
الرياض - السعودية

«بحوث وتنبيهات» عنوان كتاب جديد صدر مؤخرًا من دار الغرب الإسلامي ببيروت للأستاذ أبي محفوظ الكريم المعصومي، باعتناء الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي - الباحث في مركز البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالرياض.

مؤلف الكتاب عالم جليل، ومحقق كبير من علماء الهند. قضى أربعين سنة من عمره مدرسًا في «المدرسة العالية» بمدينة كلكتا عاصمة ولاية غرب البنغال الهندية، وله باع طويل في العلوم الإسلامية عامة، وفي التفسير والحديث والتاريخ واللغة العربية خاصة، بالإضافة إلى كونه شاعراً وأديباً وبحاثة من الطراز الأول. وقد نال عام ١٩٩١م جائزة رئيس الهند تقديراً لخدماته المتميزة في اللغة العربية.

وهذا الكتاب الذي صدر في مجلدين بلغ عدد صفحاتهما ٧٨ + ١٠٥١ صفحة هو مجموعة لنصوص محققة، ومقالات نقدية لكتب ودواوين محققة، وبحوث تتناول موضوعات علمية وأدبية وتاريخية، نشرت في مجلات هندية مختلفة، خلال السنوات الخمسين الماضية، فهي ثروة علمية وأدبية كانت بعيدة عن أنظار الباحثين العرب، فجمعها الدكتور الإصلاحي في هذا الكتاب، وهيأ لهم فرصة الاطلاع عليها والاستفادة منها.

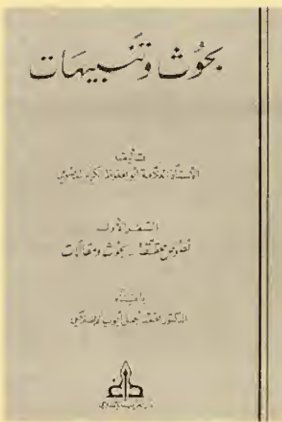
ويشتمل المجلد الأول على قسمين: القسم الأول: النصوص المحققة، والقسم الثاني: البحوث والمقالات.

النصوص المحققة

ومن النصوص المحققة «شرح الألفات» لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) حققه الأستاذ المعصومي عن نسخة مسندة محفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية بمدينة كلكتا، ومنها رسالة «مسألة الذاكرين والمتفكرين» لأبي عبدالرحمن محمد بن الحسين (ت ٤١٢هـ) حققها عن نسخة محفوظة في إحدى المكتبات الشخصية بمدينة كلكتا، الهند. وكذلك حقق الأستاذ المعصومي ثلاث رسائل لمرتَضى الزبيدي محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ): رسالة لغوية بعنوان «القول المسموع في الفرق بين الكوع والكُرسُوع» وأرجوزتين نادرتين من نوادر المخطوطات المحفوظة في مكتب الجمعية الآسيوية بكلكتا.

البحوث والمقالات

ويحتوي هذا القسم على ١٦ بحثًا ومقالاً تتناول موضوعات متنوعة وتحمل مادة ثرية ماتعة



بحوث وتنبيهات
تأليف: أبو محفوظ الكريم المعصومي
تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي
بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢م

للدارسين في علوم الحديث والتاريخ والفلسفة واللغة والأدب المقارن.

ومن أهمها بحث عن «أبي علي الهجري وكتابه التعليقات والنوادر» وهو بحث علمي قدمه الأستاذ المعصومي في مؤتمر المستشرقين في دلهي عام ١٩٦٣ـ ١٩٦٤م ونشره أولاً في مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة من إسلام آباد ثم نشره الأستاذ حمد الجاسر في مجلة العرب (عدد رمضان ١٣٩٠هـ الموافق نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٠م) بمقدمة قال فيها: «نشرت في عام ١٣٨٨هـ الموافق ١٩٦٨م بحثًا عن أبي علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع جاء في ٤٤٣ صفحة، وقدمته بهذه الكلمة (عرف الهجري في القديم بطريق علماء المغرب الأقصى كابن حزم السرقسطي وابن سيدة وغيرهما من أهل الأندلس وعرف ـ في الحديث ـ بطريق علماء من أقصى الشرق: أستاذنا العلامة الجليل أبي عمر عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، والأستاذ زبير الصديقي، والأستاذ أبي محفوظ الكريم من بلاد الهند. فإلى تلك النخبة الممتازة من العلماء العاملين في سبيل العلم، للعلم وحده، أقدم هذا البحث رمز اعتراف بفضلهم، وهو أقل من أن يفي باليسير من واجب الوفاء لهم، غير أنه جهد المقل) وقد حاولت معرفة عناوين هؤلاء العلماء بطريق الملحقين الثقافيين في سفارتي الهند وباكستان لأبعث لهم نسخًا من هذا الكتاب فلم أتمكن. فبعثت بها بواسطة سفيرنا في الهند وفي العراق الآن الشهم المفضال محمد الحمد الشبيلي. ويظهر أن بعض النسخ لم يصل إلى من بعث إليه. فقد اطلعت في جزء ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ (يونيو /حزيران عام ١٩٦٩م) على بحث ممتع للأستاذ أبي محفوظ الكريم المعصومي، يدل على أنه لم يطلع على مؤلفي عن الهجري. وقد رأيت نشر هذا البحث لما فيه من معلومات قيمة، تدل على ما يتصف به كاتبه الأستاذ الجليل من سعة اطلاع وقوة اهتمام وعناية بالأدب العربي، وباللغة العربية لغة القرآن الكريم».

بحث عن المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس

ومن أبحاثه المهمة بحثه عن العلامة مرتضى الحسيني البلجرامي الزبيدي ـ حياته وآثاره ـ تحدث فيه عن مولد المرتضى (بلجرام) وتاريخ ورود الأسر العثمانية والصديقية والسادات الواسطية إلى هذه المنطقة، معتمدًا على المصادر التاريخية من المطبوعات والمخطوطات العربية والفارسية، مع تحقيق نسبه واسمه ولقبه وبيان سبب الغموض في أصله الهندي. ثم أرخ لرحلات الزبيدي في طلب العلم في داخل الهند وخارجها إلى أن استقر في مصر، وتوفي فيها سنة ١٢٠٥هـ، ونبه على أخطاء المؤلفين في ترجمة الزبيدي، وعد سبعة شيوخ له قرأ عليهم في الهند، وختم البحث بحصر مؤلفاته ورسائله التي بلغت ١٥٩ عنوانًا.

بحث عن شاناق الطبيب

يتناول هذا البحث شخصية «شاناق» الذي عاش في المئة الرابعة قبل الميلاد، ويعد من أعلام الهند في الطب وغيره من العلوم. وقد ذكره ابن أبي أصيبعة من أطباء الهند المشهورين فقال: «كانت له معالجات وتجارب كثيرة في صناعة الطب وتفنن في العلوم والحكمة، وكان بارعًا في علم النجوم، وحسن الكلام، ومقربًا لدى ملوك الهند». وكان العرب قد وقفوا على عدد من مؤلفات شاناق فنقلوها إلى العربية ومنها ترجمة كتاب السموم التي نشرها (أوغست مولر) عام ١٨٨٠م في مجلة ZDMG.

وتتبع الباحثون الهنود أيضًا آثاره فوجدوا كتابًا في السياسة والنظم الإدارية، واسمه (أرطشاستر) حقق نصه السنسكريتي المحقق الهندي الشهير (شاماشاستري) ونشره أول مرة في عام ١٩٠٩م.

وقد عرض الأستاذ المعصومي شخصية شاناق من خلال المصادر العربية، وتحقيقات المستشرقين والمتأخرين من الباحثين الهنود. وفصل الحديث عن مترجم كتابه «السموم» من الهندية إلى الفارسية (منكه

الهندي) ثم حقق فصلاً من كتاب شاناق «منتحل الجواهر».

ومن البحوث القيمة التي تضمنها هذا القسم بحثه عن «نسب قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب وإسلام سلفه»، وقد رد فيه على الدكتور بدوي طبانة. وبحثه عن «نسب كعب بن زهير» الذي ناقش فيه ما ذهب إليه ابن سلاّم في طبقات فحول الشعراء، وتبعه ابن قتيبة، في نسب كعب بن زهير. وبحثه عن «حياة العلامة الفيلسوف صدر الدين الشيرازي الشهير بـ (ملا صدرا)» ومقالة حول «قرابة أم مسطح بن أثاثة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه».

مقالان عن «أمير خسرو» و«مرزا غالب»

وتضمن المقالان ترجمة منظومة لمجموعة من شعر «أمير خسرو» المتوفى سنة ٧٢٥هـ و«مرزا غالب» المتوفى سنة ١٢٥٨هـ. أما الأول فكان من أذكياء العالم وقد برزت عبقريته في عدة مجالات: منها الموسيقى والشعر؛ فكان من كبار شعراء الفارسية بالهند. وأما «مرزا غالب» فهو من كبار شعراء الأردية. فنقل الأستاذ المعصومي مقطوعاتٍ وأبياتاً من روائع شعرهما إلى العربية نظماً.

التنبيهات والاستدراكات

الجزء الثاني من كتابه يشتمل على قسم التنبيهات والمستدركات، ويضم الدراسات النقدية الموسعة لكتب جليلة في علوم الحديث والتراجم واللغة والأدب والدواوين الشعرية نشر معظمها على أيدي كبار المثقفين، ومنهم علماء أجلاء من الطبقة الأولى، كالعلامة عبد العزيز الميمني، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، رحمهما الله.

ومن أهمها دراسة حول كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي (طبعة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة). ومعلوم أنه لم يصدر منها إلا ثلاثة مجلدات: أولها بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، والثاني بتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، فوقف عليهما الأستاذ المعصومي، وقيّد ملحوظاته التي جاءت في أكثر من ١٥٠ صفحة.

وكذلك له دراسة نقدية بعنوان «طرر اللآلي وسمطها الغالي» وتشتمل على مئة صفحة، وهي نظرات الأستاذ في كتاب سمط اللآلي. والدراسة الثانية من مجموعة الميمنيات حول ديوان حميد بن ثور الهلالي الذي نشرته دار الكتب المصرية عام ١٩٥١م بتحقيق الأستاذ الميمني فاستدرك عليه الأستاذ المعصومي بعنوان «تقييد الفائت من شعر حميد ثور الهلالي». وضمنه أبياتاً استخرجها من نوادر الهجري وغيرها من الكتب، مع التنبيه على هفوات وقعت في الكتاب.

الكتاب مجموعةٌ نصوصٍ، ومقالاتٍ نقدية لكتب ودواوين محققة، وبحوث تتناول موضوعات علمية وأدبية وتاريخية، نشرت في مجلات هندية مختلفة

والمجموعة الأخيرة من التنبيهات والاستدراكات «تفاريق العصا» تضم خمسة مقالات حول ديوان ابن الدمينة بتحقيق الأستاذ أحمد راتب النفاخ، وديوان جميل بتحقيق الدكتور حسين نصار، وديواني ابن مقبل وبشر بن أبي خازم بتحقيق الدكتور عزة حسن، وكتاب الأشباه والنظائر للسيوطي (طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق) تتجلى فيها دقة نظر الأستاذ المعصومي، وغزارة علمه، وسعة اطلاعه.

وقد صدر الدكتور الإصلاحي هذه المجموعة بمقدمة كشف فيها عن أهمية محتوياتها، ثم صنع لها فهارس متنوعة، أهمها: فهرس النكت والفوائد التي جاءت في غضون الدراسات النقدية حول الكتب المحققة. وقد أورد في أول المجموعة ترجمة المؤلف بقلمه، ونماذج من أوائل البحوث المنشورة في المجلات الهندية، ونص رسالتين لعلامة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر إلى الأستاذ المعصومي تكشفان عن منزلته عند الأستاذ حمد، رحمه الله.

الرسام الإيراني حسين بهزاد وإحياء مدرسة هراة وأصفهان في التصوير

خضر محمد علي
طهران - إيران

ما زالت المخطوطات الأدبية الفارسية لشاهنامه فردوسي، وكلستان سعدي الشيرازي، ورباعيات عمر الخيام تتصدر فن الرسم والتصوير الإسلامي، وعلى الرغم من مرور عدّة قرون على هذا الفن ما زالت القيمة الفنية والجمالية لهذه الأعمال تأخذ مكانتها عند الحديث عن مدارس الرسم في العالم الإسلامي خلال القرن السابع وحتى القرن الثاني عشر الهجري. إلا أننا نواجه انقطاعًا لهذا الفن، واحتمال اندثاره خلال القرنين الأخيرين، لولا بروز بعض المعاصرين، ومنهم الرسام الأستاذ حسين بهزاد الذي أحيا من جديد مدارس هراة وأصفهان في فن الرسم والتصوير الفارسي «المينياتور». فمن حسين بهزاد؟ وما إبداعاته الفنية؟



أول ظهور للفن التصويري عند المسلمين كان في مدرسة بغداد، وظهرت تصاوير في الكتب العلمية والأدبية ككتب علم الخيل، و«عجائب المخلوقات»، و«كليلة ودمنة»، و«مقامات الحريري»، ولكنها كانت تصاوير مبسطة لا تحمل في طياتها أبعادًا فنية من


من أعمال حسين بهزاد


لوحة تمثل الشاعر فردوسي

الناحية التصويرية. أما الأدب الفارسي فكان حظه من عناية الرسم عظيماً فقد زُين بالرسوم والتصوير، وكانت دواوين الشعر مصورة في الغالب «كشاهنامه» فردوسي، وخمسه نظامي، وكلستان سعدي الشيرازي، بالإضافة إلى كتب التاريخ ككتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين، و«روضة الصفا» لميرخواند، إلى أن نصل إلى كمال الدين بهزاد «ت٩٤٢هـ» أعظم مصوري الفرس في العصر التيموري والصفوي(١).

وقد ظهرت عدة مدارس للتصوير في بلاد فارس، كالمدرسة المغولية، ومدرسة هراة والمدرسة الصفوية. واستقر المغول غرب إيران، وفي بغداد في القرن السابع، وبسبب علاقتهم التجارية مع الصين بدا التأثير الصيني واضحاً في الفن الإيراني في تلك المرحلة، فاللوحات الباقية من العصر المغولي تكشف عن السمات المغولية في الرسوم الإيرانية بشكل واضح(٢).

في العصر التيموري «القرن الثامن الهجري» تظهر المدرسة التيمورية في الرسم، ويجتمع مئات الرسامين والفنانين من بغداد ومدن فارس في سمرقند وبخارى.

وفي القرن التاسع تتحول هراة على عهد شاهرخ وبايسنقر إلى مدرسة جديدة في فن التصوير، وتمتلئ المكتبات الإسلامية والأوربية اليوم بنماذج من فن التصوير في مدرسة هراة، وقد وصلت مدرسة هراة إلى أوجها في عصر السلطان حسين بايقرا«ت٩١٢هـ» إذ اجتمع عنده عشرات الأدباء والعلماء والرسامين، وكان على رأس الفنانين كمال الدين بهزاد الهراتي الذي انتقل إلى تبريز في «٩٢٦هـ» مع الشاه إسماعيل الصفوي، وأصبح رمزاً للمدرسة الصفوية(٣).

وعلى الرغم من القيمة الفنية لرسوم مدرسة بخارى وهراة، أو العصر الصفوي فإن هناك ملاحظات نقدية أساسية على تلك المدارس والإنتاج الفني لتلك المرحلة.

وبعد كمال الدين بهزاد ظهر رضا عباسي على مسرح التصوير، وعلى الرغم من أن رضا عباسي «القرن ١١هـ» رسام العصر الصفوي بأصفهان أعطى دفعة جديدة لفن التصوير الإيراني «المينياتور» بجمعه بين الفن الإيراني والفن الأوربي، فإن ملامح الصورة المغولية وسماتها كانت واضحة

في لوحات تلك المرحلة. وفي القرنين التاليين «الثاني عشر والثالث عشر» بدا واضحاً توقف الإبداع في المينياتور الإيراني حتى ظهر الأستاذ حسين بهزاد في بداية القرن ١٤هـ، الذي أعطى لهذا الفن روحاً جديدة أحيت هذه المدرسة الفنية ورفعتها إلى مصاف الشهرة العالمية.

بهزاد منذ الطفولة

ولد حسين بهزاد في صفر سنة ١٣١٣هـ، «١٨٩٤م»(٤) بطهران من أبٍ أصفهاني كان ماهراً في النقش على المقلمة «علبة الأقلام». دخل المدرسة الابتدائية، ولكن أخرج منها بسبب ولعه وهوايته للرسوم، وعدم جديته في الدراسة، فأدخله أبوه مدرسة «مجمع الصنايع» لتعلم الفنون اليدوية، ودرس الرسم على يد الأستاذ ملا علي قلمدان، ومنذ طفولته كان بهزاد لا يفارق الورق والقلم يقول: في طفولتي كنت أحمل دائماً ورقة وقلماً، وكنت كلما أشاهد منظراً أو حركة لافتة أخرج قلمي وورقتي وأرسم ذلك المنظر من دون أن أتهيب أو أخجل من الآخرين. وبعد أن انتشر مرض الوباء فقد أباه وأستاذه، وأصبح يتيماً في طفولته، وانتقل إلى أستاذ آخر وعمل معه عشر سنوات، بحيث أصبح معروفاً في أوساط سوق الأعمال والمشغولات اليدوية الفنية .

كانت أعماله في تلك الفترة إعادة لوحات كمال الدين بهزاد ورضا عباسي المعروفة، وكانت مطابقة لها أو أفضل منها، وكانت تشترى من قبل السماسرة والأوربيين، وتباع على أنها أعمال وفنون إيرانية قديمة. وكان هناك أرمنيّ يسمّى غورياس



خسرو برويز في رحلة صيد

يشتري مخطوطات قديمة، ويعرضها على بهزاد ليرسمها من جديد، ويبيعها على أساس أنها نوادر فنية.

يروى أن «ديوان خمسه نظامي» الذي رسم حسين بهزاد لوحاته بيع إلى المتحف البريطاني بلندن بمبلغ ٨٠٠٠ ليرة إسترلينية على أساس أنها من الكتب الخطّية القديمة، ولم يستطع المشتري في حينه اكتشاف حداثة الرسوم لدقتها وروعتها الفنية.

بهزاد في شبابه

في الثانية والعشرين من عمره مرض بهزاد مرضاً شديداً

أقعده فترة، إلى أن تعالج وشفاه الله، وأول عمل قام به بعد مرضه رسم لوحات ديوان «خمسه نظامي» عام ١٩١٨م، التي كانت آية في الروعة، مما جعل الشاه رضا بهلوي الأول يدخله في السلك العسكري ليقربه منه، ولكنه هرب من الجيش بسبب الروح العسكرية والنظامية التي كانت تتناقض مع روحه اللطيفة، وعدم إمكانية الجمع بين الريشة والسلاح، يقول: أين الريشة والألوان والكاغد والكتاب من البندقية والرصاص والمعسكر. تزوج وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

بهزاد في باريس

في عام ١٩٣٦م، سافر بهزاد أول مرة إلى فرنسا لتعرف فنون الرسم الحديث، ولتأمين نفقات إقامته تعاقد مع صاحب متجر للأشياء العتيقة، لكي يرسم له لوحات إيرانية قديمة، واستطاع صاحب المتجر أن يبيع إحداها للمتحف السويسري على أنها لوحة فارسية قديمة. خلال إقامته في باريس تعرف متحف اللوفر، وكان يقضي عدة أيام فيه لكي يستوحي أصول الرسم الحديث والفن الكلاسيكي الأوربي، ويضيفها إلى فنه الشرقي.

بعد أن أقام سنة بفرنسا استطاع أن يستخدم الأساليب الحديثة في الفن الأوربي من دون أن يتجاوز الأصول والقواعد الأساسية للرسم الإيراني «المينياتور». يقول بهزاد عن سفره هذا: «إن سفري إلى باريس وتعرفي الفن الأوربي أوجدا فيّ تحولا كبيراً، واكتشفت من جديد قدراتي الفنية».

بعد رجوعه من باريس عمل مدة ثماني سنوات على رسم أشعار «رباعيات خيام» وجمع بين الرسم والتذهيب والتزويق(٥).

في عام ١٩٤٦م، أصبح موظفاً في المتحف الوطني الإيراني، وهناك تعرف شخصاً باسم علي جلالي، هذه الشخصية اكتشفت قدرات بهزاد ومواهبه الفنية، وشجعته على أن يقوم بأعمال فنية خالدة، حولّته إلى رسام على المستوى العالمي، وبسبب مشكلات بهزاد المالية وعده أن يبيع له بعض اللوحات لتغطية نفقاته، ومنذ ذلك التاريخ بدأ بهزاد بالإبداع الفني، وكانت



لوحة عمر الخيام

حصيلة تلك الفترة لوحات: فردوسي، وإيوان المدائن، وليلة القدر، وحافظ، التي تعدّ من أرقى لوحاته الفنية(٦).

في عام ١٩٥٤م، اشتركت في طهران مجموعة من الشخصيات الإسلامية والعالمية في مؤتمر ألفية ابن سينا، وعرضت لوحات حسين بهزاد ضمن فعاليات هذا المؤتمر، فدُهش الحاضرون من روعة تلك الأعمال، وكتب البروفيسور سهيل أنور أستاذ تاريخ الطب في جامعة إستانبول، والذي عرف رساماً ماهراً، كتب في جريدة الوطن التركية حينها: إن الأستاذ بهزاد لا يعدّ فناناً إيرانيا أو ملْكًا لإيران، وإنما هو فنان عالمي ينتمي إلى العالم ككل(٧).

باريس ثانية

في عام ١٩٥٥م، دعته الحكومة الفرنسية إلى زيارة فرنسا، فاستجاب للدعوة، وأقام فيها أول معرض له في متحف باريس الوطني المعاصر Art Modern، افتتحه وزير الثقافة الفرنسي وعدد من المستشرقين الفرنسيين، يقول جان ديويد ويل رئيس قسم الفن الإسلامي في متحف اللوفر بباريس: اسم بهزاد يثير فينا سحر فن التصوير الإيراني «المينياتور»، إن تناسق ألوان لوحاته التي لا مثيل لها وحركاته الحيوية ترجعنا من عصر الذرّة إلى الأزمنة القديمة، إن هذا الأستاذ استطاع أن يجمع بين فن الرسم المغولي والصفوي ومظاهر المدينة المعاصرة، وأن يستخدم تقدم الوسائل الفنية مع رسوم العصر التيموري(٨).

وصرح الرسام والشاعر الفرنسي جان كوكتو بعد أن شاهد لوحات بهزاد: لا شك ليس هناك في عصرنا في مجال المينياتور والرسم الشرقي من حيث قوة الطرح وانسجام الألوان إلاّ شخص واحد هو حسين بهزاد(٩).

واشنطن تستضيف بهزاد

في عام ١٩٥٦م، عُرضت خمسون لوحة من أعمال بهزاد حول رباعيات خيام في المتحف الوطني بواشنطن، وصرّح المستشرق ريجارد إثينغ هاوزن Ething hausen بعد أن شاهدها: الرسوم التي رسمها حسين بهزاد حول رباعيات الخيام تخرج من حالة الابتذال أو الإغراق، وتمثل أعمالاً أصيلة ودقيقة (١٠)، وقد جددت فترة العرض ثلاث مرات لكثرة الزائرين.

أخلاقه وصفاته

في حياته الخاصة كان طيب القلب صادقًا متواضعًا، وكانت له ميول وطنية واجتماعية، رسم أكثر من لوحة عن قضايا اجتماعية كحياة الفقراء إلى جانب النفط، وحياة الفقراء في جنوب المدينة.

وعلى الرغم من أن بهزاد أوجد بريشته مئات اللوحات



شيرين تنظر إلى صورة مزهار

الفنية والرسوم التي توّجت بعض صالات العالم، إلا أنه بسبب المصروفات الطبية كان يعاني حتى آخر حياته مشكلات مالية، يقول عن هذه المشكلة: «كلما تذكرت اللوحات التي كنت أبيعها لكي أغطي نفقات علاجي و أسرتي، أشتعل حرقة وأسفًا وأشعر أنني كنت أبيع فلذات قلبي ومهجتي» (١١).

إبداعاته الفنية

استطاع بهزاد أن ينقذ مدرسة التصوير الإيرانية التي أبدع فيها كل من كمال الدين بهزاد «ق١٠» ورضا عباسي «ق١١»، من حالة التقليد والاندثار، وأن يطورها من خلال خياله الواسع، ونبوغه العميق، وريشته الحيوية، وأن يوصلها إلى مراتبها العالية، وشهرتها العالمية. يقول بهزاد عن

وحـول الألوان يقـول: «كـانت الألوان كـثـيـرة ومتداخلـة وغير منظمة، حـاولت أن أجمعهـا، وأختار من بينها الألوان المتناسبة والمتناسقة. كذلك في مجال الأضـــواء والظـلال، أو المضيء والمظلم فـي الألوان حـاولت أن أبرزها من خـلال الخطوط الرقـيـقـة أو السميكة مما أعطى اللوحة وضوحاً أكثر».

لقـد استطـاع بهزاد أن يحـرر «المينيـاتور» والرسم من قـيـود الماضـي من دون أن يخـرج عن القـواعـد الأسـاسـيـة. إنه كـان أستـاذ الألوان ومـزجـهـا، وكـان يردد: المينيـاتور شعـر الرسم والتـصوير، ومـسؤوليـة رسام المينياتور هـو تصوير جماليات الحـياة، إن رسام الطبيـعة يعكس جمال الطـبيعة، ولكن رسـام المينياتور يكتشف ويستخرج جماليات الحياة ويعكسها في أجمل صورها.

إن لوحـاته انعكاس لروح الأدب الفارسي وعـمقـه ومعـرفتـه المستلهـمة من رباعـيات خـيام، وشاهـنامه فردوسي، وكلستان الشيرازي، وخمسه النظامي.

ولوحـات بـهـزاد تمتـاز بانسـجـامـهـا وتناسـقـهـا وتوازنـهـا ممّا يؤثر في المشـاهد تأثيـراً مـباشـراً، وإن الخطـوط الدائرية والمائلة ـ وهـي من خـصـــائص المينياتور الفارسي ـ في أعمال بهزاد لها تأثير روحي أقـرب إلى الموسيـقى الصوتيـة. إن الصور والوجـوه التي رسمـهـا ملأى بالحـيوية والانفـعال الروحي ممّا يجعل الـناظر يكتشف الـشخصيـة التي ينظر إلى صـورتها، فشخصيات فردوسي والعطار والرومي ماثلة أمام المشاهد في لوحاته.

مصير لوحاته

لقد انتـشرت لوحـات حـسين بهزاد في إيران، وفي كثـير من بلاد العـالم، فـهـناك ست لوحـات في المتـحف الوطـني للفنون، و١٢لوحـة في جامـعـة طـهـران، وعدة لوحـات في اليـونسكو، ولوحـة عـند جـوليـانا ملكة هولـندا، وعـشـرات اللـوحـات في مجـموعات بعض المشـاهير الشـخـصية مـثل: علي جلالي، أو في مـتاحف دوليـة، وأكبـر المجـموعـات هي ٢٨٩ لوحة كـاملة



أعمال مشابهة للفن القديم

إبداعـاته: إننـي أبعـدت الصـورة والملامح المغـوليـة من الرسم الإيراني، وكنت قـاصـداً إيجـاد أسـلوب وسـبك أصـيل وجـديد بحـيـث لا يكون تقليـداً للمـاضي، ولا خــروجـاً عن القــواعـد الأسـاسـيـة لفن التـصـوير الإيراني، ولذلك ذهبت عـام ١٩٣٦م إلى باريس لكـي أدرس فنون العـالم الجـديد، حـتى أخـرج الفن الإيراني من حـالتـه التقليـدية التي كـانت تسـير نحـو الاندثار، وقررت أن أوجـد أسلوباً يكون إيرانياً بـقواعده، ولكنه يـتفق مع أصول الفن والرسم الحديث(١٢).

ومن إبداعـاته إخراج اللوحـات عن أبعادها الصـغيـرة التي كانت بحجم أوراق الكتب إلى الأحجام الكبيرة. **لوحة عمر الخيام**

ناقصة - لم تكتمل - كانت محفوظة عند ورثة المرحوم بهزاد أهديت إلى متحف سعد آباد بشمال طهران، حيث أقيم له عام ١٩٩٤م، وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاده المصادف اليوم العالمي للمتاحف، جناح خاص باسم «جناح بهزاد». حيث تُعرض فيه اللوحات الأصلية.

وطبعت نماذج من هذه اللوحات في كتاب بعنوان «حياة وآثار المينياتور حسين بهزاد» والتي نرى بعضها في هذا المقال(١٣).

معارضه

بالإضافة إلى عشرات المعارض التي أقامها في إيران منذ ١٩٥٢-١٩٥٨م، أقام المعارض الآتية في عواصم العالم:

- لندن - بريطانيا ١٩٣١م.
- بوسطن - أمريكا ١٩٣٣م.
- باريس - فرنسا - متحف الفنون المعاصرة ١٩٥٥م.
- براغ - تشيكوسلوفاكيا - ١٩٥٦م.
- وارسو ١٩٥٦م.
- الهند ١٩٥٦م.
- اليابان ١٩٥٦م.
- واشنطن - مكتبة الكونغرس الأمريكي ١٩٥٦م.
- نيويورك ١٩٥٦م.
- المعرض الدولي في بلجيكا ١٩٥٨م.

الجوائز التي حصل عليها

- شارة الدرجة الأولى - وزارة الثقافة الإيرانية ١٩٤٩م.
- دبلوم أفضل رسام من أولمبياد الرسامين في هلسنكي ١٩٥٢م.
- شارة ابن سينا من المتحف الوطني الإيراني في «ألفية ابن سينا» عام ١٩٥٤م.
- دبلوم فخرية من المعرض الدولي البلجيكي ١٩٥٨م.
- شارة الدرجة الأولى من المسابقات الدولية في الرسم - مينابولس - أمريكا ١٩٥٨م، «وقد اشترك في المسابقة ٢٣٠ رساماً من ٩٧ دولة في العالم»
- وسام الدرجة الأولى في الفن - وزارة الفنون الجميلة - إيران.
- درجة أستاذ فخرية في الفن - كلية الفنون الجميلة الإيرانية - ١٩٦٨م.

وفاته

توفي الرسام حسين بهزاد في عام ١٩٦٨م،عن عمر يناهز الأربعة والسبعين، بعد أن مُنِحَ درجة دكتوراه فخرية من كلية الفنون الجميلة، وبعد أن توفي بهزاد انقطعت زوجته عن الطعام حزناً على زوجها، ولم تمض أيام حتى وافتها المنية هي الأخرى، ودفنت إلى جانب زوجها في مدينة الري جنوب طهران.

الهوامش

١- ولد كمال الدين بهزاد في مدينة هراة (١٤٤٠ - ١٥١٤م)، و درس النقش والخط على يد سيد أحمد التبريزي، وشملته رعاية السلطان حسين ميرزا (١٤٨٦ - ١٥٠٦م)، وفي العهد الصفوي رعاه الشاه إسماعيل الصفوي (١٥٠٢ -١٥٢٤م)، وابنه طهماسب في تبريز التي بقي فيها حتى مات.
المصور كمال الدين بهزاد دشن العصر الذهبي للتصوير الفارسي في مدرسة هراة وتبريز، ونجد آثاره في مخطوطات تاريخ تيمور لنك، وقصة مجنون ليلى؛ وقد ظهر فيها تنوع التكوينات وقيمتها الزخرفية والإعجاز في الأداء وقوة الأوضاع التعبيرية، وغنى الألوان وتناغمها القوي، مما يشكل الخصائص التي تمتاز بها مدرسته. دائرة المعارف الإسلامية مادة التصوير ج٥/ ٢٩٨ طبعة مصر ١٩٣٣، ودار المعرفة بيروت - لبنان.

2 - Binyon, wilkinson and Gray: Persian Miniatare Painting. pp. 34- 46.

٣- انظر هامش (١) هناك عدة لوحات من أعمال كمال الدين بهزاد في مخطوطة بوستان سعدي في (دار الكتب المصرية) بالقاهرة. التصوير في الإسلام عند الفرس للدكتور زكي محمد حسن، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٣٦م.

٤- المعلومات عن سيرة حياة حسين بهزاد من كتاب: ناصري بور، محمد، آفرين بر قلمت اي بهزاد «حياة وآثار الأستاذ المينياتور حسين بهزاد»، دار سروش، طهران ١٩٩٩م.

٥- عرضت لوحات رباعيات خيام في معرض خاص به بنيويورك وواشنطن عام ١٩٥٦م.

٦- يحتفظ علي جلالي بمجموعة من لوحات بهزاد في مجموعته الشخصية.

٧- ناصري بور ص٢٧.

٨- السابق ص ٢٩.

٩- السابق ص ٢٩.

١٠- السابق ص ٣٠.

١١- السابق ص ٣١.

١٢- السابق ص ٧.

١٣- ناصري بور، محمد، حياة وآثار الأستاذ المينياتور حسين بهزاد، دار سروش، طهران ١٩٩٩م.

المؤتمر التاسع لتعريب العلوم

تنظم جامعة عين شمس

والجمعية المصرية لتعريب العلوم

المؤتمر السنوي التاسع لتعريب العلوم

بالقاهرة بعنوان: تعريب العلوم قضية تنمية قومية
تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء المصري
وذلك يومي الأربعاء والخميس ٩ـ١٠ من المحرم سنة ١٤٢٤هـ (١٢-١٣مارس/اذار عام ٢٠٠٣م)
دار الضيافة ـ جامعة عين شمس العباسية ـ القاهرة

محاور المؤتمر

- عناصر منظومة تعريب العلوم.
- دور اللغة القومية في التعليم العام وفي التعليم الجامعي.
- دور التعريب في رفع كفاءة العملية التعليمية.
- اللغات الأجنبية في التعليم والثقافة.
- الجوانب القانونية والاقتصادية لتعريب التعليم.
- التعريب والهوية.
- تعريب العلوم وتقنيات المعلومات.
- اللغة والتوصيف القياسي.

ترسل البحوث في إطار محاور المؤتمر مكتوبة باللغة العربية، متضمنة ملخصاً وافيًا لها في صفحة واحدة. ويرجى ألا يتعدى البحث كاملاً بالموضحات خمس عشرة صفحة، علمًا أن البحوث سوف تخضع للتحكيم.

يرجى أن يرسل البحث مكتوباً على الحاسوب نظام I.B.M، برنامج الكلمة word بالبريد الإلكتروني، أو يرسل القرص مع البحث المطبوع إذا تعذر ذلك

مواعيد مهمة

استلام نص الباحث كاملاً حتى ١٥يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٣م.

إعلام الباحث بقبول البحث حتى ١٥فبراير/شباط عام ٢٠٠٣م.

حلقتا نقاش

يتضمن المؤتمر حلقتي نقاش تعالجان القضيتين الآتيتين:

١ـ لغة التعليم.

٢ـ اللغة بوصفها منظومة فكرية.

ترسل أوراق العمل لهاتين الحلقتين في حدود ١٠٠٠كلمة في موعد غايته الخامس عشر من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٣م.

معرض

يصاحب المؤتمر معرض للكتب والدوريات والبرامج الحاسوبية العلمية العربية مؤلفة أو مترجمة. وترحب الجمعية بأصحاب دور النشر والمكتبات ومنتجي البرامج ومسوقيها لعرض منتجاتهم، والتعريف بنشاطهم. كما ترحب الجمعية بالهيئات العلمية للتعريف بجهودها في مجال التعريب.

لمزيد من التفاصيل يتم الاتصال بالجمعية: ص ب ٥٣٠١ غرب مصر الجديدة، القاهرة ١١٧٧١، مصر
ناسوخ (فاكس) ٦٣٧٧٤٤٦ _ البريد الإلكتروني mhamalwy@ hotmail.com
الصفحةالإلكترونية www.taareeb.org

الملف الثقافي

ولي العهد
يرعى حفل انطلاق الجنادرية ١٨

إعلان الفائزين
بجائزة الملك فيصل العالمية

مؤسسة الفكر العربي
واستشراف المستقبل

محاضرتان للشبيلي والتميمي
ومعرض للفنان هوندا
في مركز الملك فيصل

رحيل بلخير والدقر والعزاز

جوائز لسلمى بوقري
والرملي وفرزات

إحياء تراث همنغواي

غونتر غراس ضيف اليمن

خاتمة المطاف

الحوار والانفعال



ولي العهد يرعى
حفل انطلاق الجنادرية (١٨)

يفتتح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني في الخامس من شهر ذي القعدة الحالي فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة «الجنادرية» في دورته الثامنة عشرة، والذي ينظمه الحرس الوطني سنويًا.



الأمير عبدالله بن عبد العزيز

ويتضمن المهرجان عدداً من الفعاليات الثقافية المتنوعة التي تضم الأوبريت، والندوات، والمحاضرات، والأمسيات الشعرية، والعروض المسرحية، والفنون التشكيلية، والفنون الشعبية وغيرها، إلى جانب معرض الكتاب، والإصدارات الثقافية.

وسيشهد اليوم الأول من المهرجان انطلاق سباق الهجن السنوي الكبير، ثم الحفل الخطابي، وإلقاءً شعرياً للدكتور خالد الحليبي، وقصيدة شعبية للشاعر خلف بن هذال العتيبي، كما سيتم في الحفل الخطابي تكريم الأديب أحمد علي المبارك في إطار مشروع المهرجان السنوي (تكريم شخصية سعودية) ، كما سيتم، بالتعاون مع وزارة التجارة، تكريم عدد من رجال الأعمال السعوديين لإسهاماتهم الوطنية.

الأوبريت هذا العام قصيدة كتبها الشاعر عبدالرحمن العشماوي، تناول فيها مختلف بقاع العالم الإسلامي والفتوحات، وأبرز المعالم الإسلامية، وقام بتلحينه الدكتور عبدالرب إدريس، وبإخراجه الفنان السوري نجدت أنزور. ويتضمن الأوبريت أربعة مشاهد تمثيلية كتبها نخبة من الكتّاب العرب منهم: محمود عبدالكريم، ومحمود أبو العباس، والسيد حافظ، أما الفنانون المشاركون في الأداء فهم: الفنان محمد عبده، والسوري صباح فخري، والكويتي أحمد الحربي، ويؤدي المشاهد التمثيلية نخبة من نجوم الدراما العربية منهم: يوسف المقبل، ومحمد حسن الجندي، وأنطوان كرباج، ومروان أبو شاهين، وراشد الشمراني، وزيناتي قدسية، وجهاد الأندري، إضافة إلى ممثل بريطاني.

وسيقام على هامش المهرجان معرض تكريمي للفنان الراحل صالح العزاز يضم مجموعة من أعماله المتميزة.

ويبدأ النشاط الثقافي في يوم الخميس السادس من ذي القعدة، بحفل خطابي يتضمن قصيدة للشاعر الدكتور ناصر الزهراني، ثم الندوة التكريمية للأستاذ الأديب أحمد علي المبارك التي يشارك فيها كل من: خالد الحليبي، وخليل إبراهيم الفزيع، وعبدالله سعد العبدالهادي، وأحمد سالم باعطب، ويديرها أحمد القاضي.

ومن الندوات التي يتضمنها المهرجان محاضرة بعنوان «هذا هو الإسلام» يلقيها الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ويديرها إبراهيم أبو عباة، وندوة بعنوان «حقيقة الإسلام» ويشارك فيها كل من الدكتور عبدالله المطلق، والأستاذ حمزة يوسف، والدكتور خالد المذكور، ويديرها خليل عبدالله الخليل، وندوة «الإسلام والعالم» يشارك فيها كل من: الدكتورعبدالوهاب أبو سليمان، والدكتور محمد علي تسخيري، والدكتور إسحاق أحمد الفرحان، وندوة بعنوان «العرب والمسلمون في الإعلام الغربي» يشارك فيها كل من: الدكتور جون إسبزيتو، ومعالي الأستاذ جميل الحجيلان، ويديرها الدكتور خالد العواد، وندوة «الجهاد والسلام في الإسلام» ويشارك فيها كل من: الدكتور جعفر شيخ إدريس، والدكتور عائض القرني، ويديرها الدكتور عبدالعزيز الثنيان، وندوة بعنوان «المؤسسات الخيرية» يشارك فيها كل من الشيخ عقيل العقيل، والدكتور عبدالرحمن السميط، والدكتور نهاد عوض، ويديرها علي آل

عمران عسيري، وندوة بعنوان: «موقف الإسلام من الإرهاب» ويشارك فيها كل من: الدكتور عبدالله التركي، والدكتور عطاء الله المهاجرني، والدكتور مراد هوفمان، ويديرها راشد الراشد. وندوة بعنوان: «دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بناء المجتمع» يشارك فيها كل من: الشيخ إبراهيم الغيث، والدكتور عبدالله الفوزان، والدكتور سلمان العودة، ويديرها الدكتور صالح العايد، وندوة «الفضائيات العربية بين النقد والتقويم» يشارك فيها كل من: الدكتور غازي العريضي، والدكتور عبدالقادر طاش، ود. حمدي أبو العينين، وجاسم العزاوي، ويديرها د.عثمان الصيني.

كما يتضمن المهرجان محاضرات أخرى هي «الإستراتيجيات الغربية في العالم الإسلامي» يلقيها الدكتور بول فندلي، ويديرها الدكتور صالح المانع.

ويشتمل المهرجان على عدد من الأمسيات الشعرية: أولاها للدكتور غازي القصيبي، ويديرها الدكتور حسن الهويمل، والثانية يشارك فيها كل من: عبدالرحمن العشماوي، وقاسم حداد، وأحمد سويلم، وعلي الصقلي، ويديرها د. عبدالله أبو داهش، وهناك أمسيتان للشعر الشعبي.

أما النشاط الثقافي النسائي فيتضمن ثلاث ندوات: أولاها ندوة بعنوان «صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي» تشارك فيها كل من: منيرة عبدالله القاسم مديرة للندوة، والدكتورة نورة العدوان، والدكتورة نورة السعد.

والندوة الثانية بعنوان: «المرأة بين الاعتزاز والهزيمة النفسية» تشارك فيها كل من: الدكتورة موزة الكعبي مديرة للحوار، والدكتورة فوزية الشايع، وأناهيد السمري، والندوة الثالثة بعنوان: «الحرية بين الفوضى والتقييد» تشارك فيها كل من: الدكتورة منيرة سليمان العلولا، مديرة للحوار، وبهيجة عزي، والدكتورة نوال العيد،أما الأمسية الأدبية فتشارك فيها كل من:مزنة المبارك، وفاطمة عبد المتعالي، وأمل مدشل.

إعلان جائزة الملك فيصل العالمية

الأمير خالد الفيصل: نمد أيدينا لكل من يريد الإسهام معنا في بناء الحضارة:

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية في مساء يوم الثلاثاء ٢١ رمضان الماضي الموافق (٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢م) أسماء الفائزين بالجائزة لهذا العام (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ففاز بجائزة الدراسات الإسلامية اثنان هما: الأستاذ الدكتور عز الدين عمر موسى (السودان)، والأستاذ إبراهيم أبو بكر حركات (المغرب)، وفاز بجائز الطب الأستاذ الدكتورامبيرتو فيرونيسي (إيطاليا)، والأستاذ الدكتور آكسل أولرخ (ألمانيا)، بينما فاز بجائزة العلوم (الكيمياء) كل من: الأستاذ الدكتور ماريون فريديك هوثرون (أمريكا)، والأستاذ الدكتور كوجي ناكانيشي (اليابان)، أما جائزة الأدب وكان موضوعها « تعريفات المصطلحات الأدبية والنقدية» فقد حجبت هذا العام لعدم ارتقاء الأعمال المتقدمة إلى مستوى الجائزة، بينما ستعلن جائزة خدمة الإسلام بعد عيد الأضحى المبارك.



الأمير خالد الفيصل

وجاء في كلمة سموه: «أشكر الجميع على الحضور لهذه المناسبة السعيدة، وإنني باسم مؤسسة الملك فيصل الخيرية، وجائزة الملك فيصل العالمية أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لقيادة المملكة العربية السعودية ممثلة في مولاي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، وسمو ولي عهده الأمين، وسمو النائب الثاني ولحكومتهم الرشيدة على ما تجده هذه المؤسسة وهذه الهيئة من دعم معنوي ومادي في سبيل القيام بواجباتها الثقافية والإنسانية، وأتقدم بالشكر لكل من لجان الاختيار والمؤسسات التي قدمت المرشحين لهذه



عزالدين عمر موسى



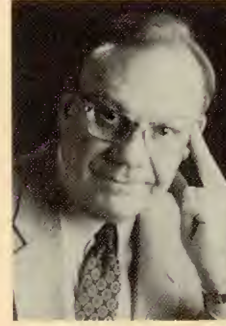
إبراهيم أبو بكر حركات



أمبيرتو فيرونيسي



آكسل أولرخ



ماريون هوثرون



كوجي ناكانيشي

الجائزة، وكذلك النخبة الإدارية المتميزة.

وأضاف سموه: يعد هذا العمل الجميل إشراقة تشرق كل عام في سماء الرياض، ودليلاً جديداً على ما تتميز به هذه الأمة وهذا المجتمع من قيم إسلامية وإنسانية عالية تقدم للبشرية جمعاء آفاقًا في خدمة الثقافة والأعمال الخيرية وخدمة الإنسانية.

إن هذا العمل هو الجواب التطبيقي والعملي والمثالي لكل الاتهامات التي توجه لأمتنا العربية والإسلامية، وكل الصفات التي دعت بعض المغرضين لإلصاقها بالإنسان المسلم والعربي في هذه المعمورة، إننا نقول لهم بأننا لا نأبه بكيد المغرضين، ولا بإساءة المسيئين، ولا باتهامات الحاقدين، ولكننا نفعل ما تمليه علينا قيمنا وأخلاقنا الإسلامية والعربية التي شهد عليها التاريخ بحضاراتنا المتتالية في العالمين الإسلامي والعربي، بل في جميع أنحاء العالم. وخير دليل على ذلك هذا الجمع المبارك ففينا الشرقي والغربي والمسلم والمسيحي في صالة واحدة لهدف واحد هو خدمة الثقافة والإنسانية.

إننا نقول لمن يتحدث عن صراع الحضارات بأننا نؤمن بأن الحضارة واحدة هي حضارة (الإنسان)، الإنسانية لا شرقية ولا غربية، لم تقم الحضارة من فراغ، بل قامت على أكتاف من سبقها من حضارات، وإننا نمد أيدينا جميعًا في هذه البقعة الطاهرة لكل من أراد أن يساهم معنا في بناء حضارة الغد حضارة المستقبل، حضارة الإنسان، هذا الكون المتحضر ليس المتحضر بالماديات بل المتحضر بالقيم والمثاليات، فمن أراد أن يشاركنا فمرحبًا بهذه المشاركة».

عقب ذلك قرأ الأمين العام للجائزة الدكتور عبدالله العثيمين البيان الختامي الذي أعلن فيه أسماء الفائزين ومسوغات نيلهم جوائز هذا العام.

مؤسسة الفكر العربي واستشراف المستقبل

رأس صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، أمير منطقة عسير رئيس مؤسسة الفكر العربي في بيروت في السادس عشر من شوال الماضي، الاجتماع الخامس لمجلس أمناء المؤسسة، وعقب الاجتماع عقد الأمير خالد الفيصل مؤتمراً صحفياً أوضح فيه أن أعضاء المجلس قد ناقشوا جميع المواد المدرجة على جدول الأعمال ومنها تعيين السفير علي ماهر السيد أميناً عاماً لمؤسسة الفكر العربي، وبيّن سموه أن المجلس ناقش موضوع تنظيم المؤتمر الثاني لمؤسسة الفكر العربي المزمع إقامته إن شاء الله في بيروت العام القادم. وقد شكلت لجنة للمؤتمر برئاسة النائبة اللبنانية بهية الحريري، وبعض أعضاء مجلس الإدارة للتحضير لهذا المؤتمر.

وأضاف أن المجلس ناقش أيضًا الميزانية الماضية للمؤسسة ومشروع ميزانية العام المقبل، وجميع الأنشطة التي ستقوم بها المؤسسة من الناحية الإدارية ومن الناحية الثقافية، كما أوضح أن المؤسسة قد أخذت مكانًا مؤقتًا في الوسط التجاري في بيروت ومن المقرر افتتاح المقر في الربيع المقبل في أثناء الاجتماع القادم لمجلس الأمناء في بيروت.

وعن المهام التي قامت بها المؤسسة قال سموه: إن المؤسسة بدأت بنقل الرأي والفكر العربيين، للغرب، واشتركنا أكثر من مرة في مؤتمرات حيث كانت المشاركة الأولى في مؤتمر دافوس في العام الماضي في نيويورك، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني عقدنا جلسات مشتركة مع مؤسسة فورتشن بوانيص وأعطي للمؤسسة يوم كامل لمناقشة أحوال الأمة العربية. وبيّن أن هذه الجلسات كانت ناجحة، وأن جميع المشاركين الذين تحدثوا عن الأمة العربية، من بينهم بعض الأمريكان من أصدقاء الأمة العربية، والآن يطلب منا المشاركة في مؤتمرات أخرى مثل هذه المؤتمرات في أوربا وأمريكا.

ورداً على سؤال حول مرجعية المؤسسة الثقافية قال سمو الأمير خالد الفيصل: نحن لا ندعي أن نكون مرجعية ولكن نحن نريد أن نكون عضواً فعالاً في الحركة الثقافية في العالم العربي، نرجو أن يكون لدينا طرح جديد، وخطاب جديد، وأسلوب جديد للتعامل مع هذا العالم الجديد الذي نعيش فيه والأمة العربية مطالبة في الوقت الحاضر أن تبرهن على أنها قادرة على الوقوف جنباً إلى جنب مع باقي الأمم سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

وأورد سموه: «نحن لا ينقصنا العنصر البشري بالنسبة إلى المفكرين وبالنسبة إلى المثقفين وبالنسبة إلى القدرات التعليمية والثقافية فهي متوافرة في العالم العربي الغني برجاله ونسائه، ما ينقصنا هو التخطيط السليم ووضع الخطط السليمة في برامج فعالة يمكن تنفيذها، وأعتقد أن السياسة الحكيمة التي يجب أن يتبعها العالم العربي هي سياسة فن الممكن.

وفيما يتعلق بحرية عمل المؤسسة وإمكانية خضوعها لرقابة معينة أوضح سموه أن الرقابة الوحيدة في المؤسسة هي رقابة الضمير والرقابة الأخلاقية.

عقب ذلك تحدث سمو الأمير بندر بن خالد الفيصل عن مؤتمر فورتشن الذي شاركت فيه مؤسسة الفكر العربي في واشنطن وقال سموه: إنه خلال شهر نوفمبر الماضي/تشرين الثاني دعت مجلة فورتشن الأمريكية كبار مديري الشركات في العالم للمؤتمر، وكان أول مرة يقام في أمريكا، وكانت فرصة لمؤسسة الفكر العربي لتكون أحد رعاة هذا المؤتمر حيث خصص يوم كامل لمناقشة أحوال الأمة العربية وشرح قضاياها، وأن جميع المتحدثين كانوا من جميع الدول العربية من سياسيين ورجال أعمال وبعض أعضاء مؤسسة الفكر العربي وأيضاً من قبل المفكرين والساسة الغربيين، وأوضح الأمير بندر بن خالد الفيصل أن هذا الاجتماع كان بناءً جداً وأن المؤسسة حاولت إعطاء فكرة عن العالم العربي وتصحيح المفهوم عن الإسلام والمسلمين، وأردف قائلاً: إن هذا المؤتمر حقق نجاحاً كبيراً، لكنه خطا خطوة واحدة يجب أن تكون هناك خطوات كثيرة لتبني مثل هذه المشروعات من قبل مؤسسات حكومية وغير حكومية عن الأمة العربية كلها.

من جهتها أعلنت النائبة بهية الحريري أن هناك تحضيرات تجرى لعقد مؤتمر للعرب الأمريكيين في ديترويت، وأن مؤسسة الفكر العربي تدرس المشاركة في هذا المؤتمر لطرح عدة قضايا وخاصة قضية المرأة لما لهذا النوع من المؤتمرات من أهمية لمد الجسور بين الأمريكيين والعرب.

وتحدث الأمير خالد الفيصل عن تدعيم مركز المرأة ودورها في أنشطة المؤسسة مشيراً إلى انضمام الدكتورة فريدة العلافي المعروفة بأنشطتها الفكرية إلى مجلس الإدارة إلى جانب تأكيد سموه الدور الذي تقوم به اللجنة المختصة بهذا الموضوع ورئيستها النائبة بهية الحريري.

وأبدى سمو الأمير خالد الفيصل غبطته بما تم إنجازه خلال السنة الأولى من عمر المؤسسة وأظهر تفاؤلاً كبيراً بالمستقبل في ظل الدعم الذي تلقاه من المفكرين على مستوى العالم العربي.

يذكر أن موضوع المؤتمر المقبل سيدور حول محور مهم هو استشراف مستقبل العالم العربي في ظل التحديات الراهنة.

آفاق جديدة للخط العربي

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في مساء يوم السبت ٢٤ شوال الماضي، معرض «آفاق جديدة للخط العربي» للخطاط

الياباني فؤاد قوئيتشي هوندا، وذلك في مركز الخزامى بالرياض.

وقد قام سموه بقص الشريط إيذاناً بافتتاح المعرض الذي استمر لمدة أربعة أيام، وتجول سموه في المعرض برفقة الفنان هوندا الذي قدم شرحاً حول اللوحات، وسجل سموه كلمة في سجل الزوار.



الأمير تركي الفيصل

وقد ضم المعرض عدداً من اللوحات، التي امتزج فيها الفن التشكيلي بالخط العربي. وتنوعت أنواع الخطوط المستخدمة في اللوحات ما بين الثلث، والديواني، والتعليق، والديواني الجلي.



الفنان فؤاد هوندا

وفي نهاية الحفل عقد سمو الأمير مؤتمراً صحفياً أجاب فيه عن أسئلة الصحفيين حول تنظيم المعرض، وذكر أن هوندا دُعيّ بمبادرة من المركز، وإذا وجدنا - إن شاء الله - مبدعين آخرين يستحقون الدعوة فسوف نقوم بدعوتهم.

ويعد هوندا من أبرز المتعاملين مع الحرف العربي، وقد تخرج من جامعة طوكيو لدراسات اللغات الأجنبية - قسم اللغة العربية، ثم عمل مدرساً للخط العربي في مركز الثقافة التابع للإذاعة اليابانية، وأقام معارض في كل من: القاهرة، وطوكيو، وأوزاكا باليابان، وأبو ظبي، والكويت، وكوالالمبور، ومسقط، واختير من ضمن خمسة من أكبر الخطاطين المعاصرين في العالم في عام ١٩٩٦م، وحاز إجازة الخط العربي عام ٢٠٠٠م من الأستاذ حسن الجلبي في إستانبول.

محاضرتان في الموسم الثقافي لمركز الملك فيصل

ضمن الموسم الثقافي لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، أقيمت في مساء الاثنين ١٢شوال ١٤٢٣هـ الموافق ١٦ ديسمبر /كانون الاول ٢٠٠٢م بقاعة المحاضرات التابعة للمركز محاضرة بعنوان «الإعلام الخارجي في عهد الملك عبدالعزيز» ألقاها الدكتور عبدالرحمن الشبيلي عضو مجلس الشورى، وأدارها الدكتور عبدالعزيز بن سلمة، كما ألقى الدكتور عبدالجليل التميمي رئيس مؤسسة التميمي للبحث العلمي محاضرة بعنوان«الدراسات الموريسكية الأندلسية بين الواقع والمأمول» في مساء يوم ١٩شوال الماضي (٢٣ديسمبر)

وقد تضمنت محاضرة الشبيلي سبعة مباحث رئيسة، بدأها المحاضر بمقدمة تاريخية عن اهتمام الملك عبدالعزيز المبكر بالإعلام.

ثم تحدث المحاضر عن محور: «صحفيون سعوديون وراء الحدود» وهم السعوديون الذين استقر بهم المقام في المهجر، ومن أبرزهم: سليمان بن صالح الدخيل، وهو الأشهر بينهم حيث هاجر إلى الهند ثم إلى العراق وأسس باسم الرياض في بغداد مطبعة وجريدة، كما كتب في مجلة (لغة العرب) سلسلة مقالات (النجديات). وعبداللطيف بن ثنيان، وهو صحفي وكاتب وأديب عراقي بارز نزحت أسرته من الدرعية، وقد أصدر عام ١٣٢٧هـ جريدة (الرقيب) البغدادية.

وهناك أربعة من أسرة الزهير المعروفة في حريملاء وهم: أحمد باشا، وعبدالله، وعثمان، وسليمان الزهير، أصدروا صحفاً في البصرة وبغداد وإستانبول.

ثم تحدث الشبيلي عن الصحفيين العرب والأجانب المقيمين في البلاد، ومن أبرزهم: الشيخ يوسف ياسين ورشدي ملحس، وعبدالله فيلبي، والمستشرق النمساوي محمد أسد الدين.

أما المحور الثالث في المحاضرة فجاء بعنوان: «الملك عبدالعزيز ووسائل الإعلام الخارجية» فقد صدرت كتب تتحدث عن هذا الموضوع مما يقدم دليلاً على حجم النشاط الإعلام الخارجي في تلك الفترة من ناحية، وعلى اهتمام الملك عبدالعزيز بما كانت تكتبه الصحافة الخارجية، عن بلاده والاطلاع على وجهة نظر الرأي العام الخارجي تجاه سياسته من ناحية أخرى، وقد أجرى

صحفيون وأجانب معه رحمه الله لقاءات صحفية.

ثم انتقل المحاضر إلى الحديث عن المبتعثين الإعلاميين للملك عبدالعزيز في الخارج. إذ قال: «ومن أكثر صور الإعلام الخارجي تقدماً في عهد الملك عبدالعزيز ما اتسم به من إيفاد مبعوثين إعلاميين إلى دول إسلامية بهدف الدفاع عن المملكة، وتوضيح مواقفها، وشرح سياستها، وتزويد الصحف العالمية بمعلومات عن أوضاعها، حيث بدأ إرسال تلك الوفود في مطلع الخمسينيات الهجرية، كما رصد المحاضر أسماء مجموعة من المبعوثين الذين تم إيفادهم لهذا الغرض.

وحول الكتب الإعلامية والتوثيقية ذكر المحاضر أربعة أنواع من المؤلفات:


عبدالرحمن الشبيلي

نوع تغلب عليه الصيغة الإعلامية البحت، ونوع تغلب عليه الصيغة الانطباعية الصحفية، ونوع ثالث يتسم بالتوثيق، ونوع رابع ذو طبعة إرشادية، وذكر أمثلة لكل نوع.

وجاء المحور الأخير بعنوان «التصوير الفوتوغرافي والسينمائي» فقد تضمنت الوثائق البريطانية لعام ١٩٣٤م خبراً عن تمكن اثنين من الهنود من تصوير لقطات سينمائية للحج عرضت في ذلك العام في بريطانيا، لكن أهم ما تم في هذا المجال هو الفيلم التسجيلي الذي أنتجه بنك مصر بواسطة شركة مصر للتمثيل والسينما، لتوثيق الحج عام ١٣٥٧هـ، بتسهيلات من الحكومة السعودية، وهو فيلم بعنوان «بلادنا المقدسة» يضم مشاهد كاملة عن الحج وخطاباً بالصوت والصورة للملك عبدالعزيز موجهاً إلى المسلمين.

اما المحاضرة الثانية فكانت للدكتور عبدالجليل التميمي التي جاءت بعنوان «الدراسات الموريسكية بين الواقع والمأمول» والذي أوضح أن اهتمامه بملف الموريسكيين يعود إلى عام ١٩٦٦م بعد أن اطلع في الوثائق والدفاتر العثمانية شيئاً من أخبار الموريسكيين ومأساتهم، مما دفعه إلى الاهتمام بهذا الموضوع ومعرفة حجم الدراسات المتعلقة بهم لدى المتخصصين والباحثين الغربيين وخصوصاً الإسبان، وأشار المحاضر إلى البون الشاسع بين بحوث المتخصصين والمؤرخين الأجانب والعرب. وكان التميمي قد أخذ على عاتقه مبادرة جمع البيانات البلوغرافية عن الدراسات الموريسكية المنشورة في العالم منذ أواخر القرن السادس عشر حتى عام ١٩٩٤م.

وتحدث التميمي عما قام به من جهود في هذا المجال حيث قام بحصر نحو (١٥٠٠) اسم للمؤلفين من غير العرب والمسلمين الذين نشروا بحوثًا حول ملف الموريسكيين الأندلسيين بينما بلغ عدد الباحثين العرب نحو مئة اسم عربي.

كما قام بحصر (٣٥٧٧) مصدراً ومرجعًا لهذه الدراسات، وكان إسهام العالم العربي والإسلامي بحدود ١٣٠ بحثًا باللغة العربية وقرابة ٤٠ بحثًا آخر فقط مترجم إلى العربية من عدة لغات، كما قام بحصر (٨٥٠) باباً وموضوعاً تمت معالجته من قبل الباحثين والمؤرخين الأجانب، وقد تعددت موضوعات هذه الدراسات منها: سجلات الضرائب المفروضة على الموريسكيين، وأملاك الموريسكيين في كل المدن الأندلسية، وبيعها، وتفقير أصحابها، والحياة الدينية اليومية لهم، والجرائم وأنواع العقوبات التي وقعت عليهم، وفي الأخص على النساء، حيث دفعن إلى ممارسة أبشع المهن كالبغاء، وطردهم من مدينة إلى مدينة، وأعدادهم والانعكاسات الاقتصادية والديموغرافية والاجتماعية لعملية الطرد في الفضاء الأندلسي، والأنثربولوجيا الثقافية للموريسكيين: المطبخ، واللباس، والحلي ودواخل البيت الموريسكي. ثم أشار التميمي إلى مختبرين أساسيين حول الدراسات الالخميادية بصفة خاصة، أحدهما بجامعة أوفيدو بإسبانيا، وثانيهما بجامعة بورتوريكو.


عبدالجليل التميمي

وتساءل التميمي عن دور مؤسساتنا العربية في تناول موضوع الموريسكيين ثم تداعيات ذلك خلال العشرين سنة الماضية؟.

ثم تحدث عن الجهود التي قامت بها مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات التي نشرت نحو (٤٠٩) أبحاث لأشهر المؤرخين الأجانب في هذا الاختصاص باللغات: الإسبانية والفرنسية والإنجليزية والبرتغالية: وفي نهاية المحاضرة قدم التميمي بعض المقترحات منها:

- السعي إلى تعريب مختارات من الأدب الموريسكي، وتعميم موقع على شبكة الانترنت لشرح ملف الموريسكيين باللغتين الإسبانية والعربية في الوقت نفسه، وإعداد دائرة معارف موريسكية متكاملة باللغتين العربية والإسبانية، وتكثيف الجهود لتعريب الدراسات التاريخية الفاصلة في تاريخ الموريسكيين.

ووجه التميمي في نهاية محاضرته إلى ضرورة اهتمام السينمائيين العرب بهذا التاريخ وشدد على أهمية الحوار الأكاديمي مع الباحثين والمؤرخين الغربيين والأمريكيين.

سعودية تفوز بجائزة عالمية

فازت الشاعرة السعودية سلمى سراج بوقري (٢٣ عاماً) بالجائزة الكبرى لجمعية الشعر العالمي بواشنطن على قصائدها التي تكتبها بالإنجليزية، وقد نوهت الجمعية في إعلانها لجائزة عام ٢٠٠٢م بقصائد الشاعرة، وعلى رأسها قصائدها «همسات من البعيد»، و«زهرة الحوذان»، و«أنت هو». فقد قررت الجمعية طباعة قصائد الشاعرة على أسطوانة ليزر، ومنحها كأس الجمعية، وشهادة الفوز.

يذكر أن سلمى بوقري من خريجات قسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب، جامعة الملك عبدالعزيز في جدة العام الماضي.

بلخير في ذمة الله

انتقل إلى رحمة الله في الرابع من شوال ١٤٢٣هـ الموافق ١٠ ديسمبر/كانون الثاني ٢٠٠٢م الأستاذ عبدالله عمر بلخير عن عمر يناهز المئة عام، ويعد بلخير من الرعيل المؤسس للإعلام السعودي، ومن الذين أسهموا في المشروع الحضاري للوطن. وشاءت الأقدار أن تكون بيروت مثواه الأخير حيث أتاح له وجوده فيها في شبابه التقاء الرعيل الأول من القوميين العرب، وفي مقدمتهم ساطع الحصري.


عبدالله عمر بلخير

تلقى بلخير تعليمه في مدرسة الفلاح عام ١٣٥٣هـ بمكة المكرمة، ثم التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٥م)، وبقي بها خمسة أعوام، ثم التحق بعد ذلك بالشعبة السياسية في ديوان الملك عبدالعزيز - رحمه الله - سنة ١٣٦٠هـ الموافق ١٩٤٠م في قسم شؤون الإذاعة والصحافة طوال أعوام الحرب العالمية الثانية، ثم أصبح مترجماً مرافقاً لجلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله في أكثر لقاءات جلالته بزعماء الدول وسفرائها ووفودها خلال تلك الأعوام. ورافق الملك عبدالعزيز في لقائه بالرئيسين روزفلت، وتشرشل.

تنقل بلخير في عدد من الوظائف الحكومية، فقد عُين رئيساً لديوان إمارة منطقة الرياض بضع سنوات عندما تولى الإمارة الأمير سلطان بن عبدالعزيز آنذاك، ثم عين سكرتيراً ورئيساً بالنيابة لديوان جلالة الملك سعود رحمه الله، ثم كلف بإنشاء المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر سنة ١٣٧٤هـ، وعين بعد ذلك وزير دولة لشؤون الإذاعة والصحافة والنشر في سنة ١٣٨١هـ.

بدأ قرض الشعر من حداثته وهو طالب بمدرسة الفلاح، واتسمت بدايته بروح إسلامية وعربية متفجرة، فلقبته الصحافة بـ «شاعر الشباب»، وله كتاب مهم شارك في تأليفه محمد سعيد عبدالمقصود خوجة بعنوان «من وحي الصحراء» سنة ١٣٥٥هـ، والذي يعد من أهم المراجع الأساسية لتاريخ الحركة الأدبية السعودية.

رحيل الشيخ عبدالغني الدَّقر

توفي في ١٥ شوال الماضي الشيخ عبدالغني بن علي الدَّقر عن ٨٩ سنة. ولد الشيخ بدمشق سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) في بيتِ علمٍ ودينٍ ودعوة. وتلمذ لكبار علماء الشام من أمثال: الشيخ بدر الدين الحسيني، والشيخ

أمين سويد، والشيخ عبدالوهاب دبس وزيت، ومفتي سورية الشيخ الطَّيب محمد أبو اليسر عابدين، والشيخ حسن حبنكة المَيداني، كما لازم أباه الشيخ علي الدقر المربي الداعية.

قضى الشيخ الراحل حياته معلمًا، ومربيًا، ومحَقِّقًا، ومؤلفًا، وخطيبًا، وواعظًا. وخلَّف عددًا من الكتب مثل «معجم القواعد العربية»، و«مختصر تفسير الخازن»، و«فهارس مخطوطات الفقه الشافعي بدار الكتب الظاهرية بدمشق»، و«محاضرات في الدين والتاريخ»، و«لمحات من الكتاب والنبوة والحكمة».

كما ترجم لبعض كبار علماء الأمة، ضمن سلسلة أعلام المسلمين، الصادرة عن دار القلم بدمشق، ترجم فيها الأئمة: مالكًا، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وسفيان بن عُيَينة، والنوويَّ.

ومن تحقيقاته: «قسم الأحمَدين من تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«قواعد الأحكام» للعزِّ بن عبدالسلام، و«تحرير ألفاظ التنبيه أو لغة الفقه» للنووي، و«شرح شذور الذهب» لابن هشام.

وقد ترك الشيخ بعض المصنفات مخطوطة لم ترَ النور، ومن أهم مشروعاته العلمية التي لم تطبع: «الأحاديث الضعيفة في العبادات».

ومن تلاميذه شيخ قراء الشام محمد كريم راجح، والشيخ د. محمد أديب الصالح، ولتلميذه الأستاذ نور الدين طالب كتاب: «غنيمة العمر بأسانيد الشيخ عبدالغني الدقر»، وفيه ترجمة غنيّة للشيخ رحمه الله.

وداعًا صالح العزاز

انتقل إلى رحمة الله تعالى الكاتب والصحفي والفنان الفوتوغرافي صالح عبدالله العزاز يوم الأحد الموافق ١١ شوال ١٤٢٣هـ، حيث وافته المنية في أثناء تلقيه العلاج في مستشفى الملك فيصل التخصصي بمدينة الرياض بعد معاناة مع المرض استمرت عامًا ونصف العام، وكان قد بدأ العلاج في الولايات المتحدة، ثم عاد بعدها إلى الرياض.

وبوفاة العزاز (٤٣ عامًا) يفقد الوسط الصحافي السعودي والخليجي واحدًا من الكفاءات والمبدعين، فهو واحد من (جيل الوسط) من الصحافيين السعوديين.


صالح العزاز

تنقل في عدد من الصحف والمجلات في مواقع ميدانية وقيادية كان أبرزها توليه إدارة التحرير في صحيفة «اليوم» التي تصدر في مدينة الدمام بالمنطقة الشرقية، ومارس العزاز الكتابة الصحفية وفن التحقيقات في عدد من الصحف السعودية والعربية.

وفي السنوات الأخيرة آثر العزاز التفرغ لعشقه وهو التصوير الفوتوغرافي إلا أنه لم يبتعد عن المشاركات الصحفية، إذ جذبت أعماله عددًا من محبي هذا الفن وقد أقام معرضه الأول في عام ١٩٩٦م، وشارك في مسابقة عالمية لاتحاد المصورين العالمي في الصين عام ١٩٩٧م حصد خلالها المركز الثاني والميدالية الفضية، وكان معرضه الأخير في مدينة الرياض عام ٢٠٠١م تحت عنوان «بلا حدود».

سبق له أن نشر كتابه الأول «الجنادرية والحدث» بالتعاون مع زميله الأستاذ حمد العبدلي، أما آخر إصداراته فكان كتاب «المستحيل الأزرق» الذي كتب مقطوعاته الشعرية الشاعر البحريني قاسم حداد وترجم هذه النصوص إلى الفرنسية الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي، وإلى الإنجليزية القاص البحريني نعيم عاشور، وراجعتها سلمى الخضرا الجيوسي، وضم الكتاب ٨٠ صورة التقطها العزاز، وفهرسها وشرحها بنفسه متضمنة شروحًا باللغة النثرية.

والراحل من مواليد مدينة الخبراء في منطقة القصيم عام ١٩٥٩م، ومتزوج وله ٤ بنات وولد واحد، هم: شيهانة، وشهد، وشهلاء، وليانا، وعبدالله.

محسن الرملي يحوز جائزة أركنسا

فازت رواية «الفتيت المبعثر» للكاتب العراقي المقيم في إسبانيا محسن الرملي بجائزة جامعة أركنسا الأمريكية التي تعد من أهم الجوائز التي تمنح للأعمال العربية المترجمة إلى الإنجليزية، ورأت لجنة التحكيم المكونة من أساتذة أدب ونقاد من عدة جامعات أمريكية كالدكتورة مارلين بوث من جامعة براون، ومريم كوك من جامعة ميتشغن التي قامت بترجمة الرواية، أن رواية الفتيت المبعثر أفضل عمل أدبي عربي مترجم إلى الإنجليزية لهذا العام. وسبق أن فاز بهذه الجائزة من الأدباء الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا.

وقد صرح محسن الرملي قائلاً: «أهدي هذه الجائزة لكل إخواني المثقفين العراقيين، فهم يستحقون التقدير لما يبتدعونه في كل المجالات، وإذا كان ثمة ثمرة لهذه الجائزة فإنها تعين على إيصال رفع صوت المثقف العراقي إلى مساحة أوسع وأتمنى أن يلفت الانتباه إلى نتاجات أدباء عراقيين آخرين يستحقون الترجمة والتكريم أكثر مني».

الرملي سبق له وأن أصدر أكثر من عمل أدبي منها: «هدية القرن القادم» قصص ١٩٩٥م عمان، «البحث عن قلب حي» مسرحيات ١٩٩٧م مدريد، «أوراق بعيدة عن دجلة» قصص ١٩٩٨م عمان، وسوف تقوم دار النشر التابعة لجامعة أركنسا الأمريكية بنشر الترجمة الإنجليزية لرواية «الفتيت المبعثر» في العام القادم، وكانت الطبعة العربية في الرواية قد صدرت عام ٢٠٠٠م عن مركز الحضارة العربية في القاهرة، ووصفتها جريدة الأهرام في حينها بأنها «شهادة حقيقية لما حدث ولا يزال يحدث للشعب العراقي» بينما عدّت مؤلفها أحد الأسماء الحاضرة في الأدب العراقي المعاصر، وصاحب واحدة من ألمع التجارب الإبداعية والاغترابية خارج العراق.

اليوبيل الفضي للقافلة

أقامت شركة أرامكو مؤخراً احتفالاً بمعرضها في الظهران بمناسبة مرور نصف قرن على صدور مجلة «القافلة»، التي تعد من أقدم المجلات الثقافية والعلمية السعودية، وقد حضر الحفل عدد كبير من الكتّاب والإعلاميين والمسؤولين، وألقى المدير التنفيذي لأرامكو عبداللطيف بن أحمد العثمان كلمة قال فيها: «إن القافلة ظلت منارة تتيح لأهل العلم والفكر والأدب في السعودية والعالم العربي أن ينفعوا بعلمهم مجتمعاً متعطشاً لما لديهم من كنوز»، كما أكد اعتزاز الشركة بإسهاماتها الثقافية والاجتماعية المتمثلة بإصدار مجلة القافلة بعدما تعتز بإسهاماتها في دعم الاقتصاد الوطني بمشروعاتها البترولية، وخلال الحفل كرمت الشركة رؤساء تحرير القافلة السابقين منذ صدورها وهم: حافظ البارودي، وشكيب الأموي، وسيف الدين عاشور، ومنصور مدني، وعبدالله الغامدي، وعبدالله الخالد، وعصام زين الدين توفيق، وآخرهم محمد الطحلاوي، ولا يزال رئيساً للتحرير، وألقى رئيس التحرير السابق عبدالله الغامدي كلمة رؤساء التحرير ذكر فيها «أن مجلة القافلة كانت مرجعاً موثقاً من المراجع التي اعتمدتها وزارة المعارف يوماً في كثير من نصوص المطالعة، كما ألقى الكاتب عبدالله شباط كلمة الكتاب جاء فيها: «أن مجلة القافلة أصبحت موسوعة علمية لا يستغنى عن الرجوع إليها عالم أو باحث أو طالب معرفة»، وأضاف «لقد كان لهذه المجلة الفضل في تعريفنا بالكثير من الحقائق العلمية والدينية والأدبية، وأفادتنا ببعض ما كتبه أساطين الفكر العربي في وطننا العربي أمثال: طه حسين، وعباس محمود العقاد، ووديع فلسطين، ومنذر الشعار، وجميل علوش، ويوسف نوفل، ونعمات أحمد فؤاد، ونقولا زيادة».



غلاف العدد الأخير

كما ألقى الشاعر البحريني عبدالرحمن رفيع مقاطع شعرية عن النفط، وقصيدة تهنئة لمجلة القافلة.

يشار إلى أن مجلة القافلة قد صدرت في ١٩ ديسمبر /كانون الأول ١٩٥١م، وكانت باسم «الأحداث» ثم

تحولت إلى اسم «الحوادث»، لكن في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٣م استمرت المجلة تصدر باسم «قافلة الزيت» وبعد ثلاثين عامًا وفي عددها (مايو - يونيو ١٩٨٣م) تحولت إلى اسمها الجديد «القافلة»، وكانت تطبع في بيروت حتى عام ١٩٦٤م.

إحياء تراث همنغواي


همنغواي

توصل المجلس الوطني للثقافة والتراث الكوبي إلى اتفاق مع مجلس البحث الاجتماعي العلمي الأمريكي لحفظ وثائق الروائي الأمريكي أرنست همنغواي إلكترونيًا وفق نظام الميكروفيلم على أن تحتفظ مكتبة جون كندي في بوسطن بنسخة تضعها أمام الدارسين. وكان الرئيس الكوبي فيدل كاسترو قد دعا الباحثين والمؤسسات الأكاديمية الأمريكية إلى التعاون بشأن حفظ وثائق همنغواي ومسودات أعماله التي تركها في كوبا حيث قضى سنواته الأخيرة في مزرعة بالقرب من العاصمة الكوبية هافانا، وبعد انتحاره في عام ١٩٦١م أهدت أرملته ماريا كل مقتنيات بيته إلى الحكومة الكوبية، وعادت إلى وطنها.

وفي احتفال إعلان الاتفاق قال كاسترو: إنه لعمل رائع أن يجري الاتفاق مع بلد همنغواي القديم بعد أن شرفنا هذا الروائي العظيم باختياره بلدنا وطنًا له، ومكانًا لروايته. ويعد كاسترو من أشد المعجبين بروايات همنغواي، وقد تحدث في أكثر من مناسبة عن الدروس التي تعلمها من رواية «لمن تقرع الأجراس» خلال حرب التحرير التي قادها.

وبلغت تكلفة المشروع الذي تموله جمعيات دعم الثقافة الأمريكية خمسمئة ألف دولار، قدمت منها مؤسسة روكفلر ٧٥ ألف دولار.

ومن ضمن مقتنيات همنغواي الثمينة القارب الذي أهداه إلى صديقه الصياد الكوبي غريغوريو فونتيس الذي استلهم شخصيته لرواية «الشيخ والبحر»، فونتيس سلم القارب إلى بيت همنغواي الذي تحول إلى متحف بعد وفاته، يضم أكثر من ألفي وثيقة تحفظ في ملفات وصناديق مغلقة داخل قبو هذا المتحف، وبينها مسودات رواياته، وروايات غير مكتشفة ونهاية بديلة لرواية «لمن تقرع الأجراس» التي لم ينشرها. كما تحوي مقتنياته رسائله الشخصية التي تلقاها من عائلته وبينهم زوجته ماريا وابنه غريغوري، إضافة إلى عدد من المراسلات مع رجال الأدب والناشرين، كما يحوي أرشيفه نحو ٣٠٠٠ صورة شخصية كانت قد التقطت له ولأصدقائه وأهله ومعارفه.

جائزة هولندية لعلي فرزات


علي فرزات

منحت «مؤسسة الأمير كلاوس» الهولندية رسام الكاريكاتير السوري علي فرزات جائزتها لهذا العام، والتي تبلغ قيمتها ١٢٥ألف يورو، وذلك بسبب قدرته الفائقة على تحويل قضايا محلية إلى هموم كونية، واعتماده على اللغة المرئية الصريحة في معالجة الحياة اليومية العربية بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

كما منحت المؤسسة الصحفية الإسرائيلية أميرة هاس جائزة أخرى. ولم ير فرزات في أن تنال إسرائيلية جائزة معه أي مشكلة قائلاً: إنها تدافع عن حقوقنا وعن المظلومين في العالم» داعيًا إلى عدم التشرنق وراء الشكليات.

وهذه هي المرة الثانية التي تمنح فيها مؤسسة كلاوس جائزتها شخصية سورية بعد تقديمها في العام الماضي إلى المفكر السوري أنطوان المقدسي.

يشار إلى أن فرزات (٥١) عامًا قد بدأ الرسم في الصحف المحلية السورية، وبدأ في العام الماضي بإصدار صحيفة «الدومري» الساخرة بوصفها أول صحيفة

سورية خاصة تصدر منذ تأميم الصحافة قبل نحو أربعين سنة بدعم من الدكتور بشار الأسد رئيس الجمهورية.

وحققت الدومري مبيعات كبيرة وصلت إلى ٧٥ ألف نسخة أسبوعياً إلا أنها تراجعت بسبب الرقابة حيث منعت مرة على الأقل قبل أن تعود إلى الرمزية مرة أخرى في التعاطي مع الجمهور بدلاً من النقد المباشر. وهذا ما أفقدها جزءاً كبيراً من جمهورها.

غونتر غراس ضيف اليمن

استضافت العاصمة اليمنية صنعاء في الفترة من ٧ - ١٠ ديسمبر / كانون الأول الماضي في فعاليات ملتقى علمي بعنوان «في البدء كان الحوار»، نظمه مركز الدراسات والبحوث اليمني بالتعاون مع «ديوان شرق - غرب» الذي تديره في برلين الشاعرة العراقية أمل الجبوري استضافت عدداً كبيراً من الأدباء والمثقفين والإعلاميين على رأسهم الأديب العالمي غونتر غراس الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٩م، وبحضور عدد من المثقفين العرب، من بينهم عبدالعزيز المقالح مدير المركز، وأدونيس، ومحمود درويش.

وكان غراس قد التقى الرئيس اليمني علي عبدالله صالح الذي منحه وسام الثقافة والأدب، وأثار معه قضية الكاتب اليمني وجدي الأهدل صاحب رواية «قوارب جبلية» الذي منعت الرقابة اليمنية روايته فغادر وطنه خوفاً من المحاكمة، وعاد مؤخراً بعد تدخل غراس لدى الرئيس اليمني علي عبدالله صالح، وقام غراس بالتبرع بمبلغ عشرة آلاف يورو لإنشاء مدرسة حرفية تعلم الجيل الجديد مهنة البناء والتزيين على الطريقة القديمة للحفاظ على الأبنية اليمنية القديمة.

وقد تحدث الروائي الألماني خلال المؤتمر قائلاً: «إنه صديق العرب وصديق الإسرائيليين في الوقت نفسه، وإنه يعارض سياسة شارون الحالية»، وكان من طليعة المنددين بجرائمه، مشيراً إلى أن الحل لن يكون إلا في قيام دولتين إسرائيلية وفلسطينية.

وعن مفهوم صراع الحضارات قال: «إنه صراع من صنيعة الأصوليين الأمريكيين والإسرائيليين والعرب»، وأضاف: «هؤلاء الأصوليون أوجدوه للتعبير عن الصراع القائم بينهم». وحول المساعي الأمريكية لشن حرب على العراق قال: إنه يتمنى تغيير النظام العراقي إلى نظام ديمقراطي يسمح لأصدقائه من الأدباء والكتاب العراقيين في المهجر بالعودة إلى بلادهم، محذراً في الوقت نفسه من شن حرب على العراق وقال: «إن حرباً مثل هذه ستقلق المنطقة، وربما تتسبب في حرب عالمية ثالثة».



الرئيس اليمني يقلد غونتر غراس وسام الثقافة والأدب اليمني

كما تحدث الأديب العالمي عن جائزة نوبل متمنًا أن تعولم هذه الجائزة لتشمل أدباء العالم مع أنه ضد العولمة بشكل عام، إلا في هذا الجانب، كما تطرق إلى الاهتمام بالأدب الذي أصبح في رقابة كثيرة: رقابة الصحف، ورقابة الصناعة الإعلامية، ورقابة المؤسسات الدينية، والرقابة السياسية، أما الرقابة الأسوأ فهي رقابة الأدباء لأنفسهم.

ولم ينحصر المؤتمر في جلسات الحوار الثلاث، بل تعرف الجمهور إلى غونتر غراس الشاعر والرسام، ففي حفلة الافتتاح قرأت الشاعرة نضال الأشقر قصائده المترجمة إلى العربية بقلم أمل الجبوري ورافقها عزفاً على العود وغناء الفنان خالد العبدالله. كما أقام معرضاً لرسوماته في مركز صنعاء الثقافي.

عبدالفتاح، فاطمة/ إضاءات على الاستشراق الروسي.- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م، ١١١ص.



إن الاستشراق معرفة ذات جوانب متعددة، وإن أحد جوانب هذه المعرفة الأساسية كان الفضول المعرفي الذي هدف إلى دراسة الآداب العربية الإسلامية، والمجتمعات التي أنتجت هذه الآداب والحضارة الإسلامية، وتقول المؤلفة: «إننا عندما نتحدث عن الاستشراق فإننا لن نتحدث عن شرق هندي أو شرق صيني، إننا نتحدث عن الشرق العربي المسلم».

لقد كانت إحدى إشكاليات المعرفة الأوربية الغربية أنها كانت تمتلك المنهج العلمي الموضوعي في النظر إلى مشكلات الغرب لكنها لم تكن تمتلك هذا المنهج الموضوعي في التعامل مع الشرق العربي الإسلامي، وآدابه وحضارته. بل عدّ الغرب نفسه وصيًا على العلم والمعرفة والحضارة.

ويركز هذا الكتاب في موضوع الاستشراق الروسي الذي لم يقع في فخ الاستشراق الغربي المسيّس الذي كان أسبق من الاستشراق الروسي في الظهور زمنيًا. وكان الفضول المعرفي الإنساني هو الذي يحكم الاستشراق.

تحاول المؤلفة في هذه الدراسة إلقاء الضوء على الاستعراب الروسي، والدور الذي قام به العلماء والباحثون الروس في فهم آداب الشعوب العربية الإسلامية، ودراسة حضارتها، ومن ثم الإنسان الشرقي المسلم، الذي أبدع هذه الحضارة وهذه الآداب، وكيف تكونت الشخصية العربية الإسلامية في وعي الإنسان الروسي من خلال استعراب العلماء الروس.

تتضمن هذه الدراسة توضيحاً لمفهوم الاستشراق البدايات والدوافع، ثم مصادر الاستعراب الروسي، وبوشكين والأثر الشرقي - الإسلامي، وكراتشكوفسكي والشرق الإسلامي، والمستعربين الروس المعاصرين.

بنعبدالله، عبدالعزيز، (وآخرون)/ لغات الرسل وأصول الرسالات: موسى - عيسى - محمد عليهم الصلاة والسلام.- الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٣٧ص.



يتألف هذا الكتاب من خمسة أبواب، تتناول: الوحي في حياة البشر - لغة موسى عليه الصلاة السلام، ورسالته، ولغة عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ورسالته، ولغة محمد صلى الله عليه وسلم، ورسالته، ثم الخاتمة، ونماذج من الصحف والمخطوطات القرآنية.

ولا يخفى على المفكرين المعاصرين ما ترتكز عليه هذه الموضوعات من أهمية بالغة؛ ذلك أن البحث في أصول الرسالات السماوية وتوثيقها هو حق للناس كافة؛ لأن الوثائق التي تمثل أصول الرسالات التي نزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تهم شعوب الأرض جميعًا، وكذلك الحفاظ عليها هو فرض على البشرية، إذ إن ضياع أصول تلك الرسالات يؤدي إلى ضياع معالم الدين، وتفرق الناس عن الصراط المستقيم، وكيف يرتضي أهل الخير والصلاح ضياع أصول الخطاب الذي نزل إليهم من رب العالمين؟!

ولأهمية هذه الدراسات رأت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ضرورة إخراج هذا الكتاب الذي اشترك في تأليفه الأساتذة: عبدالعزيز بنعبدالله، والدكتور محمد المختار ولد أباه. والدكتور أحمد شحلان، والدكتور عبدالعزيز شهبر، والدكتورة هبة نايل بركات.



التويجري، عبدالعزيز بن عثمان/ تأملات في قضايا معاصرة.. القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ٢٠٥ص.

يقول المؤلف: تموج الحياة الفكرية والثقافية والعلمية في عالم اليوم، بتيارات متضادة وباتجاهات مختلفة، وبأفكار يتنافس أصحابها لإثارة الاهتمام والالتفات إليها والحرص على تبنيها والاعتماد عليها في مناحي الحياة كافة، وعلى الرغم من أن قضايا العصر ومعضلاته توجب التعايش بين الثقافات والحوار بين الحضارات وتبادل الأفكار والآراء سعياً لتحقيق الاستقرار للمجتمعات البشرية وإيجاد المناخ المناسب للتفاهم والتعاون على ما فيه الخير والتقدم والازدهار للإنسانية وإن حقيقة الأمر على المستوى الفكري والثقافي، تكشف عن وجود قدر كبير، يتفاوت من مرحلة إلى أخرى، من الحدة ومن المواجهة التي تتداخل فيها المصالح السياسية والاقتصادية وتتحكم في توجيهها الإرادات المتباينة».

ومن موقع الرصد لهذه الحركة الفكرية الثقافية والنظر في دلالاتها ومعانيها والتنبه لغاياتها وأهدافها، راح المؤلف يتأمل في عدد من القضايا الفكرية والثقافية والحضارية المعاصرة التي تثير كثيراً من الجدل والسجال وكثيراً من الضجيج واللغط، وبحكم تخصصه اختار المؤلف التركيز في القضايا الفكرية والثقافية التي تهم المجتمعات الإسلامية المعاصرة، والتي لها تأثير في شتى جوانب الحياة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي. فيبين في هذا الكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، ورسالة الفكر الإسلامي، ومسؤولية الأمة الإسلامية في الحفاظ على الهوية الحضارية والذاتية الثقافية والتشبث بهما والدفاع عنهما.



سيدو، أمين سليمان/ عبدالله بن إدريس: حياته وآثاره وما كتب عنه.. الرياض: النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٩٧ص.

صدر هذا الكتاب بمناسبة تكريم نادي الرياض الأدبي للشيخ عبدالله بن إدريس الرئيس السابق للنادي، وأحد الرواد الأقلاء في الحركة الأدبية السعودية.

يتضمن هذا الكتاب أربعة مباحث رئيسة حول ابن إدريس ونتاجه الفكري وما كتب عنه وعن نتاجه من بحوث ودراسات:

فالمبحث الأول تناول حياته العلمية، ورحلته في البحث عن المعرفة، ونشاطه في مجال الصحافة والتأليف والنشر، والوظائف التي التحق بها، ومشاركاته المتعددة في المؤتمرات والمهرجانات الثقافية داخل المملكة وخارجها.

أما المبحث الثاني فهو حصر ببليوجرافي لنتاج ابن إدريس من أبحاث ودراسات، ومقالات وحوارات، وقصائد شعرية.

والمبحث الثالث عن ابن إدريس في آثار الدارسين، وهو يوثق ما كتب عنه وعن آثاره من دراسات خاصة وعامة.

والمبحث الرابع يختزل آراء بعض الأدباء والمثقفين عن ابن إدريس وهي بمنزلة شهادات علمية، وانطباعات فكرية عنه وعن مؤلفاته.

وبلغ مجموع عناوين المواد التي تم حصرها (٥٨٦) مادة، سبع مواد للكتب والدواوين الشهرية، و(٣٨٥) مادة للبحوث والمقالات والقصائد الشعرية، و(٥٥) مادة حوارات ولقاءات أجريت مع ابن إدريس، و(١٣٩) مادة للدراسات التي تناولت ابن إدريس، منها: (١٢٥) مادة للدراسات، و(١٤) مادة دراسات عامة.



عماري، حنا/ قاموس العشائر في الأردن وفلسطين: تقديم: روكس بن زائد العزيزي .. عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ٦٠٢ ص.

يقول المؤلف في مقدمته «إن الخوض في محيط الأنساب، أمر متشعب المسالك والطرقات، لذا بحثت في بطون كتب التاريخ التي تطرقت إلى القبائل والعشائر في الأردن وفلسطين وما حولهما من الأقطار العربية، وقلبت المئات من الصفحات في كثير من الموارد التي أتيح لي الوقوف عليها، ليخرج هذا السفر شاملاً الحد الأعلى والأوفى من القبائل والعشائر في الأردن وفلسطين، وما تألف منها، وما تحالف معها وانضم إليها، وما تفرع منها. وإذ أعتذر عن أي نقص أو إضافة أي معلومة بالخطأ وزيادة لا ضرورة لها..» ويضيف: «لقد حاولت جهدي تجنب المزالق والتحيز والمبالغات، لكي يكون هذا السفر خاليًا من التملق والتزلف لهذه القبيلة أو تلك العشيرة. فهذا القاموس يعنى في أصول القبائل والعشائر ومنابتها وديرتها ومنازلها ومساكنها، ولا يعنى في غاراتها وأيامها ونخواتها. أما بعض العشائر التي لم أجد لها المراجع فقد دونت اسمها فقط بانتظار من يهمه الأمر، لكي يوافيني بما لديه من الوثائق والمعلومات..».

لقد بُوب هذا القاموس من باب الهمزة إلى الياء ليسهل على الدارس والباحث والطالب والكاتب والمؤلف الاستفادة منه والرجوع إليه أو إلى مصدره بكل يسر ودون عناء. وتوخى المؤلف الإشارة في نهاية كل ترجمة لقبيلة أو عشيرة مباشرة إلى المرجع أو المصدر الذي حصل منه على المعلومة، مبيناً أرقام الصفحات وأرقام المراجع مدرجة محصورة بين قوسين، وكذلك أورد كشافًا في نهاية هذا القاموس لأسماء هذه المراجع ومؤلفيها والمطابع والطبعات وتاريخها والناشرين.



خضر، محمود يوسف / تاريخ الفنون الإسلامية الدقيقة.. أبوظبي : دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠٢م، ٢٣٦ص.

يشتمل هذا الكتاب على دراسة مستفيضة وعميقة للفنون التطبيقية والزخرفية الرئيسة في العصر الإسلامي، وقد استقصى المؤلف المعلومات التي أوردها في هذه الدراسة الماتعة من المصادر الأصلية والمراجع المختصة باللغة العربية والأجنبية، ولم تقتصر مراجعه على الكتالوجات والدوريات الرسمية المتخصصة في الفنون التطبيقية والزخرفية التي أصدرتها الجامعات والمتاحف في البلاد العربية والأجنبية فحسب، بل تعدى ذلك إلى دراسة هذه المباحث في الدوريات والمجلات المختصة بالآثار والفنون في جميع البلاد وجميع اللغات العربية والأجنبية.

ولم يقتصر جهد الباحث على الإفادة مما جاء في تلك المصادر الأصلية والمراجع الزاخرة بالمعلومات في موضوع دراسته، بل تعدى ذلك إلى إثبات إضافات أصيلة غير مسبوقة، وخصوصاً ملاحظاته، لا سيما هجرة الصناع خلال العصر الأيوبي «من سنة ١١٧١- ١٢٥٠م»، تنسب إلى اجتهاد خالص للمؤلف وتعد ابتكاراً غير مسبوق في دراسات الفنون الإسلامية.

وقد زود الباحث هذه الدراسة بمجموعة من اللوحات المصورة يربو عددها على المئة والخمسين، وقد تركزت هذه الدراسة في الفنون الإسلامية الزخرفية دون إهمال للعمارة. ويقول المؤلف عن الكتاب: «إن الصحوة الإسلامية التي بدأت مع أوائل السبعينيات من القرن الماضي وتداعياتها، واهتمام المؤرخين والباحثين بالأحداث السياسية في العصر الإسلامي، والإدارة وأشكال الحكم، وإهمال الفنون والتاريخ والاجتماعي للشعوب، وغير ذلك من الجوانب الحضارية، كل ذلك حفزني إلى تقديم هذا الكتاب للقارئ العربي وللمهتمين بدراسة المظاهر المختلفة لحياة الإنسان.



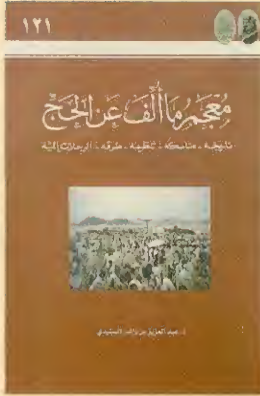
خوري، إبراهيم/ أحمد بن ماجد: حياته، مؤلفاته، استحالة لقائه بفاسكو دي غاما ـ رأس الخيمة: مركز الدراسات والوثائق، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م،٢٩٠ص (سلسلة كتاب الأبحاث؛١).

يعدّ أحمد بن ماجد أشهر معالم بحر الهند العرب في تاريخ الملاحة العربية، لا يضاهية إلا ابن فاطمة المغربي الذي عاش في القرن الثاني عشر/ السادس الهجري وارتبط اسمه بالدوران حول إفريقية عن الطريق الغربية في بحر الظلمات أي المحيط الأطلسي، وهو منظر علم الملاحة العربي، ومطبق علم الهيئة فيه، صاحب الاكتشافات الجغرافية والذي سبق الأوربيين في تعرفهم إلى بحر الهند من أقصاه إلى أقصاه، وواضع نظريات جددت رؤيه الجغرافيين القدامى إلى هذا المحيط.

يتضمن هذا الكتاب أربعة أقسام رئيسة: جاءالقسم الأول منها عن حياة أحمد بن ماجد، أما القسم الثاني فيناقش مؤلفاته التي من أشهرها كتاب «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول»، وكتاب «حاوية الاختصار في أصول علوم البحار»، إضافة إلى مؤلفاته الأخرى، أما الفصل الثالث فيتطرق إلى دراسة الأوربيين لأعمال أحمد بن ماجد، وجاء الفصل الأخير بعنوان «استحالة لقاء أحمد بن ماجد وفاسكو داغاما»، حيث يعالج المؤلف هذا الموضوع في الوثائق الغربية، وفي الكتابات العربية.

السنيدي، عبدالعزيز بن راشد/معجم ما ألفَ عن الحج ـ الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ، ٤١٥ص.

رصد المؤلف في هذا الكتاب ما كتب عن الحج من حيث أحكامه، ومناسكه، وتاريخه، وتنظيمه، وطرقه، ومسالكه، ومنازله في عصور مختلفة، مستمداً ذلك من الكتب والنشرات والرسائل العلمية والبحوث والمقالات والمحاضرات والندوات والوثائق والسجلات الرسمية والإحصاءات والتقارير والخرائط والأدلة المكتوبة باللغة العربية أو ما توصل إليه من اللغات الأخرى، حتى أصبح عدد المواد المجموعة ٢٦٥٥ مادة قسمت سبعة أقسام، وأردفت ببعض الملحقات التوضيحية التي تخدم هذا المجال.



ويأتي هذا الكتاب ضمن مشروع تقوم دارة الملك عبدالعزيز على تنفيذه لتوثيق تاريخ الحج منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، وذلك من خلال رصد المؤلفات والمواد التاريخية، وإعداد عمل موسوعي عن تاريخ الحج يتناول الحج في العصور الماضية والعصر الحاضر، ويضع معجماً لمصطلحات الحج وآثاره، ودراسات عن طرق الحج وحملاته من أنحاء العالم، والتطور الذي شهدته الأماكن المقدسة حتى توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، كما سيتضمن المشروع ترجمة لأبرز الأعمال ذات العلاقة بالحج ورحلاته وذكرياته في جميع اللغات.



الحوسني، إبراهيم راشد/ أثر التحديث الغربي في الهوية في مجتمع إسلامي: الإمارات العربية المتحدة حالة دراسة (الإعلام والتكنولوجيا كمؤثرين في الهوية، إشارة خاصة) ـ الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠١م،٤٣٢ص (رسائل جامعية؛ ٨).

يشتمل هذا الكتاب على ستة فصول رئيسة وخاتمة بالنتائج والتوصيات، ففي الفصل الأول تطرق الباحث إلى مختلف التعريفات والمفهومات وتواريخ مصطلحات التحديث لمفهومي الهوية والدولة، سواء من المنظور

الغربي أم الإسلامي لتبيان الفرق بين هذين العالمين، وتتبع في الفصل الثاني المفهومات نفسها وكيفية انطباقها على الوضع في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وفي الفصل الثالث ناقش المؤلف مختلف النظريات حول وجود أزمة الهوية في المجتمع الإسلامي، مبتدئاً بنظرية فيبر عن التحديث ومظاهره والتي زعم فيها أن الإسلام يفتقدها، بينما راجع الفصل الرابع الفرضيات الموجودة حول أزمة الهوية في دولة الإمارات العربية المتحدة بوصفه مجتمعاً مسلماً معاصراً.

أما الفصل الخامس فيناقش مسألتي التكنولوجيا والعلوم لكونهما عناصر ذات تأثير في الهوية في العالم الإسلامي، خصوصاً فيما يتعلق باستيراد التكنولوجيا العالية التقنية من الغرب واليابان، وعرض الفصل للمفهومات المختلفة الإسلامية والغربية فيما يتعلق بالعلم، والكيفية التي يتعامل بها كل من الغرب والإسلام وتطبيقها، وبأي شكل، وإذا ما كان يوجد هنالك شكل ما قد أثر في هوية الشعوب التي تستورد التكنولوجيا والعلوم، وأخيراً تم تناول أجهزة الإعلام نفسها، وتأثير أجهزة الإعلام الغربية في أجهزة الإعلام المحلية، ومن ثم تأثيرها في هوية المجتمعات الإسلامية، وكيفية انطباق ذلك على الوضع في دولة الإمارات العربية المتحدة.



منصوروف، طائر / القصة التاريخية للسفير نذير تيورياقولوف في الجزيرة العربية ـ موسكو: ريال بريس، ٢٠٠١م، ٣٦٨ص.

يتحدث هذا الكتاب عن النشاط الواسع النطاق الذي قام به نذير تيورياقولوف خلال فترة ثماني سنوات قضاها في المملكة العربية السعودية بصفته الممثل المفوض السوفياتي (السفير) من عام ١٩٢٨م إلى ١٩٣٥م، كما يضم الكتاب الكثير من الوثائق من الأرشيف السوفييتي التي لم تنشر قبل ذلك، ومنها الأوراق المكتوبة بخط يد الممثل المفوض.

يتضمن هذا الكتاب مقدمة ثم القصة التاريخية لنذير تيورياقولوف الممثل السوفييتي المفوض في جدة، ثم الوثائق المصورة عن الأرشيف السوفييتي والتي تتعلق بالرسائل المتبادلة بين الزعماء في الجزيرة العربية والقادة السوفييت آنذاك إضافة إلى الدبلوماسيين. وقد بلغت نحو ٤٠ مذكرة أو رسالة (معظمها باللغة الروسية).



الجاويش، محمد عبدالمعطي / الرؤية الدولية لضبط انتشار أسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط.ـ أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٢م، ٧٥ص. (دراسات إستراتيجية؛ ٧٤).

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تتبع السياسات الدولية لضبط انتشار أسلحة الدمار الشامل في منطقة الشرق الأوسط، وركز الباحث في مرحلة ما بعد حرب الخليج الثانية مستعرضاً أهم المبادرات الدولية؛ مثل مبادرة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش «الأب» في عام ١٩٩١م، ومبادرة الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران في عام ١٩٩١م، كما تتعرض الدراسة لأهم الجهود الدولية في مجال صياغة مواثيق دولية لمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل، مثل معاهدة حظر الأسلحة الكيماوية عام ١٩٩٣م، أو في مجال صياغة مواثيق دولية كالتمديد النهائي لمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٩٥م، وأوضح الباحث في ختام دراسته الكيفية التي يتم من خلالها دفع جهود ضبط انتشار أسلحة الدمار الشامل في منطقة الشرق الأوسط، ويخلص الباحث إلى أن الدبلوماسية العربية يجب أن تركز في تحركها في المرحلة المقبلة في العناصر الآتية:

- تنسيق الجهود المشتركة بين الأطراف الإقليمية كافة ودول العالم الثالث للدعوة إلى إعادة النظر في نظام منع انتشار الأسلحة النووية.

- الدعوة إلى ضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم (٤٨٧) لعام ١٩٨١م، والذي يدعو إسرائيل إلى أن تخضع على وجه السرعة جميع مرافقها النووية لضمانات الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

- محاولة إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بأن دول المنطقة لن تقبل استمرار احتكار إسرائيل لامتلاك الأسلحة النووية.

- محاولة التوصل إلى إجماع عربي يؤكد ضرورة تخلي إسرائيل عن ترسانتها النووية إذا كانت ترغب في التوصل إلى مصالحة تاريخية شاملة مع العرب.



قالوا في الكتاب/ هاشم فرحات؛ محمود سيد محمود يوسف ـ الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٣هـ. ٥٦٠ص. (سلسلة الأعمال المحكمة؛ ٣٩).

يلقي هذا الكتاب الضوء على شهادات الأدباء والحكماء وأهل الفكر حول الكتاب في جميع مجالاته، وقد بلغت جملة الموضوعات العامة التي صنفت تحتها المقتطفات اثنين وعشرين موضوعاً، تمثل في جملتها كل القضايا المتصلة بالكتاب بدءاً من رحلة نشأته وتطوره، وتقييده حتى طباعته، ونشره، وتسويقه، وتداوله، وكل ما يرتبط بذلك من جوانب مباشرة وغير مباشرة، كجمعه واقتنائه سواء من جانب الأفراد أو المكتبات، تمهيداً لاستخدامه أو بالأحرى لاستثماره والإفاده من محتواه.

وتيسيراً على القارئ في التعامل مع هذا العمل والوصول إلى بغيته، ألحقت به كشافات ثلاثة: أولها الكشاف الموضوعي و(الكلمات المفتاحية) إضافة إلى كشاف بالأعلام العرب والأجانب ثم كشاف لعناوين الكتب.



تمبل، كرستين/ المخ البشري: مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك، ترجمة: د. عاطف أحمد. ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٢م، ٢٣٧ص، (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٨٧)

تأتي أهمية هذا الكتاب من طبيعة الموضوعات التي يتناولها، مثل طبيعة العمليات العقلية، وعلاقة المخ بالمظاهر المختلفة للسلوك، ومنها ما يتعلق بكيفية تنمية خبراتنا العملية ونظم أفعالنا وممارستنا للحياة اليومية، والمنظومة العصبية التي تتحكم في النشاط اللغوي بمختلف أنواعه، مثل الذاكرة والتعلم والكلام والقراءة والكتابة والتواصل اليومي، والأساس العضوي للانفعالات والمشاعر، وكذلك الأساس البيولوجي العصبي للاضطرابات العقلية والنفسية.

ولا تقتصر أهمية تلك الموضوعات على ما تعرضه المؤلفة من معارف خاصة بذلك المجال، بل تمتد أيضًا، وربما بدرجة أكبر، إلى المنهج الذي تُدرس عن طريقه وتحلل تلك الظواهر، وهو هنا المنهج التجريبي التحليلي، وهو تجريبي بالمفهوم الإكلينيكي، أي أنه يدرس تأثير استئصال جزء ما من الجهاز العصبي، أو تلفه، أو نموه غير الطبيعي، في أداء الوظائف العقلية والنفسية، أو قد يحدث العكس، بمعنى أن تُرصد أعراض معينة لدى شخص ما، ثم يُجرى تشريح عضوي لجهازه العصبي بعد الوفاة لاستكشاف نوع الحالة التي كان عليها، وعلاقتها بتلك الأعراض، وهو تحليلي، بمعنى أنه لا يكتفي بالنتائج التي يسفر عنها الفحص العضوي، بل يتجاوزها إلى الربط بينها بصورة متجانسة وإلى الاستدلال على ما يترتب عليها من فرضيات جديدة تتطلب بدورها إثباتاً من خلال مزيد من الفحص الإكلينيكي التجريبي.

مجلة الدراسات الفلسطينية
(ع ٥١، صيف ٢٠٠٢م)

مجلة فصلية تصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

تناولت موضوعات هذا العدد مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي - الصهيوني، بدأت بندوة عنوانها «الوضع الفلسطيني الراهن وكيفية الخروج منه»، شارك فيها كل من: مصطفى الحسيني، وإلياس شوفاني، ويوسف صايغ، وفواز طرابلسي.

وخصصت الدورية قسماً للانتفاضة والاجتياح العسكري الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، وأوردت شهادات ومقالات ومقتطفات من تقارير وكتابات فلسطينية وإسرائيلية ودولية تلقي الضوء على جوانب من الرؤيتين الفلسطينية والإسرائيلية لما يجري، وعلى جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي في أثناء الاجتياح، ففي الجانب الفلسطيني تناول إصلاح جاد «الوضع الفلسطيني ما بعد الاجتياح واستشراف لآفاق المستقبل»، وجمال زقوت «الانتفاضة وشروط إنجاز المشروع الوطني»، وهاني المصري «فلسطين أمام مفترق طرق»، ونبيل الخطيب «الضفة الغربية سنة ٢٠٠٢: حكاية الحرب وحكايات منها»، وسميح شبيب «المطلب الرئيسي: الإصلاح».

وفي الجانب الإسرائيلي استعرض سمير صرّاص «التقويم الإسرائيلي لنتائج عملية (السور الواقي)»، ودعا اللواء موشيه يعلون إلى «إعداد القوة من أجل المواجهة المحدودة».

وجاء في الجزء الثالث من الدورية موجز تقرير لمنظمة «مراقبة حقوق الإنسان» عن جرائم الحرب المرتكبة في مخيم جنين، وشهادة صريحة لجندي إسرائيلي شارك بجرافة ثقيلة تولى قيادتها في تدمير مخيم جنين، وشهادة أحد سكان المخيم عن هدم منزله ومقتل ابنه المقعد من جراء انهيار المنزل عليه.

وفي الجزء الرابع والأخير من الدورية قدمت مقتطفات من تقارير وشهادات عن جرائم أُخرى، تشمل القتل على الحواجز، ومنع الحوامل من المرور إلى المستشفيات، وتنكيل قائد كتيبة بصبي للحصول منه على معلومات لا يملكها، ومعاملة الأسرى في المعتقلات، والتدمير المتعمد لمؤسسات السلطة الفلسطينية ومحتويات مكاتبها.

العنوان: ص.ب: ٧١٦٤ - ١١. بيروت لبنان

الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠

هاتف: ٨٠٤٩٥٩ - ناسوخ: ٨٦٨٣٨٧



الدرعية
(س٥، ع١٧، ربيع الأول ١٤٢٣هـ/يونيو٢٠٠٢م)

مجلة فصلية تعنى بتاريخ المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية وتراث العرب.

وجاء العدد حافلاً بالدراسات والبحوث، فكتب د.عبداللطيف بن محمد الحميد افتتاحية الدورية، وقد كان عنوانها: «إطلالة جديدة»، وتناول الشيخ سعد بن عبدالله الجنيدل «معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم [٥]»، وتعرض د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود لـ «الشنانة ودورها التاريخي خلال مراحل الحكم السعودي»، واستعرض د.محمد بن عبدالله آل عمرو «تطور التعليم في بيشة خلال عشرين عاماً من عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ١٤٠٢ - ١٤٢٢هـ»، وأرّخ د.ظافر بن عبدالله الشهري لـ «بنية الشخصية في الرواية السعودية: مرحلة الريادة والبدايات»، وتناول د.خلف بن دبلان الوذيناني «النشاط الاقتصادي لآل خليفة في الزبارة (١١٨٠ - ١١٩٨هـ/١٧٦٦ - ١٧٨٣م)».

وقدمت د.أمينة محمد علي بيطار «دراسة تحليلية لمعركة الزاب» التي نشبت بين الأمويين والعباسيين، وتناول د.عبدالرحيم يوسف آل الشيخ مبارك «الأحوال السياسية للدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر ٢٦١ - ٣٨٩هـ»، وبين د.عبدالله بن ناصر الشقاري «حقيقة

الحديث المرسل وأنواعه عند المحدثين والفقهاء والأصوليين»، وشرح د.محمد بن علي الصامل «القول البديع في علم البديع للعلامة الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي (١٠٣٣هـ) [٢]»، واختتمت بحوث الدورية جنان حسين أحمد بعرض لكتاب مُراد هُوفمان «الطريق إلى مكة».

العنوان: ص.ب: ١٥١٨٥٨ ـ الرياض: ١١٧٧٥ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٢٦٤٦٩٢ ـ ناسوخ: ٤٢٦٤٦٩٢

مجلة الطفولة والتنمية
(ع٦، ج٢، صيف ٢٠٠٢م)



دورية علمية متخصصة محكمة يصدرها المجلس العربي للطفولة والتنمية. زخر هذا العدد من المجلة بعدد من الموضوعات المتنوعة، ففي باب الدراسات والبحوث بحث بعنوان «مدخل في العلاج بالدراما للطفل» للدكتور كمال الدين حسين، وبحث بعنوان «اضطراب قصور الانتباه/النشاط الزائد» للدكتور عبدالله صالح الرويتع، وبحث عن وصف أوضاع العاملين في الصناعة للأستاذ محمد عبدالعظيم وبحث عن ظاهرة التسول في محافظة غزة للأستاذة ميسون العطاونة الوحيدي.

وجاء ملف العدد عن وسائل الإعلام وثقافة الطفل، قدمت له الدكتورة سوزان القليني، واحتوى على محاضرة حول الطفل ووسائل الإعلام للأستاذ عاطف عدلي العبد عبيد وعلى بحث بعنوان قضايا في إعلام الطفولة» للدكتور بلال عرابي، وبحث عن «العلاقة بين الأطفال العرب والتلفزيون» للدكتورة ليلي عبدالمجيد.

وفي العدد نقرأ المقالات الآتية :

«من حاجات الطفل إلى حاجتنا للطفل» للدكتور محمد عباس نور الدين، و«التربية المتحفية وثقافة الطفل العربي» للدكتورة عبلة حنفي عثمان، و«الخصائص النفسية والسلوكية لأطفال ما قبل المدرسة» للأستاذ مبارك سالمين.

وفي باب الكتب والرسائل الجامعية:

قدم الأستاذ علي حامد عرضًا لكتاب «المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق» للدكتور حسن شحاته، وقدم الدكتور زايد بن عجير الحارثي عرضاً لعدد من رسائل الماجستير.

وفي باب الندوات والمؤتمرات تقرير عن المشاركة في اجتماعات الدورة التاسعة للجنة الفنية الاستشارية للطفولة العربية، دمشق ٢٢ ـ ٢٥ أبريل/نيسان ٢٠٠٢م، قدمه محمد عبده الزغير، كما قدمت غادة موسى تقريراً حول ندوة تشغيل الأطفال في البلدان العربية بين إكراهات ورهانات العولمة، وتضمن العدد تجربة المرصد الوطني لحقوق الطفل في المملكة المغربية، وتقرير تنمية المرأة العربية ٢٠٠١م، ومسابقة الباحثين الشبان.

العنوان: المجلس العربي للطفولة والتنمية
ص.ب (١٥) الأورمان ـ الجيزة ـ مصر
فاكس: ٧٣٥٨٠١٣ (٢٠٢)

المجلة العربية للثقافة
(س٢١، ع٤٢، محرم ١٤٢٣هـ/ مارس ـ آذار ٢٠٠٢م)



مجلة نصف سنوية تهتم بمجالات الثقافة، تصدر عن إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

يتضمن هذا العدد من الدورية مجموعة من الأبحاث كان أصحابها قد أعدوها للندوة التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة بوخارست برومانيا في الفترة من ١٤ إلى ١٦ فبراير/شباط عام ٢٠٠٢م، بدأها د.منصف الجزار بموضوع عن «تدريس اللغة العربية بأوربا الوسطى وأوربا الشرقية: الواقع والآفاق»، وتناولت يفيم أ. ريزفان «القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية في روسيا (التاريخ والحاضر)»، ود.ناديا أنجيليسكو «الدراسات العربية في رومانيا»، وقدمت د.يوردان بييف دراسة عنوانها «بحث موجز حول تدريس اللغة العربية وآدابها والحضارة

العربية الإسلامية في بلغاريا»، وشرح د.نيقولا دوبريشان كيفية «دراسة الأدب العربي وترجمته وتلقيه في رومانيا»، وأرّخ د.راده بوجوفتش لـ «تعليم اللغة العربية في صربيا (من اللغة الكلاسيكية إلى اللغة المعاصرة)»، وتناول ياتوشي دانسكي تجربته في ترجمة اللغة العربية وتدريسها، وقدم «نبذة من تاريخ تدريس اللغة العربية في بولونيا»، وللدكتور المنجي بوسنينة «مرتكزات أساسية لحوار حقيقي بين الحضارات»، وختم البحوث د.حسين الواد بموضوع عن «ملامح من البحث اللغوي في تونس (في الثلث الأخير من القرن العشرين)».

العنوان: ص.ب: ١١٢٠ القباضة الأصلية - تونس الجمهورية التونسية



اللسان العربي
(ع٥٢، رمضان ١٤٢٢هـ/ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠١م)

دورية متخصصة نصف سنوية تصدر عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، وتعنى بنشر الأبحاث والدراسات المتعلقة بقضايا المصطلح والترجمة والتعريب. يتضمن العدد محاور أربعة:

- أبحاث ودراسات لغوية.
- أبحاث معجمية ومصطلحية.
- اللقاء الثاني حول «المصطلح الطبي لعلم التشريح».
- أبحاث بلغات أجنبية.

يشتمل المحور الأول على دراسات لغوية حول أعلام لسانية حديثة مثل: «تشومسكي» (جملة الشرط في ضوء النحو العالمي كما يتصوره)، ومفهوم الجهر والهمس عند سيبويه، ورؤية للفارابي في مفهوم لغات العرب، قام بهذه الدراسات كل من د. مازن الوعر، و أ. عبدالحميد زاهيد، و د .حنا حداد.

في هذا المحور أيضاً يتناول د. محيي الدين عبدالرحمن رمضان قضية «التنغيم» في اللغة العربية الفصيحة. أما مسألة «النحت» كأداة من أدوات تنمية اللغة العربية، فيعالجها د. عبدالحي العباس من منظور لغوي خاص. ويختم المحور بدراستين: الأولى حول مشاكل الكتابة والخطأ في اللغة العربية للدكتور الجيلالي حلام، والثانية للدكتور محمد جواد النوري في مراجعته التي أعدها حول «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» لأبي عبيد البكري.

وفي المحور الثاني تقدم المجلة للقارئ المهتم خمس دراسات في المجال المعجمي والمصطلحي: منها بحث يحاول التدقيق في معاني الاصطلاح في الكتابات اللغوية الحديثة التي تتناولها قضايا المصطلح العربي للأستاذ محمد الزكراوي، وفي الاتجاه نفسه يعرض المحور لترجمة حول مسألة التقييس المصطلحي عند (ساجر) كما يحاول الأستاذ عمر (أوكان) تقويم الحركة المعجمية الخاصة باللسانيات العربية ويكشف د. عبداللطيف عبيد عن دور التوثيق والإعلام المصطلحيين في تطوير المصطلحات العربية وانتشارها، ويختم هذا المحور بالجزء الثالث من قوائم مصطلحات علم النفس اللغوي واضطرابات النطق للدكتور عامر جبار صالح.

أما المحور الثالث فيخصص لأعمال اللقاء الثاني حول «المصطلح الطبي لعلم التشريح»، والذي أجري في باريس ما بين ٧ و ٩ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٩٩م، وهو يتضمن أبحاثًا قيمة باللغة العربية وباللغتين الإنجليزية والفرنسية، كانت كلها أساسًا لمشروع مهم حول معجم مصطلحات التشريح الطبي الذي انخرط المكتب في إعداده بالتعاون مع فريق من المتخصصين في جامعة بغداد وذلك بغاية إعطاء القارئ فكرة عن نوعية الأنشطة العلمية التي تعكس اهتمامات المكتب، والتي تدخل ضمن المهام المسندة إليه.

وينتهي العدد بدراستين باللغة الإنجليزية لكل من د. محمد ديداوي، ود. صالح الراوي حول قضايا الترجمة من اللغة العربية وإليها.

العنوان: ٨٢ ، زنقة وادي زيز - أكدال - الرباط ص.ب ٢٩٠ - المملكة المغربية - فاكس ٧٧٠٢٤٠٢٦ ٢١٢٣٧٠

الحوار والانفعال

حمد عبدالرحمن الراشد
الرياض - السعودية

الحوار هو بداية الجدل في أي موضوع، والحوار في حقيقته أنواع مختلفة، فهناك حوار بين الفرد والطبيعة، وحوار بين الفرد والمجتمع، وحوار بين الفرد ونفسه أو الحوار الذاتي.

ولكل حوار ظروفه ومؤثراته المتعلقة بموضوع الحوار، فنجد في الحوار بين الإنسان والطبيعة وجود ظروف معينة تتحكم فيه من أهمها المكان والزمان والحركة، ففي المكان نجد التجربة، وفي الزمان نجد الإدراك الحسي، وفي الحركة كشكل مكاني في ذاتية الزمن نجد الجدل المنطقي بين التجربة والإدراك الحسي للوصول إلى مفهوم عقلي للظاهرة الطبيعية.

وعند الانتقال إلى مستوى الحوار الاجتماعي، نجد إلى جانب الظروف والبيئة عدة مؤثرات مصاحبة، وهذه المؤثرات معقدة إلى درجة تفوق طبيعة الحوار الذاتي أو الحوار البسيط بين فرد وآخر.

وتعقيد هذه المؤثرات ناتج من كونها متنوعة، ثم من كونها ليست ثابتة (أي لا يمكن تعريفها في مستوى طبيعي).. ومن ضمنها الآثار النفسية، وأهم مظاهرها الانفعال.

والانفعال هو المؤثر المميز للجدل الاجتماعي لأننا لا نجده في الجدلين الطبيعي والنفسي، وإن وجدناه فبصورة ضئيلة جداً لا تكاد تظهر أو تصل إلى وجود ظاهرة، ومن ذلك نستنتج عدة أسباب لهذا المؤثر إذا استطعنا دراسة هذا النوع من الجدل دراسة وافية، ومن الأسباب المفترضة لوجوب التأمل والدراسة وجود تناقض في طرفي الجدل، وهذا التناقض لا يعني عدم الاتساق مع الطبيعة بقدر ما يعني اختلاف الإدراك بين جدلين، كل منهما يعدّ جدلاً ذاتياً مستقلاً إذا نظر إليه بتجرد ذهني، وإذا حررناه تجريدياً من الحوار مع الآخر، فإذا تحرك هذا الجدل الذاتي إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية (جدل الطرفين) اكتسب صفات حركية لها نتائج سلوكية ونفسية، أي إنه يقود إلى الذاتية، ومن ضمن هذه النتائج الانفعال.. فالانفعال يمكن تعريفه بأنه: نتيجة لمؤثر في جدل اجتماعي يحدث عند الانتقال من المجال الذاتي إلى المستوى الحركي أو المجال الاجتماعي.

وهناك تفاوت في درجات الانفعال، وهذا التفاوت يمكن إدراكه في نوع الجدل الاجتماعي، وأسباب هذا التفاوت كثيرة، ولكن أهمها اختلاف مستويات المتحاورين الثقافية والأخلاقية، فنجد لكل مستوى درجة من الانفعال تزداد كلما قل الوعي الثقافي أو الأخلاقي، أي بتناسب عكسي معهما، وربما وجد أحد الطرفين لدية النسبة الغالبة من هذين العاملين المؤثرين، ولكن قلة هذا المحتوى عند الطرف الآخر تكون هي السبب الأقوى، أي أن السبب من المحتمل أن يوجد لدى كلا الطرفين أو لدى أحدهما فقط، وهذا كاف لتعقيد ظاهرة الانفعال واشتدادها.

ومن الأسباب المهمة في تفاوت درجات الانفعال في أثناء الجدل الاجتماعي اختلاف بيئة المتحاورين، ونعني بالبيئة على اختلاف أنواعها ابتداء بالبيئة التربوية والأسرية وانتهاء بالبيئة



الجغرافية على أوسع نطاق.

ومؤثرات البيئة لها تأثيرات إيجابية إلى جانب التأثيرات السلبية في استقرار العامل الثقافي والأخلاقي أو تطوره نحو الجانبين - أي جانب التطور الفعال وجانب الانتكاسة والتدهور - في أحيان مختلفة من التاريخ البشري.

وإذا استعرضنا التاريخ الفكري للأمم وتراجم سير الفلاسفة والمفكرين وكبار الكتاب نجد أن نسبة كبيرة منهم قد حصلت له انتكاسة نفسية أو صحية أو حيرة أقلقته أو قرر الانعزال، ومن أهم الأسباب في ذلك ظاهرة الانفعال في الجدل الاجتماعي فنجد المفكر قد اصطدم بالجهل الاجتماعي في مرحلة من مراحل التاريخ أو فترة لها من الطول والقصر حسب ما يرتبط بأحوالها المختلفة، والفجوة المعرفية بينه وبين عموم مجتمعه تزيد من انفعاله وغليانه ومحاولاته الوصول إلى نقاط مضيئة حتى وإن كانت ضئيلة مما يؤدي إلى الشد والإجهاد حتى تكون الانتكاسة أو الحيرة أو قرار الانعزال بالأسلوب الذي يلائم الطبيعة الإنسانية.

وعندما تتقدم الأمم إلى الأمام، ويزداد الوعي بين أفرادها تعود بذاكرتها إلى الماضي، وعندها تدرك إلى أي درجة وقع الظلم على المفكرين السالفين، ولم يتم إنصافهم ومعرفة أهميتهم في المرحلة التي عاصروها.

وبين الاهتمام والانفعال من قبل المبدع وما يقابل ذلك من جهل أو سوء ظن أو لا مبالاة من قبل المجتمع تزداد الفجوة أو تقل حسب الظروف المختلفة مما يحدد آنيا أو مستقبلاً عوامل التأثير السلبية لكلا الجانبين ودور كل منهما في بناء الحوار وتحقيق الأهداف.

وللإنسان المبدع اختيار المسار المرتبط بالحد من التأثير للعامل السلبي والتوازن في ظاهرة الانفعال للوصول إلى تحليل عقلي سليم لمختلف القضايا الجدلية على الساحة الاجتماعية.

صدر عن مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات في تونس



من تأليف الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي
ومن الملتقيات العلمية للمؤسسة:

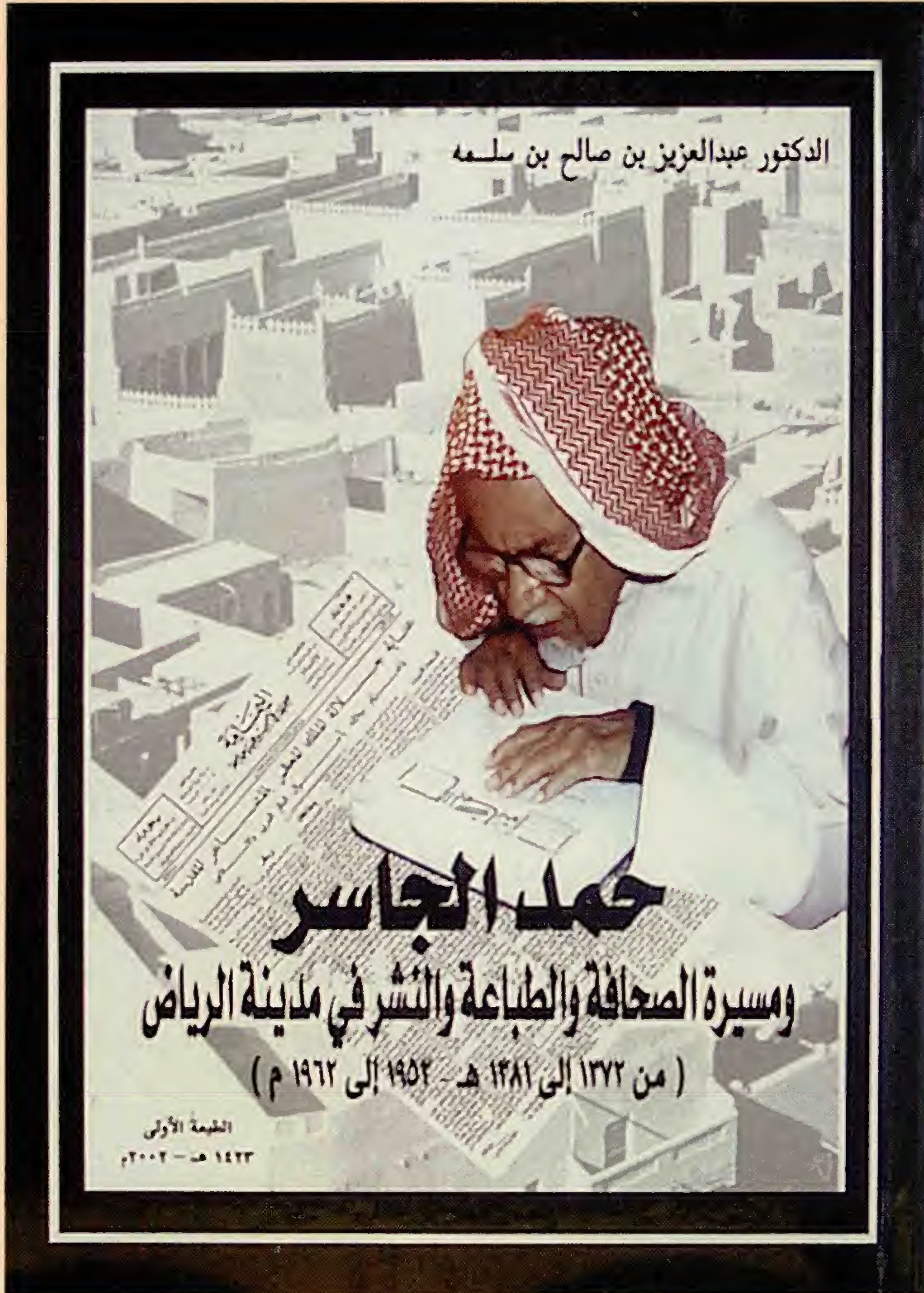
- دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي.
- مقاربة جديدة للعلاقات الإسلامية المسيحية في عصر النهضة الأوروبية.
- علم الموريسكولوجيا: التوجهات والمنهجية.

تطلب من المؤسسة على العنوان الآتي :
ص ب ٥٠ زغوان ١١١٥ الجمهورية التونسية.
الهاتف من تونس: ٧٢٦٧٦٧١٠
من خارج تونس: ٠٠٢١٦٧٢٦٧٦٧١٠
البريد الإلكتروني: temimi. fond@gent. tn
الموقع على الإنترنت باللغة العربية:
www.temimi.org
الموقع باللغة الفرنسية:
www.refer.orgl/fondation temimi





صدر حديثاً



حمد الجاسر ومسيرة الصحافة والطباعة والنشر في مدينة الرياض
(من ١٣٧٢ إلى ١٣٨١هـ-١٩٥٢ إلى ١٩٦٢م)

تأليف د. عبدالعزيز بن صالح بن سلمه

التوزيع: مكتبة العبيكان

صدر حديثاً عن

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

في ثلاثة أجـــــزاء



يطلب من : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

إدارة التسويق - ص ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ - هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣